الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن



النعمة

بين الدوام والزوال

دراسة قرآنية موضوعية

إعداد الطالب
رائد محمد زيادة

إشراف فضيلة الدكتور
عبد السلام حمدان اللوح

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

من كلية أصول الدين

العام الجامعي
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

قرآنٌ كريم إبراهيم: (٣٤)

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته، أحمده سبحانه على ما أكرمني به ووفقني لإتمام كتابة هذه الرسالة، فله الحمد والشكر على ذلك، وامتثالاً لقول الحق:﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ (١)، واقتداءً بقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: " **من لا يشكر الناس لا يشكر الله** "(٢)، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان وخالص الدعاء والامتنان من أستاذي وشيخي ومعلمي فضيلة الدكتور/ **عبد السلام اللوح –حفظه الله-** الذي تكرم وتفضل عليّ بالموافقة على الإشراف على هذه الرسالة، حيث لم يدخر جهداً في نصحي وتوجيهي وإرشادي، ولقد أفدت من توجيهاته الطيبة، وملاحظاته المميزة، ونصائحه المفيدة، وقد شملني بسعة صدره وعظيم صبره وكرم أخلاقه، حيث ردّ على أسئلتي واستفساراتي في كل ساعة من ليل أو نهار، مما عاد عليّ وعلى رسالتي بأعظم الفائدة، وأكبر الأثر لتكتمل على هذا النحو. فجزاه الله عني أعظم الجزاء وأحسنه، ورفع الله درجته وأعلى شأنه ومنزلته، وحفظه من كل سوء ومكروه.

كما وأتقدم بعظيم شكري، وكبير امتناني، وبالغ تقديري من أستاذي الكريمين، عضوي لجنة المناقشة اللذين تكرما بقبول مناقشة هذه الرسالة، لإبداء الملاحظات التي تزيدها حسناً وكمالاً وفائدةً وهما:

* **فضيلة الدكتور: عبد السميع العرابيد - حفظه الله.**

* **فضيلة الدكتور: محمود عنبر - حفظه الله.**

سائلا المولى عز وجل، أن يجزيهما عني خير الجزاء، وأن يضاعف لهما الأجر والمثوبة.

كما وأتقدم بشكري وتقديري العميقين لجميع أساتذتي في كلية أصول الدين عميداً، وأكاديميين، وإداريين، لما لهم عليَّ من فضل التدريس والتوجيه والنصح، فجزاهم الله عنى خيراً.

كما وأشكر الجامعة الإسلامية بغزة، التي أتاحت لي الفرصة للالتحاق بها، لإتمام دراستي العليا، فلها موفور الشكر والتقدير.

ولا يفوتني أن أقدم شكري وتقديري للإخوة العاملين في المكتبة المركزية في الجامعة الإسلامية على ما يبذلونه من جهد لخدمة طلبة العلم، ولمد يد العون والمساعدة للباحثين والدارسين.

كما وأتقدم بالشكر والامتنان للهيئة التدريسية في مدرسة " أبي عبيدة بن الجراح الثانوية للبنين " وعلى رأسهم مدير المدرسة الأستاذ: **كمال الدين أبو عيطة،** الذي منحني كل مساعدة ممكنة، ويسر لي سبل البحث والكتابة. كذلك أخص بالشكر الزميل العزيز الأستاذ: **عدنان رضوان،** الذي وقف إلى جانبي وساندني أثناء فترة الدراسة والكتابة، فلهم جميعاً خالص الشكر، ووافر المحبة والاحترام.

---

(١) البقرة ، (١٥٢).

(٢) سنن الترمذي- كتاب البر والصلة(٢٤) – باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك(٣٥) – ص(٤٤٥)- رقم(١٩٥٤). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

كما وأقدم عظيم عرفاني، وخالص محبتي، إلى **والديَّ الحبيبين** اللذين شجعاني على طلب العلم، وغرسا حب الدين في قلبي، وأخص بالذكر **والدتي الحبيبة** التي طالما شجعتني على دراسة الماجستير، وساعدتني في فترة الدراسة والبحث حيث قامت بتبييض بعض المسودات التي كنت أكتبها بخطها الجميل، فلقد تعبت وسهرت الليالي في سبيل إتمام دراستي، وإني لأتضرع إلى الله العلى القدير أن يبارك في عمرها، وأن يتقبل منها طاعتها، وأن يجزيها ووالدي خير الجزاء وأعظمه وأفضله، وأن يختم لهما بخاتمة السعادة.

ولا أنسى هنا ذكر زوجتي، وشريكة حياتي، ورفيقة دربي " **أم أحمد** " التي سهرت الليالي إلى جانبي، واحتملت أياماً صعبة، لنصل إلى هذا اليوم، وكان لمعاناتها الكبيرة، ولصبرها الجميل بالغ الأثر عليّ لإتمام هذا العمل، وكذلك لا يفوتني ذكر أبنائي الأحباب الذين احتملوا قلة اهتمامي بهم، وتقصيري تجاههم، وهم حبة القلب، وقرة العين، **أريج وشذا وأحمد ونور الدين وربى**.

وكذلك لا يسعني إلا أن أشكر أخي الحبيب **وليد وزوجته** " **أم محمد** "على ما قدماه لي من الدعم والمؤازرة طوال فترة الدراسة والبحث وكذلك أخواتي العزيزات **رائدة ورغدة ورواد** اللواتي قدمن لي التشجيع والدعاء طوال فترة الدراسة.

وفي هذا المقام لا يفوتني أن أذكر جمعاً من الإخوة الأحباب، والأعزاء الأصحاب، الذين لولا وقوفهم بعد الله إلى جانبي ما كان لهذه الرسالة أن تخرج على هذا النحو ومنهم:

الأخ: **أحمد الكحلوت** " **أبو إسماعيل** " الذي أسأل الله أن يكرمه في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ويجزيه عني خير ما جزى به أخاً عن أخيه، حيث تكرم وتلطف وتبرع مشكورا بطباعة هذه الرسالة وترتيبها وتنسيقها باستثناء الفصل الخامس منها والذي قام بطباعته الأخ: **أمجد الضابوس** " **أبو عبد الله** " فجزاه الله كل خير على هذا الجهد، وهذه المساعدة. وكذلك **الأخ الحبيب**: **عاطف القانوع** الذي قدم لي المساعدة في تخريج أحاديث الرسالة، وترجمة بعض أعلامها، وأمدني ببعض كتب التفسير من مكتبته أسأل الله أن يرفع درجته ويتقبل منه، ويعطيه ما يتمنى من الذرية الصالحة، وكذلك الأخ العزيز والأستاذ المحترم: **أحمد عودة** " **أبو بلال** " الذي قدم لي يد المساعدة أيضاً في تخريج بعض الأحاديث والحكم عليها فله مني خالص المحبة والدعاء، ولا يفوتني أن أشكر أحد طلابي الأعزاء الأوفياء الأخ الأصغر: **ضياء الكحلوت** الذي ساعدني في طباعة بعض الفهارس. ولا يفوتني أن أشكر وأثني على الأخ العزيز: **محمد عبد النبي** " **أبو يوسف** " وزوجته الأخت " **هداية بارود** " **أم يوسف** "على ما قدماه لي من المساعدة والدعم، والمؤازرة، والدعاء والأماني الطيبة، فأسأل الله أن يجزيهما عني كل خير.

كما وأخص بالشكر الأخوة الأحباب رفقاء الدرب والقلب الأستاذ: **أيمن الضابوس** " **أبو أحمد** " والأستاذ: **هشام سالم** " **أبو محمد** " والأستاذ: **عزيز عزيز** " **أبو عبد الله** " والأخ **نائل يونس** " **أبو عبد الله** " الذين وقفوا إلى جانبي طوال فترة الدراسة والبحث، وساندوني، وكانوا لي عونا طوال الأيام الخالية.

أسأل الله أن يديم محبتنا فيه، واجتماعنا عليه، وأن يديم عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

وأخيراً أقدم شكري العميق، لكل من دعا لي بظهر الغيب، وتمنى لي التوفيق في هذا البحث، أو أظهر تعاطفاً معي أثناء كتابتي لهذا البحث، ليخرج على هذا الوجه في هذا اليوم المشهود الأغر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

يا رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علـيّ وعلـى والـديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين
اللهـم مـا أصبح ومـا أمسى بي مـن نعمـة أو بأحـد مـن خلقك، فمنك وحـدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، والمنة والإحسان، الحمد لله ذي الجلال والإكرام ، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبأمره تقوم الأرض والسماوات، وبرحمته وعنايته ولطفه تحيا كل الكائنات.

والصلاة والسلام على النبي العابد التواب، الشاكر الأواب، القائم كل ليلة يذكر ربه في المحـراب، حتـى اشتكت قدماه الضر من ورم، وحين أشفق عليه أهله. أعلن على مسامع الدنيا كلها أنه يريد أن يكون عبداً شكوراً لربه ومولاه المنعم المتفضل ، وصلاة وسلاماً على آله الطيبين الأطهار ، وصحبه الكرام الأبـرار ، ومن سار على هديه ما دام الليل والنهار ، وسلم تسليماً كثيراً   أما بعد: -

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، وقد جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عبـاده إلـى صـراط مستقيم. فأقام به على خلقه الحجة .

وإن علم التفسير من أجلِّ العلوم وأنفعها ، وأعظمها ، وأشرفها . لأنه علم يتصل بأشرف كتـاب ، وأجـل خطاب . ومن المعلوم أن شرف العلم يعرف بشرف المعلوم . وإن التفسير الموضوعي هو منهج هـام ، وفن جديد من مناهج وفنون التفسير القرآني . وإن من ألوانه الهامة والـضرورية التفـسير الموضـوعي لموضوع قرآني بالاضافة إلى التفسير الموضوعي للـسورة القرآنيـة ، والمفـردة القرآنيـة ، والوحـدة الموضوعية للقرآن كله .

ولقد وقع اختياري في هذا البحث الذي قمت بكتابته بعد الاستخارة والاستشارة على موضوع هام ، وجدير بالبحث والتأمل والكتابة. وهو (النعمة بين الدوام والزوال) لأتناوله تناولاً موضـوعياً . ولقـد عـرض القرآن الكريم هذا الموضوع عرضاً رائعاً استعرض فيه أصنافاً وألواناً من النعم لا حد لها ، وحثنا علـى القيام بشكرها ، وأبان لنا عن أسباب دوام هذه النعم ، وأسباب زوالها . وأخبرنا أن الإنسان لا يستطيع أن يحصي هذه النعم ولا أن يعرفها كلها . قال تعالى: (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**) سورة إبراهيم "٣٤" .

وإن كثرة النعم تدل على عظيم عناية الله تعالى ، ورحمته بالإنسان . إذ سخر له كل ما فـي الـسماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

لذلك كان عرض هذه النعم من أعظم ما يربط الإنسان بربه ، ويشعره بهذه العناية والرحمة . وإن شـكر هذه النعم والإقرار بها ونسبتها لصاحبها وواهبها يجعل الإنسان دائم الصلة بربه . لـذلك يعـرض هـذا البحث لجانب من هذه النعم ويصوغها في موضوع واحد متكامل . يعرض فيه الباحث لحقيقـة النعمـة ، وخصائصها ، ومعانيها من خلال الآيات المشتملة على ذكر النعمة محرراً مواطن الخلاف مع الترجيح ما أمكن ، وأهم وأعظم نعم الله على الإنسان ، ولأهم أسباب دوام النعمة ، وأهم أسباب زوالها . ويعرض

هذا البحث نماذج من القرآن الكريم لأقوام وأنبياء أدوا حق النعمة بالشكر والذكر والإقرار فأدام الله عليهم النعمة في الدنيا والآخرة .

ولنماذج لم تحافظ على النعمة ولم تؤدِ حقها بل كفرت بها ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، وأصناف البلاء والهلاك والعذاب ، ثم يعرض الباحث في نهاية البحث لثمرات وآثار شكر النعمة وأداء حقها على الفرد والمجتمع ، وكذلك لآثار الكفر بهذه النعم على الفرد والمجتمع ، ومواضيع أخرى سيأتي أوان الحديث عنها بالتفصيل في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى .

ومن خلال نظرة سريعة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ألفيت عدداً كبيراً من الآيات الكريمة زاد على المائة وخمسين آية في كتاب الله مما له علاقة بموضوع البحث ، مما يعطي البحث بعداً شمولياً ويظهره في ثوب جديد .

والله أسأل أن يتم عليَّ نعمته بإتمام هذا البحث على الوجه الذي يرضيه سبحانه ، وأن ينال رضى واستحسان من يقرأه ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أهمية الموضوع :-

١- تعلق موضوع البحث بالقرآن الكريم أشرف وأجل كتاب على وجه الأرض .

٢- أنه يمثل جانباً تطبيقياً للون هام من ألوان التفسير الموضوعي . وهو الموضوع القرآني .

٣- يتعلق بموضوع هام جداً له علاقة بالإنسان ويمس ماضيه وحاضره ومستقبله من زاوية نعمة الله عليه ، ووجود هذه النعمة بين يديه ، بل له علاقة كبيرة بآخرة الإنسان وسعادته يوم القيامة .

٤- يبين للإنسان آيات كثيرةً من نعم الله عليه في ذاته ، وفي الكون الذي يحيط به ، وخصائص هذه النعم وأسباب دوامها وزوالها ، ومعانيها في القرآن الكريم ، وأثرها عليه في حياته وبعد مماته .

٥- يوضح للإنسان المسئولية المترتبة عليه تجاه نعم الله سبحانه وكيف يحافظ على هذه النعم ويرعاها ويحفظها من الضياع والتبديل .

٦- إظهار العلاقة بين النعمة ، وجوانب العقيدة ، وأثر ذلك على التوحيد ، ودلالته على كمال الربوبية ، لأن النعمة تدل على المنعم .

٧- الكشف عن بعض أوجه الإعجاز القرآني في النعمة ومظاهرها ، وأثر ذلك الإعجاز على الفرد والمجتمع وجوداً وعدماً تقدماً وتأخراً .

أسباب اختيار الموضوع :-

١- لطالما استوقفتني منذ صغر سني آيات كثيرة حول موضوع النعمة . وأثارت انتباهي مثل قوله تعالى: (**وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**) سورة إبراهيم "٣٤" . وقوله:

(وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) سورة لقمان "٢٠" . فأردت أن أقف مع هذه الآيات وقفة أطلع فيها على تفسيرها وأسرارها ، لذلك كان هذا البحث خدمة مني لكتاب الله تعالى ، واعترافاً بنعمته علي .

٢- تأملت في أحوال الناس فوجدت أمراً عجيباً ! وجدت أكثر الخلق يعيشون مع النعمة دون ذكر المنعم ، فأردت أن أقف أمام عظمة المنعم ومكانته من النعمة ليلتفت إلى ذلك الغافلون .

٣- في هذا الزمن الذي طغت فيه الحياة المادية على معظم البشر فأصبحوا يرفلون في نعم الله صباح مساء دون أن يلتفتوا إلى الواجبات المترتبة عليهم، ولا يعرفون أسباب دوام النعمة وزوالها. فأردت أن أقدم هذا الجهد علّهم يستيقظون من سباتهم ويعرفون ما عليهم كما عرفوا ما لهم .

٤- من خلال قراءتي المتواضعة واطلاعي على معاني النعمة في كتب الأشباه والنظائر وجدت أن للنعمة معانٍ عديدة ، وهذه المعاني ليست كلها محل اتفاق العلماء وأرباب التفسير وإنما هي محل اختلاف ، فأردت أن أكشف عن التكامل بين هذه الأوجه ، لأن الاختلاف فيها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، فكثرة المعاني تدل على عِظم المنعم مما يقود إلى تنزيهه عن معاني النقص كالبخل والشح والإهمال ، وأردت كذلك أن أرجح بعض أوجه الخلاف ، وأقف عليه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً من خلال كتابتي في هذا الموضوع .

٥- نظراً لأن هذه الدراسة غير مسبوقة – فيما أعلم – أردت إيضاح هذا الموضوع القرآني وإظهاره إلى النور في ثوب جديد ، وأن أثري به الدراسات الإسلامية في التفسير الموضوعي ، وأبرز القيمة العلمية . علّ الله أن ينفع به طلاب العلم خاصة ، والمسلمين عامة .

أهداف البحث :-

١- الرغبة في تسليط الضوء على طبيعة النعمة ، ومفهومها ، وخصائصها ، وأسباب دوامها وزوالها ، وأثرها. ليستفيد من ذلك كل من أراد المعرفة والاطلاع على هذا الموضوع .

٢- إقامة الحجة على الذين عرفوا نعمة الله ثم لم يؤدوا حقها على الوجه الذي يريده ويرضاه المنعم سبحانه وتعالى .

٣- فتح آفاق جديدة أمام الدارسين وطلبة العلم . وذلك من خلال النتائج والتوصيات التي سيخرج بها الباحث إن شاء الله تعالى .

٤- التعرف على طريقة القرآن الكريم ومنهجه الرائع في عرض موضوع النعمة وأبعاده على واقع الحياة المعاصرة .

٥- تقديم دراسة موضوعية شاملة كاملة على شاكلة نظرية عامة لقضية قرآنية هامة حول موضوع النعمة تثري المكتبة الإسلامية وتقدم هذا الموضوع في ثوب جديد للدارسين والراغبين في الاستفادة منه والتأليف فيه .

الجهود السابقة :-

على الرغم من أهمية هذا الموضوع وقيمته الكبيرة في حياة المسلم ، وعلى الرغم من المساحة المهمة التي احتلها في كتاب الله سبحانه وتعالى . إلا أن الباحثين لم يعطوه حقه من البحث ليخرج دراسة قرآنية موضوعية متكاملة الأبعاد . ومن خلال إطلاعي وبحثي وجدت أن أكثر العلماء قد تطرقوا إلى هذا الموضوع من زاوية واحدة فقط أو تعرضوا له بدراسة غير منهجية اتخذت منحى الكتب الثقافية صغيرة الحجم . ومن أهم هذه الكتب والمؤلفات:-

١- كتاب " **الشكر لله عز وجل** " للإمام بن أبي الدنيا جمع فيه الأحاديث المتعلقة بشكر النعمة . وقد حقق هذا الكتاب الشيخ عبد القادر الأرناؤوط .

٢- كتاب " **إحياء علوم الدين** " للإمام أبو حامد الغزالي الذي كتب بحثاً مطولاً عن شكر النعمة وهو بحث قيم لا يستغني عنه أي باحث في هذا الموضوع .

٣- كتاب آخر اسمه " **سر دوام النعم** " للأمير فيصل بن مشعل آل سعود وهو حسبما علمت كتيب صغير ولم يتسن لي الوقوف عليه ولا الوصول إليه .

٤- كتاب اسمه " **بالشكر تدوم النعم** " للكاتبة بدرية الراجحي وهو كتيب أيضاً ولم يتسن لي أيضاً الاطلاع عليه.

٥- رسالة دكتوراه بعنوان " شكر النعمة وإنكارها وأثر ذلك على العقيدة " لأحد الفضلاء.

ومما سبق نلاحظ أن ما ورد في هذه الكتب النافعة والقيمة لهؤلاء العلماء والأفاضل ليس ما أعنيه في البحث الذي أنا بصدده ، فهي إما دراسات غير متخصصة وغير تفسيرية ، وإما دراسات منهجية غير متكاملة وغير محكمة ، وإما دراسات محددة لجانب من جوانب النعمة وهو موضوع الشكر فقط .

وما أعنيه في دراستي هذه أن تكون شاملة للموضوع من جميع جوانبه وهي دراسة قرآنية موضوعية تخصصية .

وللعلم فقد قمت بمراسلة مركز الملك فيصل للأبحاث حول الموضوع ، فجاء الرد أنه لم يسبق لأحد أن كتب تحت هذا العنوان أي بحث يذكر ولله الحمد .

منهجية البحث :-

اعتمد الباحث في بحثه على المنهج الاستقرائي، وذلك من خلال النقاط التالية:

١- قام الباحث بجمع الآيات التي وردت فيها كلمة النعمة وصيغها في القرآن الكريم من خلال الاستعانة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٢- التزم الباحث في هذا البحث بتناول الآيات ذات الصلة بموضوع النعمة ، وما له علاقة بالموضوع من آيات أخرى كآيات الشكر ، بحسب الحاجة لذلك .

٣- تتبع الباحث تفسير الآيات وشرحها من كتب التفسير القديمة والحديثة، وسألتزم بأمانة رد الأقوال إلى أصحابها في هذه التفاسير وحين أحتاج للاختصار أو التصرف أبين ذلك في الهامش.

٤- ذكر سبب نزول الآية إن وجد كمدخل للتفسير إذا اقتضت الضرورة والفائدة ذلك . فإن معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية .

٥- إذا كان للباحث رأي في مسألة ما ، فإنه سيذكره مع الدليل الذي حمله على ذلك دون أن يقطع به معقباً على ذلك بقوله " والله أعلم " .

٦- إظهار وإبراز السياقات القرآنية التي ورد فيها لفظ النعمة، ومحاولة الوقوف على دلالاتها.

٧- توضيح العلاقة بين النعمة وأسباب دوامها وزوالها.

٨- العمل على ربط مفهوم النعمة بالجانب الوجداني للإنسان، ليدرك قيمتها، ويعرف مكانة المنعم منها، وذلك من خلال الإستعانة بالتفاسير التي تركز على هذا الجانب، كتفسير الظلال وغيره.

٩- تخريج الأحاديث الواردة في البحث على أن يكتفي الباحث بالصحيحين ، إن كان الحديث فيهما ، أو في أحدهما . فإن لم يرد سيخرجه الباحث من مظانه ، ناقلاً حكم العلماء عليه ما استطاع ، دون تكلف في إيراد الأحاديث إلا بقدر ما تقتضي الحاجة .

١٠- الترجمة للأعلام غير المشهورة ، والتعريف بالأماكن غير المعروفة ، أما الأعلام المشهورة فلن يترجم الباحث لهم لشهرتهم مثل الخلفاء الأربعة وأصحاب التفاسير، وأما الأماكن المعروفة فلن يعرفها لشهرتها كمكة والمدينة وبيت المقدس .

١١- ربما اقتضت الضرورة الخروج عن الموضوع بشكل سريع وموجز ، لغاية حسنة ، تخدم البحث وتثريه ، وترفع من شأنه .

١٢- الاستعانة بالكتب التي تخدم الموضوع ، كبعض معاجم اللغة ومفرداتها ، وبعض المراجع الثقافية وبعض الكتب القديمة والمعاصرة ذات الصلة بالموضوع كلما دعت الضرورة دون إسهاب أو تفريط .

خطة البحث :-

يتألف البحث من تمهيد وخمسة فصول وخاتمة .

التمهيد: " النعمة ومفهومها في السياق القرآني "

وفيه:-

أولاً: التعريف بالنعمة لغة واصطلاحاً.

ثانياً: النعمة في السياق القرآني .

ثالثاً: المفهوم الحقيقي للنعمة .

المطلب الثالث: نماذج من الذين شكروا فأنعم الله عليهم .

النموذج الأول: نوح عليه السلام .

النموذج الثاني: إبراهيم عليه السلام .

النموذج الثالث: داوود وسليمان عليهما السلام .

النموذج الرابع: موسى عليه السلام .

النموذج الخامس: خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

النموذج السادس: أهل الجنة ونعيمهم .

المبحث الثاني: الجاحدون الذين كفروا بنعمة الله ونماذجهم .

وفيه مطلبين:

المطلب الأول: من هم الذين كفروا نعمة الله.

المطلب الثاني: نماذج من الذين كفروا بنعمة الله وجحدوها.

النموذج الأول: بنو إسرائيل .

النموذج الثاني: قوم سبأ .

النموذج الثالث: كفار مكة .

النموذج الرابع: فرعون .

النموذج الخامس: قارون .

المبحث الثالث: أثر شكر النعمة على الفرد والمجتمع .

وفيه مطالب: -

المطلب الأول: الحفاظ على النعمة وزيادتها .

المطلب الثاني: الجزاء العظيم في الآخرة .

المطلب الثالث: رفع العذاب والنجاة في الدنيا والآخرة .

المطلب الرابع: نيل رضى المولى ومحبته .

المبحث الرابع: أثر كفر النعمة وجحودها على الفرد والمجتمع .

وفيه مطالب: -

المطلب الأول: تبديل النعمة وزوالها .

المطلب الثاني: استدراج أصحابها .

المطلب الثالث: الهلاك والعذاب الشديد .

خاتمة البحث: وفيها خلاصة ما توصل إليه الباحث مع أهم النتائج والتوصيات .

الفهارس: -

فهرس الآيات القرآنية .

فهرس الأحاديث النبوية .

فهرس الأعلام المترجم لهم .

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

والله ولي التوفيق

الباحث

التمهيد
(النعمة ومفهومها في السياق القرآني)

أولاً: تعريف النعمة لغة واصطلاحاً .

ثانياً: النعمة في السياق القرآني .

ثالثاً: المفهوم الحقيقي للنعمة .

التمهيد
(النعمة ومفهومها في السياق القرآني)

أولاً: تعريف النعمة لغة واصطلاحاً.

تعريف النعمة لغةً.

النِّعمة: بكسر النون، الحالة الحسنة، وبناء النعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجِّلسة والرِّكبة والمشِّية.

النَّعمة: بفتح النون، التنعم، وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة.

والنِّعمة: بكسر النون، للجنس تقال للقليل والكثير، ﴿ ... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ...﴾ (١)
قال ابن جني (٢) نَعِمَ في الأصل ماضي يَنْعَمُ، ويَنْعُمُ في الأصل مضارع نَعُم، ثم تداخلت اللغتان فاستضاف من يقول: نِعْمَ لغة من يقول يَنْعُم، فحدث هناك لغة ثالثة وهي نَعُمَ يَنْعَمُ.

والنعيم والنُعمى بالضم، الدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤس، وجمع النعمة نِعمٌ وأنعُم، ونَعِم الشيء لانَ ملمسه ونضر وطاب، والتنعيم: الترفه.

والنُّعم بالضم خلاف البؤس، يقال: يومٌ نُعمٌ ويومٌ بؤسٌ، والجمع أنعُمٌ وأبؤس، ونَعِمَ الشيء نُعومةً أي صار ناعماً ليناً.

والنِّعمة: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنةُ، وما أُنعم به عليك من رزق ومال وغيره.

ونِعمة الله بكسر النون: مَنُّهُ وعطاؤه للعبد مما لا يمكن لغيره أن يعطيه إياه، كالسمع والبصر، وفلان واسع النعمة أي واسع المال وافره، والنعمة كذلك الرفاهة وطيب العيش وسعته ورغده.

---

(١) النحل (١٨) .

(٢) عثمان بن جني الموصلي (أبو الفتح) ، أديب ، نحوي ، لغوي ، ولد قبل سنة ٣٣٠هـ في بغداد وأقرأ بها القرآن حتى وفاته ، من تصانيفه: سر الصناعة وأسرار البلاغة ، شرح كتاب بن مجاهد في القراءات (الشواذ) وسماه (المحتسب) توفي سنة ٣٩٢هـ . انظر: معجم المؤلفين – عمر كحالة – مج٣ – ج٦ص٢٥١ – ٢٥٢ .

والإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين، فإنه لا يقال أنعم فلان على فرسه ودابته.

والنعماء بإزاء الضراء، ﴿ ... وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ... ﴾(١).

والناعمة والمناعمة والمنَعَّمة: الحسنة العيش والغذاء المترفة.

تنعَّمُ: تناول ما فيه، النعمةُ وطيب العيش، يقال نعَّمه تنعيماً، أي جعله في نعمة ولين عيش وخصب، والمنعام: المفضال الذي يعطي ويكثر.

والمنَعَّم: كثير المال، حسن الحال، وافر الخير.

والنَّعم: مختص بالإبل، وجمعه أنعام، وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة، لكن الأنعام تقال للإبل والبقر والغنم، ولا يقال لها أنعام حتى يكون في جملتها الإبل.
ونِعمَ كلمة تستعمل في المدح مقابل بئس التي هي من البؤس في الذم. (٢).

والخلاصة: أن كلمة " النعمة " في أصل اللغة تدل على الحالة التي يستلذها الإنسان، ويستطيبها ويتمناها، وعلى ذلك فإنه يراد بها رفاهية العيش وطيبه ومتعته ورغده وسعته.

---

(١) هود ، (١٠) .
(٢) مراجعي في هذه الخلاصة اللغوية ، انظر:
١- المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – ص٤٩٩ – ٥٠٠ .
٢- لسان العرب – ابن منظور – ج١٢ص٦٨٧ – ٦٨٩ .
٣- القاموس المحيط – الفيروز آبادي – ص١٥٠٠ – ١٥٠١ .
٤- المعجم الوسيط – هيئة التأليف ، إبراهيم أنيس وآخرون – ص٩٧٢ .
٥- الأفعال في القرآن الكريم – عبد الحميد السيد – ج٢ص١٣٦١ .

تعريف النعمة اصطلاحاً .

إذا عرفنا أن معنى النعمة في أصل اللغة الحالة المستلذة للنفس، فإنه قد يكون هناك لذة في المعاصي، ولهذا قيدها بعضهم بما تحمد عاقبته، وتؤمن خاتمته، وينجو صاحبه، فقد اختلفت تعريفات العلماء للنعمة في الإصطلاح على أقوال عدة نورد بعضاً منها:

فيرى الألوسي أن النعمة: هي في الأصل الحالة المستلذة .. وفي معنى ذلك قولهم:
هي ما ينتفع به ويستلذ، ومنهم من زاد: ويحمد عاقبته ، ونقل الألوسي عن الطيبي أن النعمة: هي عبارة عن المنفعة المفعولة على وجهة الإحسان إلى الغير (١).

أما الجرجاني فعرفها بأنها: " ما قصد به الإحسان والنفع لا لغرض أو عوض " (٢).
وقد عرفها الكفوي بقوله: " ثم إن النعمة هي ما تستلذه النفس من الطيبات " (٣).

وذهب أبو زهرة إلى أن النعمة هي: " ما يستلذه الإنسان أو يستطيبه، ولكنها هنا تفسر بأنها المنفعة التي تدوم، ويستطيبها القلب، سواءً أكانت عاجلة أم آجلة، وسواءً أكانت دنيوية أو أخروية، وسواءً أكانت مادية أم روحية.. وإن نعمه تعالى على عباده لا يحصيها العدد ولا يحيط بها الحصر " (٤).

وقد ذكر الإمام الرازي خلافاً في التعريف بين أهل العلم حيث قال في سياق حديثه عن النعمة:
" فمنهم من قال: إنها عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ومن زاد هذا القيد لأنه يرى أن النعمة يُستحق بها الشكر، وإذا كانت قبيحة لا يُستحق بها الشكر، والحق أن هذا القيد غير معتبر، لأنه يجوز أن يستحق الذنب والعقاب، فأي امتناع في اجتماعهما؟ ألا ترى أن الفاسق يستحق بإنعامه الشكر، ويستحق الذم بمعصية الله، فلِمَ لا يكون الأمر جائزاً ههنا كذلك " (٥).

---

(١) انظر: روح المعاني – ج٢١ص٩٣ .
(٢) التعريفات – ص٢٤٢ .
(٣) الكليات – ص٩١٢ .
(٤) زهرة التفاسير – ج١ص٦٨ .
(٥) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) – ج١ص٢٠٨ .

أما المناوي فعرَّف النعمة بقوله: " المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ثم ذكر قول الرازي: فخرج بالمنفعة المضرة المخفية، والمنفعة المفعولة لا على جهة الإحسان إلى الغير، فإن مقصد الفاعل نفسه كمن أحسن إلى جاريته ليربح فيها، أو أراد استدراجه بمحبوب إلى ألم، أو أطعم غيره نحو سكر أو حلواء مسموم ليهلك، فليس بنعمة. ثم قال: والإنعام إيصال الإحسان إلى الغير " (١).

ويتضح مفهوم النعمة من خلال معرفة ضدها وهو " البؤس " ومعنى البؤس الشدة والمكروه سواءً كان في النفس أو الجسم، كالفقر والمرض والبلاء وغيره.

ويراد به كل ما لا يستلذه الإنسان ولا يرغب فيه، قال الراغب: البؤس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في الكناية، نحو ﴿ ... واللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ (٢). ونحو ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٣).
وكلمة " بئس " تستعمل في الذم كله ، كما أن " نعم " تستعمل في المدح كله (٤).

ومما سبق يمكن القول أن ما ذكره أبو زهرة من أن النعمة التي تدوم، فإن النعمة ليس لها مطلق الدوام في الدنيا، وكذلك لا يتضمن تعريف أبي البقاء جهة الانتفاع بالنعمة من الغير، ولقد فات الجرجاني أن يضمن تعريفه تعدي المنفعة إلى الغير لأن ذلك هو الهدف منها، وهو إيصالها لمن ينتفع بها، والرأي أن تعريف الإمام الرازي وما نقل عن الطيبي لا يبعدان عن بعضهما، لاشتمالهما على ذكر المنفعة في النعمة، وذكر الجهة المنتفعة بها، ولا يُغفل تعريفهما دور المنعم كذلك، ومن خلالهما يمكن القول أن التعريف الأشمل والأوفى مع تدارك ما فات الجرجاني وأشار إليه المناوي

أن النعمة: **هي كل منفعة يقصد بها الإحسان إلى الغير، لا لغرض أو عوض.**

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف – ص٧٠٤ .
(٢) النساء ، (٨٤) .
(٣) الأنعام ، (٤٢) .
(٤) المفردات – الأصفهاني – ص٦٦ .

ثانياً: النعمة في السياق القرآني.

أ- النعمة واشتقاقاتها في القرآن الكريم.

لقد ورد لفظ النعمة في السياق القرآني باشتقاقات عديدة فيما يلي أهمها مع الأمثلة:-

١- النِّعمة – بكسر النون – ويراد بها الإنعام، وما ينعم به وهي الدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤس، وبناؤها بناء الحالة والهيئة كالجِّلسة والرِّكبة، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير، وتجمع على نعم وأنعم (١).

قال تعالى: ﴿... فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ...﴾ (٢). وقال عز وجل:﴿... وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴾ (٣).

٢- النَّعمة:- بفتح النون– يقصد بها التنعم، وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة (٤).
قال تعالى:﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾(٥) وقال سبحانه:﴿...وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾(٦).

ولعل كلمة النَّعمة استخدمت في القرآن الكريم في التنعم المنهي عنه كتنعم الكافرين.

٣- أنعم، أنعّمت: ومصدرها إنعام، والإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين (٧) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (٨). وأنعم بمعنى أفضل وأزاد وأعطى.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٤٩٩ .
وانظر: لسان العرب – ابن منظور – ج١٢ص٦٨٧ .
(٢) آل عمران ، (١٧٤) .
(٣) المائدة ، (٣) .
(٤) المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني - ص٤٩٩ .
(٥) المزمل ، (١١) .
(٦) الدخان ، (٢٧) .
(٧) المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٤٩٩ .
(٨) الأحزاب ، (٣٧) .

٤- النعماء: بإزاء الضراء وهي تعرف بالنقيض وهي بالبأساء (١) قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ... ﴾ (٢).

٥- النَّعم: واحد الأنعام وهي المال الراعية، والنعم الإبل خاصة، والأنعام الإبل والبقر والغنم، والعرب إذا أفردت النعم لم يريدوا بها إلا الإبل، فإذا قالوا الأنعام أرادوا بها الإبل والبقر والغنم، واقتصار النعم على الإبل لكونها عندهم أعظم نعمة(٣) قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (٤). وقال جل شأنه: ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾(٥).

٦- النعيم: النعم الكثيرة، وتنعمَ تناول ما فيه من النعمة وطيب العيش (٦).

قال تعالى: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٧).

٧- نَعَّمه: مصدرها تنعيماً، أي جعله في نعمة، أي لين عيش وخصب وسعة (٨).

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ (٩).

٨- الناعمة: الحسنة العيش والغذاء المترفة، يقال: طعام ناعم وجارية ناعمة (١٠).

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ (١١).

٩- نِعْمَ: كلمة تستعمل في المدح بإزاء بئس في الذم (١٢) قال تعالى في كتابه:

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٣). وقال: ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ (١٤).

---

(١) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص٤٩٩ .

(٢) هود ، (١٠) .

(٣) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص٤٩٩ .

وانظر: لسان العرب – ابن منظور – ج١٢ص٦٨٧ .

(٤) الزخرف ، (١٢) .

(٥) المائدة ، (٩٥) .

(٦) المفردات – الأصفهاني – ص٤٩٩ .

(٧) يونس (٩) .

(٨) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص٤٩٩ .

(٩) الفجر ، (١٥) .

(١٠) انظر: لسان العرب – ابن منظور – ج١٢ص٦٨٨ .

(١١) الغاشية ، (٨ ، ٩) .

(١٢) المفردات – الأصفهاني – ص٥٠٠ .

(١٣) ص ، (٤٤) .

(١٤) البقرة ، (٢٧١) .

ب- النعمة في ضوء القرآن المكي والمدني:

لقد توزعت لفظة النعمة بين آيات القرآن المكي والمدني. ومن أجل التعرف على هذا التوزيع، والوقوف على بعض دلالاته، سيوضح الباحث من خلال الجدولين التاليين الآيات والسور المكية والمدنية التي وردت في السياق القرآني:

أولاً: جدول الآيات المكية التي تناول السياق فيها الحديث عن النعمة:-

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
صراط الذين أنعمت عليهم .	أنعمت	الفاتحة	٧
وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً .	الأنعام	الأنعام	١٣٦
وقالوا هذه أنعام وحرث حجرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم .	أنعام	الأنعام	١٣٨
وأنعام حرمت ظهورها .	أنعام	الأنعام	١٣٨
وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه .	أنعام	الأنعام	١٣٨
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا .	الأنعام	الأنعام	١٣٩
ومن الأنعام حمولةً وفرشاً .	الأنعام	الأنعام	١٤٢
أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون .	الأنعام	الأعراف	١٧٩
تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم .	النعيم	يونس	٩
فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام .	الأنعام	يونس	٢٤
ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته .	نعماء	هود	١٠
ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب .	نعمته	يوسف	٦
وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم .	نعمة	إبراهيم	٦
ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً .	نعمة	إبراهيم	٢٨

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون.	الأنعام	النحل	٥
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم .	نعمة	النحل	١٨
ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .	نعم	النحل	٣٠
وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون	نعمة	النحل	٥٣
وإن لكم في الأنعام لعبرة .	الأنعام	النحل	٦٦
أفبنعمة الله يجحدون .	نعمة	النحل	٧١
أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون .	نعمة	النحل	٧٢
وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم.	الأنعام	النحل	٨٠
كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون .	نعمته	النحل	٨١
يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون	نعمة	النحل	٨٣
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف .	أنعم	النحل	١١٢
واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون .	نعمة	النحل	١١٤
ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه .	أنعمه	النحل	١٢١
وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه .	أنعمنا	الإسراء	٨٣
نعم الثواب وحسنت مرتفقا .	نعم	الكهف	٣١
كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى .	أنعامكم	طه	٥٤
وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها .	الأنعام	المؤمنون	٢١

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .	الأنعام	الفرقان	٤٤
لنحيي بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً .	أنعاماً	الفرقان	٤٩
وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل .	نعمة	الشعراء	٢٢
واجعلني من ورثة جنة النعيم .	النعيم	الشعراء	٨٥
واتقوا الذي أمدكم بما تعملون ، أمدكم بأنعام وبنين .	أنعام	الشعراء	١٣٣
وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ .	نعمتك أنعمت	النمل	١٩
قال رب بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين .	أنعمت	القصص	١٧
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين	نعم	العنكبوت	٥٨
أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون .	نعمة	العنكبوت	٦٧
إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم .	النعيم	لقمان	٨
وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة .	نعمه	لقمان	٢٠
ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته	نعمة	لقمان	٣١
فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .	أنعامهم	السجدة	٢٧
يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم .	نعمة	فاطر	٣
ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك .	الأنعام	فاطر	٢٨
أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً .	أنعاماً	يس	٧١
فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم .	النعيم	الصافات	٤٣
ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين .	نعمة	الصافات	٥٧
ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون .	نعم	الصافات	٧٥

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب .	نعم	ص	٣٠
إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب .	نعم	ص	٤٤
وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .	الأنعام	الزمر	٦
ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه .	نعمة	الزمر	٨
ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم .	نعمة	الزمر	٤٩
نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين .	نعم	الزمر	٧٤
الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها .	الأنعام	غافر	٧٩
وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه .	أنعمنا	فصلت	٥١
جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً .	الأنعام	الشورى	١١
وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون .	الأنعام	الزخرف	١٢
لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه .	نعمة	الزخرف	١٣
إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً .	أنعمنا	الزخرف	٥٩
وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .	نعمة	الدخان	٢٧
والأرض فرشناها فنعم الماهدون .	نعم	الذاريات	٤٨
إن المتقين في جنات ونعيم .	نعيم	الطور	١٧
فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون .	نعمة	الطور	٢٩
نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر .	نعمة	القمر	٣٥

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
أولئك المقربون ، في جنات النعيم .	النعيم	الواقعة	١٢
فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم .	نعيم	الواقعة	٨٩
ما أنت بنعمة ربك بمجنون .	نعمة	القلم	٢
إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم .	النعيم	القلم	٣٤
أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم .	نعيم	المعارج	٣٨
فقدرنا فنعم القادرون .	نعم	المرسلات	٢٣
متاعاً لكم ولأنعامكم .	أنعامكم	النازعات	٣٣
وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم .	أنعامكم	عبس	٢٢
إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم .	نعيم	الانفطار	١٣
إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون .	نعيم	المطففين	٢٢
تعرف في وجوههم نضرة النعيم .	النعيم	المطففين	٢٤
وجوه يومئذٍ ناعمة ، لسعيها راضية .	ناعمة	الغاشية	٨
فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه .	نَعَّمهُ	الفجر	١٥
وما لأحد عنده من نعمة تجزى .	نعمة	الليل	١٩
وأما بنعمة ربك فحدث .	نعمة	الضحى	١١
ثم لتسئلن يومئذٍ عن النعيم .	النعيم	التكاثر	٨

ثانياً: جدول الآيات المدنية التي يتناول السياق فيها الحديث عن النعمة:-

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي .	نعمتي أنعمت	البقرة	٤٠
اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .	نعمتي أنعمت	البقرة	٤٧
يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم .	نعمتي أنعمت	البقرة	١٢٢
فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون .	نعمتي	البقرة	١٥٠
ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته .	نعمة	البقرة	٢١١
واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب .	نعمة	البقرة	٢٣١
إن تبدوا الصدقات فنعما هي .	نعما	البقرة	٢٧١
والخيل المسومة والأنعام والحرث .	الأنعام	آل عمران	١٤
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً	نعمة	آل عمران	١٠٣
فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً .	نعمته	آل عمران	١٠٣
ونعم أجر العاملين .	نعم	آل عمران	١٣٦
يستبشرون بنعمة من الله وفضل .	نعمة	آل عمران	١٧١
فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .	نعم	آل عمران	١٧٣
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء .	نعمة	آل عمران	١٧٤

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً .	نعما	النساء	٥٨
ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم	أنعم	النساء	٦٩
قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً .	أنعم	النساء	٧٢
ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام .	الأنعام	النساء	١١٩
أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم .	الأنعام	المائدة	١
اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي .	نعمتي	المائدة	٣
ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون .	نعمته	المائدة	٦
واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به .	نعمة	المائدة	٧
اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم .	نعمة	المائدة	١١
وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم .	نعمة	المائدة	٢٠
قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما .	أنعم	المائدة	٢٣
لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم .	النعيم	المائدة	٦٥
ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم .	النعم	المائدة	٩٥
يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك .	نعمتي	المائدة	١١٠
وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير	نعم نعم	الأنفال	٤٠
ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم .	نعمة أنعمها	الأنفال	٥٣
لهم فيها نعيم مقيم .	نعيم	التوبة	٢١
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .	نعم	الرعد	٢٤

الشاهد من الآية	اللفظ	اسم السورة	رقم الآية
على ما رزقناهم من بهيمة الأنعام .	الأنعام	الحج	٢٨
وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم .	الأنعام	الحج	٣٠
ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .	الأنعام	الحج	٣٤
فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم .	النعيم	الحج	٥٦
واعتصموا بحبل الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير	نعم نعم	الحج	٧٨
ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً .	نعمة	إبراهيم	٢٨
اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءتكم جنودٌ	نعمة	الأحزاب	٩
وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك.	أنعم أنعمت	الأحزاب	٣٧
قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ .	نعمتك أنعمت	الأحقاف	١٥
والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .	الأنعام	محمد	١٢
ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك .	نعمته	الفتح	٢
فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم .	نعمة	الحجرات	٨
لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم .	نعمة	القلم	٤٩
وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً .	النَّعمة	المزمل	١١
وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً .	نعيماً	الإنسان	٢٠

حقائق وفوائد:

من خلال الوقوف على الجدولين السابقين المكي والمدني على التوالي، يمكن استخلاص أهم الفوائد، والنقاط التالية:

أولاً: ورد لفظ النعمة ومشتقاته في السياق القرآني مائة وتسع وثلاثون مرة، وهي على النحو التالي:-

١- وردت أربع وثمانون مرة في الآيات المكية.

٢- وردت خمس وخمسون مرة في الآيات المدنية.

ثانياً: ورد لفظ النعمة ومشتقاته في الآيات المكية في إحدى وثمانين آيةً.

وورد لفظ النعمة ومشتقاته في الآيات المدنية في ست وأربعين آية.

ثالثاً: عدد السور المكية التي اشتملت على لفظ النعمة ومشتقاته تسع وأربعون سورة مكية.

أما عدد السور المدنية التي اشتملت على لفظ النعمة ومشتقاته ست عشرة سورة مدنية.

ملاحظة: هناك أربع آيات مدنية ورد لفظ النعمة ومشتقاته في سياقها لكنها في سورة مكية، وهذه الآيات والسور هي:

١- الآية الثامنة والعشرون من سورة إبراهيم وهي سورة مكية، والآية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ .

٢- الآية الخامسة عشرة من سورة الأحقاف وهي سورة مكية، والآية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ...﴾.

٣- الآية التاسعة والأربعون من سورة القلم وهي سورة مكية، والآية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾.

٤- الآية الحادية عشر من سورة المزمل وهي سورة مكية، والآية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾.

تلخيصاً لما سبق يمكن القول:-

١- ورد لفظ النعمة ومشتقاته مكياً أربعاً وثمانين مرة، في إحدى وثمانين آية، في تسع وأربعين سورة.

٢- ورد لفظ النعمة ومشتقاته مدنياً خمساً وخمسين مرة، في ست وأربعين آيـة، فـي ست عشرة سورة .

٣- هناك خمس مفردات للفظ النعمة ومشتقاته وردت في أربع آيات مدنية، في أربـع سور مكية.

٤- أكثر سورة في القرآن اشتملت آياتها على ذكر النعمة ومشتقاتها هي سورة النحل، حيث وردت ثلاث عشرة مرة، في ثلاث عشرة آية، وسيكون لنا وقفة مـع هـذه السورة - إن شاء الله تعالى.

٥- إجمالي عدد المرات التي ذكرت فيها النعمة ومشتقاتها مائةٌ وتسع وثلاثون مرة فـي مائةٍ وسبع وعشرين آية مكيةً ومدنيةً في خمس وستين سورةً، وهـذا يوضح لنـا مدى اهتمام القرآن الكريم بموضوع النعمة، والحيّز الواسع الذي خصص للحديث عن هذا الموضوع، والآثار الناتجة عن القيام بحقها، أو جحودها ونكرانها، حيث وردت فيما يزيد عـن نصف عدد سور القرآن الكريم، فلا شك فـي أهميـة هـذا الموضوع وقيمته، إذ أن النعمة من أهم الدلائل على عظمة وقدرة ووحدانية المنعم المتفضل، ولذلك لا عجب أن يفـرد لهـا القرآن الكريم كل هـذه المساحـة للحديث عنها في الآيات والسور المكية والمدنية.

رابعاً: سبق القول إن الآيات المكية التي ورد في سياقها الحديث عن النعمة ضعف الآيات المدنية، وكذلك السور المكية أكثر من ضعفي السور المدنية، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة المجتمع المكي عند مجيء البعثة المحمدية بالرسالة الإلهية، فلقد كان هذا المجتمع الجاهلي يعبد الأصنام، ويشرك بالله، فجاء الخطاب القرآني ليذكرهم بالنعم التي وهبهم الله إياها ليتمتعوا بها وليشكروه عليها ويعظموه ويوحدوه.

فناسب هذا الصد منهم وهذا الشرك أن يذكرهم بتلك الآلاء والنعم التي تتوالى عليهم صباح مساء، ليستدلوا بها على وحدانية المنعم وفضله وعظمته وأحقيته بالتوحيد دون سواه.

ولذلك جاءت السور والآيات المكية علَّها تحدث أثراً في نفوسهم، أو حركةً في عقولهم، جراء تفكرهم في آلاء الله ونعمه وفضله فتذعن قلوبهم لنداء التوحيد وتستجيب ضمائرهم لداعي الإيمان.
أما في المرحلة المدنية، فبعد دخول الناس في دين الله أفواجاً، وبعد أن استقر الإيمان في القلوب، ولم يكن ثمة حول المسلمين في المدينة سوى أهل الكتاب، وهم الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها جحوداً وتكبراً، فلم يحتج الأمر من التذكير بالنعمة بذلك القدر الذي احتاجه مشركوا العرب للفت انتباههم.

مسألةٌ أخرى وهي أن المسلمين كانوا في بداية الدعوة بحاجةٍ إلى الإحساس بنعم الله عليهم لمزيدٍ من الثقة في الرسالة وصاحبها ، ومزيدٍ من الثبات على الحق، والاستعداد للتضحية، فكانوا يحتاجون دوماً لمن يذكرهم نعم الله عليهم وينبههم إلى آلاءه، ليعيشوا مع المنعم وليزداد إيمانهم به وثقتهم بمعيته، ويقينهم بنصره وتأييده.

ولذلك ناسب هذا في بداية الدعوة أن يكثر الحديث عن النعمة واستمرار تذكيرهم بها، وحضهم على شكرها، وتحذيرهم من نكرانها.

أما في المدينة بعد هجرتهم فقد تمكن الإيمان في قلوبهم، وثبتت العقيدة في نفوسهم وارتاحت أفئدتهم بعد مواطن النصر والتأييد التي ظهرت تباعاً بعد الهجرة من مكة ، فقل لذلك الحديث عن النعمة لكنه لم يختف تماماً، وكثر الحديث عن المنعم المتفضل مباشرةً، ولذلك نجد السور والآيات المدنية قد قل الحديث فيها عن النعمة بشكل ملحوظ لهذه الأسباب، والله تعالى أعلم.

خامساً: تفصيل عدد المرات التي وردت فيها النعمة ومشتقاتها في القرآن الكريم:-

١- أنعم، أنعمتُ، أنعمنا، أنعمها: ورد هذا الفعل الماضي مجرداً أو مضافاً في القرآن الكريم سبع عشرة مرةً ، وسيكون لنا معه وقفةً بإذن الله .

٢- نَعَّم: ورد هذا الفعل في القرآن الكريم بصيغة المبالغة على وزن " فَعَّلَ " مرة واحدة في سورة الفجر.

٣- ناعمة: وردت هذه المفردة بصيغة " اسم الفاعل " في القرآن الكريم مرةً واحدةً، في سورة الغاشية.

٤- نَعْمَةْ: وردت هذه المفردة مرتين في القرآن الكريم، في سورتي الدخان والمزمل.

٥- نعمة، نعمتك، نعمته، نعمتي: ورد هذا الإسم مجرداً أو مضافاً في القرآن الكريم سبعاً وأربعين مرة، وهي أكثر الصيغ وروداً.

٦- نَعْماء: وردت هذه المفردة مرة واحدة فقط في القرآن الكريم في سورة هود.

٧- نِعَمهُ، أنعُم، لأنعمه: وردت هذه المفردات بصيغة الجمع لكلمة النعمة التي تجمع على نِعَم وأنعم ثلاث مرات في القرآن الكريم، بواقع مرة واحدة لكل منها.

٨- النعيم: وردت هذه المفردة سبع عشرة مرةً في القرآن الكريم .

٩- النَّعَم، الأنعام، أنعاماً، أنعامكم، أنعامهم: وردت هذه المفردات في القرآن الكريم ثلاث وثلاثين مرةً.

١٠- نِعْمَ، نِعِمّا: وردت هذه الأفعال في القرآن الكريم ثماني عشرة مرةً، ست عشرة لِنعمَ، واثنتان لِنعِمَّا(١) .

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – ص٨٧٨ – ٨٨٠ .

سادساً: وقفة مع الأفعال المشتقة من النعمة:-

١- نَعَّمَ: نَعَّمه الله: أي جعله في سعة عيش وترف، والتضعيف للتعدية ومنها قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾(١).

٢- أنعم: أنعم الله عليه: أوصل إليه خيراً، وأحسن إليه، أو دفع عنه ضراً، وأنعم: أفضـــل وأزاد، وقيل معناه صار إلى النعيم ، وكذلك أنعم بمعنى: دخل في النعيم، يعدى بالباء، فيقال: أنعم الله عليه بكذا. وتعدى الفعل " أنعم "بنفسه في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ (٢).

ولم يصرح بالمنعم به في باقي المواضع، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ (٣) قال أبو حيان: أنعم: بجعل الشيء صاحب ما صيغ منه، إلا أنه ضمن معنى التفضيل فعدى بـــ "على "وأصله التعدية بنفسه، أنعمته: أي جعلته صاحب نعمة. وهذا أحد المعاني لـــ " أَفْعَلَ " (٤) .

أما الزمخشري فقال: أطلق الإنعام ليشمل كل إنعام: أي لم يقيده بمفعوله الذي يتعدى إليه بالباء (٥). ونظيره قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ ﴾ (٦). وقوله:﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ (٧). وقوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (٨). ويحتمل التقدير فيها: التي أنعمتها عليكم، أو أنعمت بها عليكم (٩).

---

(١) الفجر ، (١٥) .
(٢) الأنفال ، (٥٣) .
(٣) الفاتحة ، (٧) .
(٤) البحر المحيط – ج١ص١٤٤
(٥) انظر: الكشاف – ج١ص٦٩ .
(٦) النساء ، (٧٢) .
(٧) الإسراء ، (٨٣) .
(٨) الأحزاب ، (٣٧) .
(٩) انظر: الأفعال في القرآن الكريم – عبد الحميد السيد – ج٢ص١٣٦١ – ١٣٦٣ .

٣- نِعْمَ: فعل ماض جامد لإنشاء المدح وأصله "فَعِلَ" بكسر العين وفيه أربع لغات: نَعِـمَ، نِعِـمَ، نِعْمَ، نَعْمَ.

ولقد جاء المخصوص بالمدح محذوفاً في جميع مواضع نعم في التنزيل (١٨ موضعاً).
ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾(١) .

﴿ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾(٢) .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾(٤) .

﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾(٥) .

﴿ نِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(٦) .

قرأ بن يعمر (٧): (فَنَعِمَ عقبى الدار) وهي الأصل، وقرأ بن وثاب(٨): (فَنَعْمَ).
وقرأ الجمهور: (فنِعْمَ) وهي أكثر استعمالاً (٩).

---

(١) آل عمران ، (١٣٦) .
(٢) آل عمران ، (١٧٣) .
(٣) الصافات ، (٧٥) .
(٤) ص ، (٤٤) .
(٥) البقرة ، (٢٧١) .
(٦) الرعد ، (٢٤) .
(٧) يحيى بن يعمر أبو سليمان العدواني البصري ، تابعي جليل ، عرض على ابن عمر وابن عباس وعلى أبي الأسود الدؤلي ، قال البخاري أول من نقط المصاحف يحيى ابن يعمر ، توفي قبل سنة ٩٠ .
انظر: غاية النهاية في طبقات القراء – ابن الجزري – ج٢ص٣٨١.
(٨) يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي ، إمام أهل الكوفة في القرآن ، تابعي ثقة ، قليل الحديث من أكابر القراء
انظر: الأعلام - الزركلي – ج٨ص١٧٦ .
(٩) الأفعال في القرآن الكريم – عبد الحميد السيد – ج٢ص١٣٦٤ .

سابعاً: وقفة مع سورة النحل:-

هذه السورة هي أكثر سورة القرآن الكريم حديثاً عن النعمة ومشتقاتها، حيث ذكرت فيها النعمة ومشتقاتها ثلاث عشرة مرةً في ثلاث عشرة آيةً.
حتى جاز أن تسمى بحق سورة النعمة لكثرة ما اشتملت عليه من ذكر لأنواع النعم وأشكالها وألوانها.

هذه السورة كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية، والوحي، والبعث، وموضوعات جانبية تتعلق بالموضوعات الرئيسية.
وفيها إيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون، وآلائه على الناس ونعمه الكبيرة، وأما ظلال هذه السورة العميقة التي تلون جو هذه السورة فهي الآيات الكونية التي تتجلى فيها عظمة الخلق، وعظمة النعمة، حيث تتراءى فيها ظلال النعمة وظلال الشكر، وتعرض لنماذج عديدة، أظهرها نموذج إبراهيم عليه السلام " شاكراً لأنعمه ".
وموضوع المقطع الأول من السورة هو التوحيد، وأدواته هي آيات الله في الخلق، وأياديه في النعمة (١).

جاء في رحاب التفسير: "وسورة النحل تسمى سورة النعم، ففيها من ألوان النعم مراتب لا تحصى، ومراق لا تستقصى، فمن عاش في أسرارها، واستضاء بضيائها، سلك مدارج الأنوار، ووقف على دقائق الأخبار، لذا لما طال تعداد النعم قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (٢).
ثم ذكر أنواعاً من النعم ولما طال تعدادها قال تعالى:﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(٣).
وهكذا .. مهما شكر الإنسان ربه فلن يحصي فضله " (٤) .

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم.
وداوم عليها بشكر الإلــه ... فإن الإله سريــع النقــم (٥).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢١٥٨ – ٢١٥٩ .
(٢) النحل ، (١٨) .
(٣) النحل ، (٨١) .
(٤) في رحاب التفسير – عبد الحميد كشك – ج٣ص٢٠٢٨ .
(٥) المصدر السابق – ج٢ص٢٠٢٩ .

ويجدر بنا أن نتأمل مقاطع سورة النحل، لنرى إلى أي مدى تستعرض هذه المقاطع شتى أنواع النعم، وأصنافها، وأشكالها، وللدلالة على ذلك سنعرض للمقطع الأول من السورة، حيث يأخذ في عرض الآيات الدالة على وحدانية الخالق، وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم، وكيف يعرض لها هذا المقطع فوجاً فوجاً.

حيث يبدأ الفوج الأول في الحديث عن الخلق الذي سخره الله للإنسان، ويبدأ بالأنعام وفي البيئة التي نزل فيها القرآن تبرز نعمة الأنعام، التي لا حياة بدونها لبني الإنسان، وفي التعقيب قوله: " إن ربكم لرؤوف رحيم ". وكأنه يلفت النظر إلى ما في خلق الأنعام من نعمة، وما في هذه النعمة من رحمة.

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة، نزول الماء وفق نواميس الكون، هذا الماء يذكر بنعمةٍ من نعم الله " لكم منه شراب " فهي خصوصية الشراب، وذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها، وتنسيقاً للجو العام بين المراعي والأنعام، ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان، ثم ظواهر النعمة على البشر في أن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وهي لم تخلق للإنسان ولكنها مسخرة لمنفعته، ومن شاء فليتصور ليلاً بلا نهار، أو نهاراً بلا ليل، وهذا أبرز وأهم ما في الفوج الثالث في جو السورة العام.

أما الفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ (١). من مختلف المعادي إلى الكنوز المخبوءة في الأرض.

أما الفوج الخامس من أفواج الخلق والأنعام في البحر، وهو يشتمل على صنوف من النعم والآلاء، فنعمة البحر وأحيائه الذي منه اللحم الطري من السمك وغيره، إلى الحلية من اللؤلؤ والمرجان، إلى رؤية الفلك مواخر تشق عباب الماء.

---

(١) النحل ، (١٤) .

أما الفوج الأخير في هذا الجو، فهو إلقاء الرواسي حتى لا تميد الأرض، ثم نعمة الأنهار والسبل التي تشق الأرض، ثم النجوم التي يهتدي الناس بها.

وعندما ينتهي استعراض آيات الخلق وآيات النعمة، وآيات التدبير يعقب القرآن على ذلك السياق الطويل الذي هو بصدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون. أفمن يخلق كمن لا يخلق؟! أفلا تذكرون؟. ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).
فهو يعقب على ألوان النعمة بقوله لا تحصوها ... فضلاً على أن تشكروها.

وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها، فلا يشعر الإنسان تركيب جسده ووظائفه وما فيه من نعمة إلا حين يدركه المرض، ولكنه يسعه غفران الله للتقصير ورحمته بالإنسان الضعيف (٢).

---

(١) النحل ، (١٨) .

(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢١٥٩ – ٢١٦٤ .

ثالثاً: المفهوم الحقيقي للنعمة: -

إن النعمة لا تكون نعمة بحد ذاتها إلا إذا ارتبطت بأمر آخر، يصح به الحكم عليها إن كانت نعمةً أو لا، فالنعمة الحقيقية هي التي تحقق السعادة الأخروية، أو ما يوصل إليها، فإن كانت السعادة واللذة مقصورة على الأمور الدنيوية فقط، فليست بنعمة في الحقيقة لأنها لا تحقق السعادة الأخروية.

فكل نعمة لا تقرب العبد من مولاه فهي بليةٌ وليست بنعمة. وقد تكون النعمة في أمور لا تستطيبها، لكن بالنظر إلى العاقبة فإنها تكون نعمة عظيمة، وبهذا المعنى قد يكون البلاء نعمة عظيمة، وقد تكون السعادة الدنيوية بلاءً عظيماً.

قال أبو حامد الغزالي: " اعلم أن كل خير ولذةٍ وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط، وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً، ولكن لا يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة وإما بوسائط، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية " (١).

فالنعمة الحقيقية هي التي توصل إلى أبواب السعادة الأخروية، وإلا فليست بنعمة وإن بدا ظاهرها كذلك، عن أبي حازم (٢) قال: "**كل نعمة لا تقرب من الله عز وجل فهي بلية** " (٣).

ويقول الغزالي: " نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل سافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ... وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلةً للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة، ونيل القرب من الله سبحانه وتعالى " (٤).

---

(١) إحياء علوم الدين – ج٤ص٤٣ .

(٢) أبو حازم اسمه: حماد ابن سلمة ابن دينار الملقب بـــ (الأعرج)، شيخ المدينة المنورة، ثقة عابد من أزهــد أهــل زمانه ، تغير حفظه في آخر حياته، ت-١٦٧هــ. انظر: الأعلام – الزركلي – ج٢ص/٢٧٢.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي – باب في تعديد نعم الله عز وجل وشكرها (٣٣) – (ج٤/ص١٢٧) – رقم (٤٥٣٧).
كتاب فضيلة الشكر لله على نعمه للخرائطي – ص٧. وبعد تتبعه في كتب السنن والمسانيد لم أجد له أصلاً، وإنما هو أثر يرويه بعض أهل الحجاز عن أبي حازم.

(٤) إحياء علوم الدين – ج٤ص٣٢.

فالنعمة الحقيقية هي التي توصل إلى سعادة الآخرة، سواءً كانت النفس تستلذ ذلك أو تكرهه، ولهذا يعتبر البلاء بالنسبة للمؤمن نعمة عظيمة، وقد أخرج بن أبي الدنيا عن سفيان أنه قال: " كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة " (١).

ولهذا نجد أن القرآن الكريم ذم على الجاحدين فهمهم الخاطئ للنعمة، وعدم إدراكهم لطبيعة العطاء، والمنح الرباني، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (٢).

يقول ابن كثير: " يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣). وكذلك في الجانب الآخر: إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانةً له، كما قال تعالى: " كلا " أي ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالتين. إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر " (٤) .

" فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بسط وقبض، ومن توسعة وتقدير .. يبتليه بالنعمة والإكرام، بالمال أو المقام، فلا يدرك أنه الابتلاء تمهيداً للجزاء، إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره، فيعتبر البلاء جزاءً، والامتحان نتيجةً!، ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة!.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني – (ج٧/ص٥٥).

(٢) الفجر ، (١٥ ، ١٦) .

(٣) المؤمنون ، (٥٥-٥٦) .

(٤) تفسير القرآن العظيم – ج٨ص٢٥٠.

ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب الابتلاء جزاءً كذلك يحسب الاختبار عقوبةً، ويرى في ضيق الرزق مهانةً عند الله، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه .. وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور، ومخطئ في التقدير. فبسط الرزق أو قبضه ابتلاءٌ من الله لعبده، ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر، ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر، والجزاء على ما يظهر منه بعد، وليس ما أُعطي من عرض الدنيا أو منع منه هو الجزاء ... وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا.

ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح، ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول، إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء.

غير أن الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان – لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله ... فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك، وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالتين، وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء " (١).

فإضافة الرزق والخيرات لا تكون نعمةً بحد ذاتها، كما اتضح سابقاً إلا إذا استخدمت في كل ما يرضي الله تبارك وتعالى ويوصل صاحبه إلى درجة القرب ومرتبة الرضى، وإلا فإنها تكون ابتلاءً، ولذلك لا نجد من العجب أو المستغرب أن يفيض الله جلَّ شأنه على الكافرين بالأرزاق والخيرات استدراجاً لهم، تأمل قول الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (٢).

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٩٠٥ .

(٢) الأنعام ، (٤٤) .

ثم تأمل معي قوله عز من قائل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (٢).

إنك تدرك للوهلة الأولى الفرق الكبير بين قوله: " فتحنا عليهم أبواب كل شيء ".

وقوله: " لفتحنا عليهم بركات "، ففي ميزان الإسلام فإن بركات السماء والأرض لا يعدلها أبواب كل شيء، إذ أن البركة في العطاء لا ينالها إلا المؤمنون الصالحون الأتقياء، أما أبواب كل شيء فقد ينالها الكثير لكن بدون بركة، وإن نيل الرضى والبركة عين ما يبحث عنه الإنسان في النعمة والعطاء.

وتأمل مرةً أخرى كلام سيد قطب حين يقول: " وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا، إذ أن قيمة العبد الحقيقية تظهر فيما يؤول إليه أمره في الآخرة " (٣). حينذاك يصل إلى النعمة المطلقة التي تورث السعادة الأبدية والقرب الذي لا يُبعد صاحبه بحال من الأحوال.

(١) الأعراف ، (٩٦) .
(٢) الأنعام ، (٤٤).
(٣) في ظلال القرآن – ج٦ص٣٩٥ .

الفصل الأول

معاني النعمة وخصائصها في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث: -

المبحث الأول: خصائص النعمة في القرآن الكريم .

المبحث الثاني: أهم معاني النعمة في القرآن الكريم .

المبحث الثالث: من أعظم وجوه النعم .

المبحث الأول: خصائص النعمة في القرآن الكريم .

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الله جل جلاله مصدر كل نعمة .

المطلب الثاني: النعمة ابتلاء وتمحيص .

المطلب الثالث: نعم الله لا تعد ولا تحصى .

المطلب الرابع: النعم ظاهرة وباطنة .

المطلب الخامس: سنة الله في تغيير النعم .

المقدمة:

إن المتأمل لنعم المولى في السياق القرآني، يجد أن هذه النعم في جلها نعم معتادة، يلاحظها العامة والخاصة، ويدركون منها عناية الله بهم، فالمتعلم يدرك سرها في الظاهر والباطن، ويقف عند أهم خصائصها وميزاتها ووجوهها وصورها وأشكالها، ويلوح له منها أمورٌ تزيده إيماناً بربه، وشعوراً بعظمته، وجلالة قدره، ومدى عنايته بالإنسان خاصة، وبالمخلوقات عامة، ومن كان من العامة فإنه يلحظ ظواهر النعم، ويحس بها في نفسه ومن حوله، فيسارع لسانه إلى الشكر، وقلبه إلى الذكر.

وسنعرض في هذا الفصل إن شاء الله، لأهم خصائص النعم التي تطرق إليها القرآن وأكد عليها مثل: مصدرية هذه النعم، وكونها محل ابتلاء للعبد، وكذلك كثرتها وتعددها، وكون بعضها ظاهرٌ بَيِّنٌ، وبعضها باطن مستتر، وأن للمنعم سنناً في تغيير النعم وتحولها.

ونعرض كذلك لأهم معاني النعم ووجوهها، وأقوال أهل العلم فيها، ثم نختم الفصل بالحديث عن أعظم النعم وأكبرها، وأكثرها قيمةً عند الله، وما يجب على الإنسان تجاه هذه النعم العظيمة التي لا يؤتاها كل إنسان، ولكن الله يختص بها من يشاء من عباده رحمةً به، ولطفاً من الخالق بالمخلوق وتيسيراً عليه في عاجل أمره وآجله.

المبحث الأول: خصائص النعمة في القرآن الكريم.

إن هناك خصائص وصفات تتصف بها النعم ولا تنفك عنها، وقد كشف القرآن الكريم لنا عن هذه الخصائص الهامة التي ينبغي أن نقف عندها، ونتأمل فيها في ضوء عرض القرآن الكريم لها.

المطلب الأول: الله سبحانه مصدر كل نعمة.

هذه الحقيقة الكبرى لا مجال لأن يجادل فيها أحد من الناس، ذلك أن كل نعمة يعيش فيها الإنسان، ويتفيأ ظلالها، ويستمتع بها في حياته هي من الله، فهو سبحانه مصدر كل نعمة، وإن من زعم غير ذلك مطالب بالدليل على ذلك، لأنه في نهاية المطاف سيقر بأن منشأ كل نعمة هو من عند الله واهبها ابتداءً، وذلك أنه لا يوجد أحدٌ في هذا العالم أخبر عن نفسه بأنه خلق وقدَّر وسخر وأوجد من العدم إلا الله وحده، وإذا كان هناك قوة أخرى تزعم ذلك، فلمَ لا تعلن عن نفسها؟.

يقول الشعراوي: لنأخذ مثلاً على ذلك، شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستغلها في بيوتنا، هذه الشجرة من أين جاءت؟ فيقال من السويد، وتسأل أهل السويد عن الشجرة فيقولون من الغابة، وتذهب إلى الغابة فتسأل، فيقولون: من شتلات نُعدها، وتسأل من أين جاءت الشتلات؟ فيقولون: من جيل سابق من الأشجار، والجيل السابق من جيل سبقه، وهكذا ..

وتظل تمضي حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها هذا كله. من الذي أوجد الشجرة الأولى؟! إنه الله فلا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من العدم.

وقد يقال إن هناك تهجيناً وتحسيناً لتُنتج أنواعاً أكثر جودةً .. نقول إن هذا كله لا ينفي أن الثمرة الأولى مخلوقةً خلقاً مباشراً من الله، وأنه سبحانه مصدر هذا الخلق.
ولا يوجد أي شيء أُوجد من عدم على يد البشر، وإنما كله جاء من شيء موجود ومخلوق (١).

وهذا ما تؤكده الآية الكريمة في قوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٢). ومعنى الآية " وما بكم من نعمة " أي كل ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله. أي فهي منه، فتكون ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط . وقوله: فمن الله هو الخبر، وعلى كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً أي ما يكن ، والنعمة إما دينية ، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية، أو خارجية، كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه وتعالى – فعلى العاقل ألا يشكر إلا إياه " (٣).

وفي هذه الآية ذهب القرطبي في تفسيره إلى القول: " ما: بمعنى الجزاء والباء في " بكم " متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم " من نعمة " أي صحة جسم ، وسعة رزق وولد، فمن الله، وقيل: المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي " (٤).

وقال أبو السعود في معنى الآية " والمقصود في قوله: " وما بكم " أي، أي شيء يلابسكم ويصاحبكم، " من نعمة " أية نعمة كانت " فمن الله " فهي من الله، فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط. باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن ملابسة النعمة بهم سبب للإخبار بأنها منه تعالى " (٥).

---

(١) انظر: الأدلة المادية على وجود الخالق – الشعراوي – ص٩-١٠ .
(٢) النحل ، (٥٣) .
(٣) فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٢١٣ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج٥ص٤٦٧ .
(٥) إرشاد العقل السليم – ج٣ص٢٧١ .

وإذا كانت هذه الآية تصرح بهذه الحقيقة، وهي أن كل نعمة من الله فكيف يكون الأمر حين يسدي بشرٌ إلى بشر نعمة أو فضلاً أو عطاءً. هل تكون كذلك من الله سبحانه أم لا تنسب إليه؟.

والجواب على ذلك: ليعلم أن كل ما يصل إلى الخلق من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى، لأن النعمة على ثلاثة أقسام: أحدها: نعمة تفرد الله بإيجادها، نحو أن خلق ورزق، وثانيها: نعمة وصلت من جهة غير الله في ظاهر الأمر، وفي الحقيقة فهي أيضاً إنما وصلت من الله تعالى حتى ولو كان ذلك بطريق غير مباشر، وذلك أن الله مصدر كل موجود، ولأنه خالق تلك النعمة، وهو الخالق لذلك المُنعِم، والخالق لداعية الإنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المُنعِم، إلا أنه تعالى عندما يجري تلك النعمة على يد ذلك العبد ليمنحها عبداً آخر كان ذلك العبد مشكوراً.

ولكن مستحق الشكر في الحقيقة هو الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (١). فبدأ بنفسه تنبيهاً على أن إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الخالق. وثالثها: نعم وصلت من الله إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضاً من الله تعالى، لأنه لولا أن الله هدانا لهذه الطاعات ووفقنا لها وأعاننا عليها، وأزاح الأعذار عنا، لما وصلنا إلى شيء منها فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم في الحقيقة من الله تعالى فهو واهب الكل وخالقه وموجده من العدم، ولذلك لا يستحق الشكر على وجه الحقيقة إلا هو سبحانه وتعالى المنعم المتفضل الواهب دون غيره (٢).

وقد أمدنا الله سبحانه بهذه النعم رحمةً منه وفضلاً .. نعم تترى منه سبحانه لا تعد ولا تحصى، ولكن لرتابة النعمة وحلولها في وقتها يتعودها الإنسان، ثم يذهل عن المنعم سبحانه الذي أسدى إليه كل تلك النعم ومنحه كل تلك العطايا، فوجب عليه أن يعيش مع المنعم، ويستشعر نعمه بين حين وآخر (٣).

وأقول: إن الإنسان إما أن يعيش مع النعمة وينسى المنعم، وهذا هو الجحود بعينه، وإما أن يعيش في النعمة ليصل إلى المنعم، وإما أن يعيش مع المنعم مباشرةً لا مع النعمة وهذا هو الأكمل والأحسن والأجدر بالإنسان، سواءً حصلت النعمة أم لم تحصل.

---

(١) لقمان (١٤) .

(٢) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج١ص٢٠٨ .

(٣) انظر: تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي – ج١٣ص٨٠٠١ .

والحقيقة أن الله سبحانه صاحب كل نعمة وواهبها ومعطيها، هذا إقرار لا يقبل الجدل أو الإنكار، فنعم الله تعالى على عباده لا تعد ولا تحصى، ونحن نقر بذلك ونؤمن به ولا نجادل فيه بل نسلم ونستيقن بذلك . وقد أقر به نبينا صلى الله عليه وسلم حيث كان يقر بذلك كل يوم صباحاً ومساء، ليحقق كمال العبودية، وتمام الخضوع والاستسلام والاعتراف للمنعم بالفضل والمنة، فقد جاء عنه أنه قال: " **من قال حين يصبح، اللهم ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم** " (١).

قال تعالى:﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ (٢). وقال في حق سليمان عليه السلام:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ (٣). وهكذا فمهما شكر الإنسان ربه فلن يحصي فضله عليه ولن يحصر نعمه التي لا تعد والتي منحه إياها إبتداءً منه سبحانه بدون مقابل لذلك (٤).

يقول صاحب التفسير المنير في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾ (٥). " أي: وأي شيء اتصل بكم من نعمة، فهو من الله، فلا مانع غيره، ولا ضار سواه، ثم يقول عن الكفار: كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، وإنكار كونها من الله، في قوله تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ (٦). من النعمة " (٧).

أقول: وعند التأمل في آيات النعمة، يتضح في معظم المواضع في القرآن الكريم أن النعمة منسوبةٌ إلى الله تعالى فهي إما مضافة إلى الله تعالى مثل: نعمة الله، أنعم الله، نعمة ربكم، أو مضافة إلى الضمير مثل: نعمتي، نعمته، نَعَّمَه، أنعمنا، أنعمتُ، نعمتك. أو مضافاً إليها ما يشعر بكون النعمة منه سبحانه مثل قوله تعالى: ﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ (٨).

---

(١) صحيح ابن حبان – باب ذكر الشيء الذي إذا قاله المرء عند الصباح كان مؤدياً بشكر ذلك اليوم – (ج٣/ص١٤٢). رقم (٨٦١). قال شعيب الأرناؤوط حديث حسن. وسنن أبي داوود – كتاب الأدب (٣٥) – باب ما يقول إذا أصبح (١١٠) ص (٧٥٩) – رقم (٥٠٧٣) بزيادة " ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته ".

(٢) الأحقاف (١٥) .

(٣) النمل (١٩) .

(٤) انظر: في رحاب التفسير – عبد الحميد كشك – ج٣ص٢٠٢٨ .

(٥) النحل (٥٣) .

(٦) النحل ، (٥٥).

(٧) التفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص١٥١ .

(٨) القمر (٣٥).

ولننظر مثلاً إلى قوله تعالى في سياق النعمة إليه جل شأنه: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ ...﴾ (١).

وفي هذه الآية يُذكِّر الخالق سبحانه الناس في هذه الإشارة بنعمته عليهم في اصطفائهم، وبما سخر لهم فيها، ثم يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة، وشكر هذا الاصطفاء، وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله، يوجهها إليه، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا في ليلنا ونهارنا، والتي نتقلب بين أعطافها، فليس الأمر مجرد تمتمة يرددها اللسان، إنما هو استحياءٌ للمشاعر لتحس بحقيقة الله، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده، وتشعر بيده في كل ما يحيط بالناس، وكل ما يستمتعون به مما سخره لهم لينتفعوا به، وهو محض الفضل والإنعام منه بلا مقابل منهم، فما هم بقادرين على شيء يقابلون به فضل الله عليهم (٢).

ثم تأمل في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي... ﴾ (٣).
انظر كيف أضاف النعمة إلى الضمير هنا فقال: " نعمتي "، وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها، وإيجاب تخصيص شكره بها سبحانه وتعالى.
وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى ما أفاض عليه من النعم، حمله ذلك على الرضا والشكر (٤).

وقيل في تفسير هذه الآية كذلك " تذكروا ما أنعمت به عليكم فلا تنسوا هذا العطاء والفضل، ولا تغفلوا عنه، واشكروا من منحكم إياه، والمعنى في الآية الكريمة: اذكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاءً بذكر النعمة " (٥).

---

(١) الزخرف (١٣) .
(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٣١٨ .
(٣) البقرة (٤٠) .
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم – أبي مسعود – ج١ص١١٦ .
(٥) فتح الرحمن – عبد المنعم تعيلب – ج١ص٧٥ .

المطلب الثاني: النعمة ابتلاء وتمحيص.

إن كثيراً من الناس يعتقدون ويظنون أن النعمة مظنة الرضا والقبول من الله للعبد، وأنها تصير إلى الإنسان على وجه الاستحقاق، لطاعةٍ أو لقُربةٍ أو لغير ذلك من الأعمال، ولا يخطر بباله أنها قد تكون مصدراً للابتلاء والتمحيص، فعندما يبتلى العبد بالنعمة والإكرام، بالمال أو المقام، لا يدرك أن هذا الابتلاء هو تمهيد للجزاء، وإنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه للكرامة عند الله سبحانه، وعلامةً على اصطفاء الله له، ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الدنيا، فيظن أن البلاء هو الجزاء، والامتحان هو النتيجة.
أو يبتليه بالتضييق عليه في الرزق فيحسب أيضاً الابتلاء جزاءً، والاختبار عقوبةً، ويرى في ضيق الرزق مهانةً عند الله، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه في رزق .. وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور، ومخطئ في التقدير، فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده، ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر.

ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر .. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح، إنه يعطي ليبتلي، ويمنع ليبتلي، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء (١). ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (٢). فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه بالنعم والغنى فأكرمه بالمال، وأفضل عليه ونعمه بما أوسع عليه من فضله، فيقول ربي أكرمن، فيفرح بذلك ويسر به ويقول: ربي أكرمن بهذه الكرامة. وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر، فضيق عليه رزقه وقتره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه، فيقول ذلك الإنسان ربي أهانن أي: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه من العافية في جسمه، والقوة في بدنه.

وقال الطبري: " بل أنكر جل ثناؤه حمد الإنسان ربه على نعمه دون فقره، وشكواه الفاقة فأتبع بقوله: " كلا " وقالوا: معنى الكلام: " كلا " أي لم يكن ينبغي أن يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمده على الأمرين جميعاً، على الغنى والفقر " (٣).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٩٠٥ .
(٢) الفجر (١٥ ، ١٦).
(٣) جامع البيان – ج١ص٨٦٢٧ .

قال الزمخشري: " فإن قلت كيف سمي كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟. قلت: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. فالحكمة فيهما واحدة. ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١). فإن قلت: هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال: " فأكرمه ونعمه "؟ قلت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير فليس بإهانة له لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة، ولكن تركاً للكرامة " (٢).

قال أبو السعود: " والعبد إذا ما ابتلاه ربه، أي عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار، فأكرمه ونعمه، والفاء هنا تفسيرية، فإن الإكرام والتنعيم من الابتلاء، فيقول: " ربي أكرمن " أي: فضلني بما أعطاني من المال والجاه حسبما كنت أستحقه، ولا يخطر بباله أنه فضلٌ تفضل به عليه ليبلوه أيشكر أم يكفر. وأما إذا ما ابتلاه ربه " فقدر عليه رزقه " حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة، " فيقول ربي أهانن " ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، بل التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تفضي إلى خسرانها " (٣).

وقد قرأ بعض القراء " فقدَّر " بالتشديد، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان، أي ضيق عليه رزقه. وقيل: قدر بمعنى قتر وأعطاه ما يكفيه ويكفي حاجته وعياله من غير زيادة ولا نقصان، فيقول بزعمه حينذاك: أن الله أهانه وأذله بالفقر.

وهذا الحال في الحقيقة لا ينطبق إلا على الكافر الذي تكون الكرامة عنده والهوان بكثرة المال وقلته، ومدى حظه من الدنيا. وقد ذكر بعض أهل التفسير أن مقاتل قال: نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر، فرد الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة. ثم قال بعدها " كلا " لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، وإنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته (٤).

---

(١) الأنبياء (٣٥) .
(٢) الكشاف – ج٤ص٢١٠ .
(٣) إرشاد العقل السليم – ج٥ص٨٧٠ .
(٤) انظر: معالم التنزيل – البغوي – ج٤ص٤٥٣-٤٥٤ .

قال الخازن: " فقد يوسع الله تعالى على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره أيشكر أم يكفر، ويضيق عليه ليختبره أيصبر أم يضجر " (١).

ويرى الألوسي أن الإكرام والتنعيم عين المراد بالابتلاء، ولما كان الإكرام والتنعيم في حكم شيء واحد، اقتصر على قوله " أكرمن " في قوله تعالى: " فيقول ربي أكرمن ". وأن كلتا الجملتين متضمنةٌ لإنكار قول الإنسان الذي تضمنته، وإنكار قوله إذا ضيق عليه رزقه ربي أهانن، لدلالته على قصور نظره، وسوء فكره، حيث حسب أن تضييق الرزق إهانة، مع أنه قد يؤدي إلى كرامة الدارين، ولعدم كونه إهانة أصلاً لم يقل سبحانه في تفسير الابتلاء فأهانه وقدر عليه رزقه، نظير ما قال سبحانه أولاً فأكرمه ونعمه (٢).

ومن حيث مناسبة الآيات لما قبلها، فإنه تعالى لما ذكر ما حل بالطغاة المتجبرين مثل قوم عاد، وقوم ثمود، وفرعون ذي الأوتاد، وقارون وغيرهم من العتاة، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر، الذي يبطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء، فإن الإنسان حين يختبره ويمتحنه بالنعمة والغنى واليسار، ويكثر ماله وولده وسلطانه، عند ذلك يقول ربي أحسن إليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟ وأما إذا ما اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق، فيقول، ربي أهانن، غافلاً عن الحكمة التي من أجلها ضيق عليه في رزقه.
وهاتان الآيتان صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله وسوء فهمه وقلة إدراكه: لو لم أستحق هذا لما أعطاني الله إياه ، وكذلك إن قتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله (٣).

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤). وفي الأثر يقول الله عز وجل: " **كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي وأهين من أهنت بمعصيتي** " (٥).

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل– ج٤ص٢٤٥ .
(٢) انظر: روح المعاني – ج١٠ص١٦٠-١٦١ .
(٣) انظر: في رحاب التفسير – عبد الحميد كشك – ج٩ص٧٩٨١-٧٩٨٢ .
(٤) المؤمنون (٥٥) .
(٥) الحديث لم أجده عند أحد من أهل السنن والمسانيد، وإنما هو أثر تفرد الطبري بروايته.
انظر: جامع البيان – (ج١٢/ص٥٧٣).

وحين نقف على هذه الحقيقة القرآنية، ونحن مستيقنين صدقها، وهي أن النعمة من حيث كونها نعمةً هي ابتلاء وتمحيص في حقيقة الأمر، نجد أن أفضل من أدرك هذه الحقيقة إدراكاً واضحاً، وتأملها تأملاً بيناً لا لبس فيه ولا غموض، هم أنبياء الله تعالى ورسله الكرام عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام، ومن هؤلاء الأنبياء الذين أدركوا هذه الحقيقة، فلم يغتر بالنعمة، وهو يعلم أنها محط اختبار له من الله سليمان عليه السلام الذي كان له من النعمة والملك مثلما أراد، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١). فكان ما تمنى من الملك ومن تسخير الأشياء بين يديه، كالريح والجن وغير ذلك كثير. إلا أنه رغم كل هذا الملك العظيم لم تصبه الغفلة، ولم ينس نفسه، وعلم أنه أمام اختبار حقيقي بهذه النعمة، واعتقد أن هذا العطاء من ألوان البلاء التي تعرض للعبد. وتأمل قوله تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٢).

انظر إلى قوله تعالى: " قال هذا من فضل ربي ليبلوني " قال الطبري: " يقول هذا البصر، والتمكن، والملك، والسلطان الذي أنا فيه حتى حمل إليَّ عرش هذه في قدر ارتداد الطرف من مأرب (٣) إلى الشام، من فضل ربي الذي أفضله عليَّ،... ليبلوني، يقول: ليختبرني، ويمتحنني، أأشكر ذلك من فضله عليّ، أم أكفر نعمته عليّ بترك الشكر له؟ وقد قيل: إن معناه أأشكر على عرش هذه المرأة إذ أُتيت به، أم أكفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني ؟ " (٤).

فعندما عاين سليمان عليه السلام ومن معه وجود السرير، رد الفضل إلى الله سبحانه في مجيء سرير بلقيس الذي أُتي به من بلاد اليمن في غمضة عين، أو أقل من ذلك، حينما رأى ذلك السرير بين يديه، أدرك أنه في لحظة اختبار وامتحان حقيقية، فقال معقباً: هذا من فضل ربي ونعمته عليَّ ليختبرني أأشكر بأن أراه فضلاً منه بلا حول ولا قوة مني، أم أجحد وأنكر (٥).

من خلال ما سبق ندرك أن النعمة في حقيقتها محض ابتلاء واختبار للعبد، وأن المكانة والحظوة عن الله لا تنال بكثر المال أو الحظ في الدنيا، وإلا لكان أنبياء الله ورسله أكثر الناس أموالاً، وأوفرهم ملكاً، ولكان فرعون وهامان وقارون وغيرهم هم أفقر الناس، وأقلهم ملكاً وأموالاً، إذن هذه هي سنة الله في الابتلاء والتمحيص، وليس الأمر كما يظن بعض الناس خطئاً.

---

(١) ص ، (٣٥) .

(٢) النمل ، (٤٠) .

(٣) مأرب: مدينة باليمن من بلاد الأزد في آخر جبال حضرموت، وفيها سد شهير. انظر لسان العرب – ج١ص٧٤٦.

(٤) جامع البيان– ج٨ص٦٢٩٨.

(٥) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٩ص٣٠٣.

المطلب الثالث: نعم الله لا تعد ولا تحصى.

إن المتأمل في نعم الله سبحانه المحيطة بنا، يجد أن هذه النعم قد سبقت وجودنا، ونحن حين النظر في بعض هذه النعم التي نحتاج إليها، نجد أنها قد توفرت لنا قبل أن نطلبها من الله، وقبل أن نسأله إياها، ولذلك نجد أن الكون قد أعد سلفاً لاستقبالنا، وأن نعماً لا تعد ولا تحصى قد منحنا الله إياها قبل أن يسكن آدم وذريته هذه الأرض، وأن هذه النعم منه سبحانه قد سبقت إلينا من قبل أن نعرف كيف نسأله إياها. ومثال ذلك الجنين في بطن أمه، حيث توفرت له نعم كثيرة وعناية كبيرة، قبل أن يطلبها أو قبل أن يعرف كيف يطلبها.

ولهذا نجد أن القرآن الكريم يحدثنا عن ذلك في سياق تعداد النعم على الإنسان، فبعد أن ذكر سبحانه ما سخره للإنسان من نزول الماء، وإخراج الثمرات، وتسخير الفلك والبحار والأنهار، وكذلك الشمس والقمر، والليل والنهار، وهي نعمٌ عظمى يندرج تحتها نعمٌ صغرى، قال الحق بعد ذلك: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١).

فالله سبحانه في هذه الآية قد عمم بعد أن خصص فقال: " وآتاكم " ولما كان الكمال لا يكون إلا في الجنة، قال: " من كل ما سألتموه " أي ما أنتم محتاجون إليه، ثم حقق وجه العِظم بفرض ما يوجب العجز فقال: " وإن تعدوا نعمة الله " أي تروموا عدَّ إنعام الملك الأعلى، أو تأخذوا في العد، وقد عبر هنا بالنعمة إرشاداً إلى الاستدلال بالأثر على المؤثر " لا تحصوها " أي لا تحيطوا بها ولا تعرفوا عد الحصى المقابلة لها إن عددتموها بها، كما كانت عادة العرب، أولا تجدوا من الحصى ما يوفي بعددها. هذا في النعمة الواحدة فكيف بما زاد! (٢).

فتأمل، كيف أنه بعد كل هذه النعم يخبرنا سبحانه أنه لا يمكن للإنسان أن يعد نعم الله عليه، ولا أن يحصيها عداً بحال من الأحوال ولو كانت نعمة واحدةً فقط، لأنه لا يستطيع أن يدرك ما في هذه النعمة من نعم متعددة (٣).

ثم أعد النظر مرةً أخرى في قوله: " وأتاكم من كل ما سألتموه "، " أي أعطاكم من كل مسئول سألتموه، وقيل: المعنى وأتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها جل شأنه " (٤).

---

(١) إبراهيم ، (٣٤).

(٢) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٤ص١٨٨-١٨٩.

(٣) انظر: أيسر التفاسير – أبو بكر الجزائري – ج٣ص٦٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٣٣٣.

وقيل في معنى " لا تحصوها " " لا تطيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق، نعم لا تحصى. وهذه النعم من الله فلِّمَ تبدلون نعمة الله بالكفر، وهلا استعنتم بها على الطاعة " (١).

والله سبحانه بعد ذكره لتلك النعم العظيمة التي سبق الحديث عنها، بين من خلال هذه الآية أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى وأسدى لعباده من المنافع، والمرادات، والهبات، والعطايا، والمنح ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء، وإذا أراد أحدٌ من الناس أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع وغير ممكن ، فالواجب عليه على الأقل أن يتأمل في شيءٍ واحدٍ، ليعرف عجز نفسه عنه (٢).

وآتاكم، أعطاكم بعضاً من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم، بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إياها، فيمنحكم لحكمة، ويمنعكم لحكمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣) وجملة " وإن تعدوا " تأكيدٌ للتذييل، وتنبيهٌ على أن ما آتاهم الله كثيرٌ منه معلوم، وكثيرٌ منه لا يحيطون بعلمه، أولا يتذكرونه ... والإحصاء هو: ضبط العدد، وهو مشتق من الحصا اسماً للعدد، وهو منقول من الحصى، صغار الحجارة، لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للغلط (٤).

وهذه الآية الخطاب فيها للجنس من البشر أي: أن الإنسان قد أوتي من كل ما شأنه أن يسأل وينتفع به، ومعنى لا تحصوها: لا تحصروها، ولا تطيقوا عدها هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأما التفضيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله. وقد قال أبو الدرداء: من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه، فقد قل علمه وحضر عذابه (٥).

ومِن في قوله تعالى: "من كل" إما تبعيضية، وإما مؤكدة لاستغراق الحكم." والمعنى على أنها تبعيضية على قراءة الإضافة، وآتاكم بعض ما سألتموه، أما ما احتجتم إليه، وكانت حالكم حال من يسأله إياه، وإن لم يسأل باللسان، بل سأل بالاستعداد والتكوين، فأعطاكم الكساء والغطاء واللباس والوقاية ... وعلى أن من بيانية، يكون المعنى أعطاكم كل ما سألتموه بمقتضى الاستعداد والفطرة " (٦).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٣٣٣.
(٢) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٠ص١٠٢.
(٣) الشورى ، (٢٧).
(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور - ج٧ص٢٣٦-٢٣٧.
(٥) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٥ص٤١٦-٤١٧.
(٦) زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٨ص٤٠٣٣-٤٠٣٤.

وكذلك فإنك تجد آية أخرى تشبه آية سورة إبراهيم وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) " وجملة، " وإن تعدوا " عطف على جملة " أفمن يخلق " وهي كالتكملة لها، لأنها نتيجة لما تضمنته تلك الأدلة من الامتنان. وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة النعم على الناس، بحيث لا يستطيع عدها العادون " (٢).

وقد قسَّم البروسوي (٣) النعم التي لا يمكن أن تحصى إلى قسمين: نعمة المنافع، والتي تشمل صحة البدن، والأمن، والعافية، والتلذذ بالمطاعم والمشارب .. إلى غير ذلك، ونعمة دفع المضار من الأمراض، والشدائد، والفقر، والبلاء، وأجل النعم على العبد استواء الخلقة، وإلهام المعرفة (٤).

ونعم الله ليست مما ينتبه لها دوماً، ويستطيع الإنسان أن يستشعرها خصوصاً في لحظات الابتلاء والشدائد، وما من فرد من أفراد الناس، وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس، ومصاباً بأصناف العنايا، ومبتلى بأنواع الرزايا، إلا لو تأملته لألفيته متقلباً في نعم لا تحد، ومنن لا تحصى ولا تعد، كأنه أعطي كل ساعة من النعماء ما لا يحيط به إمكان العد والإحصاء، وأفاض عليه خالقه في كل زمان يمضي، وفي كل آن يمر وينقضي من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده، وسائر صفاته الروحانية، والنفسانية، والجسمانية، ما لا يحيط به نطاق التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير (٥).

وفي الآيات السابقة أول ما تبين لنا قدرة الله المطلقة على العطاء التي لا يحدها حدود، ويتضح أن وراء كل عطاءٍ حكمة، ووراء كل منع حكمة أيضاً، فالمنع من الله سبحانه إذا قدره فهو عين العطاء، ولذلك قال: " وآتاكم من كل ما سألتموه " أي بعض ما سألتموه، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يجيبكم الله عليها، كدعاء الأم على ابنها، فمن عظمته سبحانه أن أعطانا ما هو مطابق للحكمة، ومنع عنا غير المطابق لحكمته سبحانه، فالعطاء نعمة، والمنع نعمة أيضاً، ولو نظر كل منا لعطاء السلب، لوجد فيه نعماً كثيرة (٦).

---

(١) النحل ، (١٧ ، ١٨) .
(٢) التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص١٢٣ .
(٣) البروسوي هو: إسماعيل حقي ابن مصطفى الإستانبولي أصلاً ، والأيدوسي مولداً ، (أبو الفداء) عالم مشارك في أنواع من العلوم ، توفي ببروسة ، ومن تصانيفه تسهيل طريق الأصول ، انظر: الأعلام – الزركلي – ج١ص٣١٣.
(٤) انظر: روح البيان في تفسير القرآن ج٣ص٤٤٧ .
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٣ص١٩٤-١٩٥.
(٦) انظر: تفسير الشعراوي – الشعراوي – ج١٢ص٧٥٥٤.

وقد ذكر الماوردي أن هناك وجهان للآية " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ".
أحدهما: لا تحفظوها. والثاني: لا تشكروها، ويحتمل المقصود بهذا الكلام وجهين: أحدهما: أن يكون خارجاً مخرج الامتنان تكثيراً لنعمته أن تحصى. والثاني: أنه تكثيرٌ لشكره أن يؤدى، فعلى الوجه الأول يكون خارجاً مخرج الامتنان على العباد بما يمنحه لهم من النعم، وعلى الوجه الثاني خارجاً مخرج العفو والغفران والصفح عن العباد، والتجاوز عن السيئات (١).

والمقصود من الجملتين: " وآتاكم "، " وإن تعدوا " الإخبار عن عجز العباد عن تعداد النعم وقصورهم عن الإحصاء، فضلاً عن القيام بشكرها، فبعد أن ذكر الله تعالى تلك النعم العظيمة، أبان أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع ما لا يتأتى معه الإحصاء. قال طلق بن حبيب رحمه الله (٢). إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبِحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقول: " **الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا** " (٣).

ومن الملاحظ في قوله تعالى في آية سورة إبراهيم أنه قال: " إن الإنسان لظلوم كفار " وفي آية سورة النحل قال: " ... لا تحصوها إن الله لغفور رحيم "، والفرق بين الخاتمتين: أن الكلام في الآية الأولى مناسب لتعداد قبائح الإنسان من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك، وأما في الآية الثانية فيناسب ما ذكر في الآية من تعداد فضائل الله على الإنسان، ومنها اتصافه بالمغفرة والرحمة، تحريضاً على الرجوع إليه (٤).

قال الرازي عن الفرق بين الآيتين: " كأنه تعالى يقول: إذا حصلت لك النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها، وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها، وهما كوني غفوراً رحيماً. والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم" (٥).

---

(١) انظر: النكت والعيون – ج٣ص١٨٣ .
(٢) طلق بن حبيب العنزي البصري ، قال أبو حاتم: صدوق في الحديث ، وقال أنس: بلغني أنه كان من العباد، وأنه هو وسعيد ابن جبير قد طلبهم الحجاج وقتلهم ، وذكره ابن حبان في الثقات . انظر: تهذيب التهذيب ج٣ص٣٠٧.
(٣) صحيح البخاري – كتاب الأطعمة (٧٠) – باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥٤) – (ص١٠٧٧) – رقم (٥٤٥٨).
(٤) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٣ص٢٥٦-٢٥٧ .
(٥) التفسير الكبير – ج١٠ص١٢ .

المطلب الرابع: النعم ظاهرة وباطنة .

لقد قلنا فيما سبق من حديث، إن نعم الله على العباد لا يعدها عاد، ولا يحصيها حاصٍ، مهما حاول وبذل جهده وطاقته، وإن من أهم خصائص نعم الله على العباد غير كثرتها وعدم انتهائها، أن منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو باطن. وإن لأهل العلم أقوالاً كثيرةً حول المراد بالنعم الظاهرة، والنعم الباطنة، سيذكرها الباحث في معرض تناوله للآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (١). ومعنى سخر لكم: لأجلكم، لأن من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار، والرياح، ونور الشمس، والقمر، ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها. والخطاب في " ألم تروا " يجوز أن يكون لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين، والاستفهام هنا تقريري، أو إنكاري لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية، والرؤية بصرية، ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك.

وإسباغ النعم: إكثارها. وأصل الإسباغ: جعل ما يلبس سابغاً، أي وافياً في الستر، ومنه قولهم: درع سابغة، ثم استعير للإكثار، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة، فقيل: سوابغ النعم.

وقد قرأ بعض القراء " نعمه " بصيغة جمع نعمة مضاف إلى ضمير الجلالة، وفي الإضافة إلى ضمير الله تنويه بهذه النعم، وقرأ الباقون" نعمةً " بصيغة المفرد، والتنكير فيها للتعظيم، فاستوى القراءتان في إفادة التنويه بما أسبغ الله عليهم (٢).

قال القرطبي: " والنعمة قد تكون بمعنى الواحدة، ومعنى الجماع، وقد يدخل في الجماع الواحد " (٣).
قال تعالى: ﴿ ... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ... ﴾ (٤).

يقول ابن كثير: " وفي آية لقمان هذه يخاطب تعالى خلقه منبهاً لهم على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السماوات والأرض من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشُبه والعلل " (٥).

---

(١) لقمان ، (٢٠).
(٢) انظر: التحرير والتنوير – ج١٠ص١٧٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن – ج٨ص٦٥٦٥.
(٤) إبراهيم ، (٣٤) .
(٥) تفسير القرآن العظيم – ج٦ص٩٥.

قال الفخر الرازي في تفسيره: " أما قوله تعالى: " وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة " وهي ما في الأعضاء من السلامة، و" باطنة " وهي ما في القوى، فإن العضو ظاهر وفيه قوة باطنة، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر، وفي كل واحد معنى باطن من الإبصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً " (١).

" وقد جاء عن ابن عباس أنه فسر الظاهرة على أنها الإسلام، وما سوى الله من خلقك، وما أفضل عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوئ عملك ، وأنه لم يفضحك " (٢).

وبعض أرباب التفسير قال: " ومن أهل العلم من قال: " ظاهرةً وباطنةً " أي محسوسة ومعقولة معروفةً لكم وغير معروفة، وعن مجاهد:(٣) النعمة الظاهرة: ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء، والباطنة: الإمداد من الملائكة عليهم السلام، وعن الضحاك أن الظاهرة حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة: البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح، والباطنة: القلب والعقل والفهم، وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة، وقيل: الظاهرة: نحو إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق لقبول الإسلام والإتيان به، والثبات على قدم الصدق، ولزوم العبودية، والباطنة: ما أصاب الأرواح في عالم الذر من رشاش نور النور " (٤).

قال البقاعي: " ظاهرة: هي ما تشاهدونها متذكرين لها، وباطنة: وهي ما غابت عنكم فلا تحسونها، أو تحسونها وهي خفيةً عنكم، لا تذكرونها إلا بالتذكير، وكلٌ منكم يعرف ذلك على الإجمال " (٥).

جاء في معالم التنزيل: " قال مقاتل: (٦) الظاهرة: تسوية الخلق والرزق والإسلام، والباطنة: الإيمان، وقيل: الظاهرة: الجوارح، والباطنة: القلب، وقيل: الظاهرة: الإقرار باللسان، والباطنة: الاعتقاد بالقلب، وقيل: الظاهرة: تمام الرزق، والباطنة: حسن الخلق، وقال عطاء: الظاهرة: تخفيف الشرائع، والباطنة: الشفاعة، وقيل: الظاهرة: الإمداد بالملائكة، والباطنة: إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وقيل: الظاهرة: إتباع الرسول، والباطنة: محبته ﷺ " (٧).

---

(١) التفسير الكبير – ج١٣ص١٣٣.

(٢) زاد المسير – ابن الجوزي – ج٦ص١٦٥.

(٣) مجاهد ابن جبر ، أبو الحجاج المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي مفسر من أهل مكة، قال عنه الذهبي شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، ت ١٠٤هـ . انظر: الأعلام – الزركلي – ج٥ص٢٧٨.

(٤) روح المعاني – الألوسي – ج٧ص٩٣.

(٥) نظم الدرر – ج٦ص٢٤.

(٦) هو مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، أبو الحسن، صاحب التفسير، من بلخ إحدى قرى خراسان، رحل منها إلى العراق، لا يضبط الإسناد والحديث، ت-١٥٠هـ . انظر: تهذيب التهذيب- ابن حجر العسقلاني – ج٦ص٣٩٥.

(٧) معالم التنزيل – البغوي – ج٤ص٢٤١.

وذهب صاحب التفسير المنير إلى أن: " الظاهرة: كل ما يعلم بالمشاهدة كحسن الصورة وتسوية الأعضاء، والباطنة: ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً .. وأتم عليكم نعمه الظاهرة والباطنة أي: المحسوسة والمعقولة، المعروفة وغير المعروفة، وقيل: الظاهرة: الإسلام، والباطنة: الستر، وقيل: الظاهرة: ما يرى بالإبصار من المال والجاه والجمال في الناس، وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفع عن العبد من الآفات " (١).

ومن خلال ما سبق من أقوال أهل العلم حول المقصود بالظاهرة من النعم نجد بالنظر والتأمل أن جل الأقوال السابقة عبارةٌ عن اجتهادات لأهل العلم، لا دليل عليها من صحيح السنة النبوية المطهرة، أو صريح القرآن، وهي كما اتضح أقوال متعددة ومتنوعة، وكثير منها كما نرى لا رابط بينها، وإن من الأقوال التي مرت معنا ما يعتبر أسلم من غيره، وأخرج من الخلاف، فالقول بأن الظاهرة والباطنة: هي المحسوسة والمعقولة، المعروفة وغير المعروفة. وهذا القول يوافق ما رجحه ابن عاشور حيث يقول: الظاهرة: الواضحة، والباطنة: الخفية وما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً، وأصل الباطنة: المستقرة في باطن الشيء أي داخله قال تعالى: ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ (٢)، فكم في بدن الإنسان وأحواله من نعم يعلمها الناس، أو لا يعلمها بعضهم، أو لا يعلمها إلا العلماء، أو لا يعلمها أهل عصر ثم تتكشف لمن بعدهم، وكلا النوعين أصناف دينية ودنيوية، ونحن نرى كيف أن الإنسان في كل يوم يكتشف نعمةً جديدة من نعم الله عليه في نفسه، أو بدنه، أو روحه لم يك يعرف عنها شيئاً ولم يك يفطن إليها بحال، وإن كانت موجودة لكنه لم يعرفها إلا بعد اكتشاف العلم لها (٣).

وإن المخلوق إذا أمعن النظر فيما أنعم الله عليه يجد عجباً، حيث سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات من الشمس، ونور القمر، وهدي النجوم، والمطر والهواء والطير، وسخر له ما في الأرض وهذا أظهر وأيسر ملاحظةً وتدبراً، فقد أقامه خليفةً في هذا الملك الطويل العريض، ومكنه من كل ما تزخر به الأرض من كنوز، ومنه ما هو ظاهر، ومنه ما هو مستتر، ومنه ما يعرفه الإنسان، ومنه ما لا يدرك إلا آثاره، ومنه ما لم يعرفه أصلاً من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري، وإنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها، ولا يحصى أنماطها، ولا يعلم عددها، وإن بقاء الإنسان على قيد الحياة كفيل أن يظهر له كل يوم نعمة جديدة من نعم الله الباطنة، لتخرج بعد ذلك إلى عالم الظهور، وإلى ساحة الوجود (٤).

---

(١) التفسير المنير – الزحيلي – ج٢١ص١٥٨-١٥٩.

(٢) الحديد ، (١٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير – ج١٠ص١٧٥.

(٤) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٢٧٩٢.

المطلب الخامس: سنة الله في تغيير النعم.

إن لله سبحانه وتعالى سنناً كونية أجراها في هذا الكون بمقتضى حكمته، ورحمته، ولطفه، ورعايته سبحانه لمصالح خلقه. وإن من هذه السنن جانباً يتعلق بزوال النعمة وتحولها عن أصحابها، لكن هذه السنن تسير وفق نظام حكيم، وليس فيها مجال للظلم أو الإجحاف، وإن من جملة هذه السنن السنة التي نص عليها الحق تبارك وتعالى في كتابه في قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

وقد جاء في نظم الدرر في علاقة الآية بما قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢).

" ولما كان كأنه قيل: فما له يمهلهم ولا يعاجلهم بالأخذ قبل النكاية في أوليائه وأهل وده وأصفيائه؟ قال: " ذلك " أي الأخذ على هذه الحالة " بأن الله " أي بسبب أنهم غيروا ما في أنفسهم، وقد كان له سبحانه أن يأخذهم قبل أن يغيروا لعلمه بما في ضمائرهم، ولكنه تعالى أجرى سنته الإلهية، لتمام علمه وكمال قدرته " (٣).

و " ذلك " التي في أول الآية استئناف لما جاء في الآية التي قبلها، مسوق لتعليل ما يفيده النظم الحكيم، لبيان ما حل بهم من العذاب مرتبطاً بأعمالهم وأخلاقهم السيئة، بسبب أنه تعالى " لم يك " في حد ذاته " مغيراً نعمة أنعمها " أي لم ينبغ له سبحانه، ولم يصح في حكمته أن يغير نعمةً أنعم بها على قوم من الأقوام جلت أو هانت " حتى يغيروا ما بأنفسهم "، من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها حين تلبسهم بالنعمة، ويتصفوا بما ينافيها سواءً كانت أحوالهم السابقة مرضيةً صالحةً أو قريبةً من الصلاح (٤).

قال الزمخشري: " فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضيةً فيغيروها إلى حال مسخوطة! قلت: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم كفرةً عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات، كذبوه وعادوه، وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه. غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب " (٥).

---

(١) الأنفال ، (٥٣).

(٢) الأنفال ، (٥٢).

(٣) نظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٢٣١.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص٣٦٧.

(٥) الكشاف ج٢ص١٣١.

وإن تغيير ما بالأنفس المقصود به تغير في الدين، أو تغير تجاه النعم، كالكفر بها، فإذا غيروا غير الله عليهم ما بهم من النعم، وقد جاء أن أهل مكة أنعم الله عليهم بمحمد ﷺ فكفروا به فنقله الله سبحانه إلى الأنصار لينعم به عليهم، ويقال أيضاً أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فلم يشكروا، فجعل لهم مكان الأمن الخوف، ومكان الرخاء الجوع.

وقد قال الضحاك(١): ما عذب الله قوماً قط وسلبهم النعم، ولا فرق بينهم وبين العافية حتى كذبوا رسلهم، فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز (٢).

ورد في أضواء البيان: " ذَكَر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمةً أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (٣) وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ (٤) " (٥).

ولنا أن نسأل كيف يكون التغيير ؟ وبأي شيء أنعم الله عليهم؟.

قلنا فيما سبق أن الله قد أنعم عليهم بمحمد ﷺ على أحد الأقوال التي ذُكرت، وهناك من قال: أنعم الله عليهم بالعقل، والقدرة، وإزالة الموانع، وتسهيل السبيل، والمقصود من ذلك: أن يشتغلوا بالعبادة، ويعدلوا عن الكفر والجحود، فإن صرفوا هذه الأمور إلى الكفر والفسق، فقد غيروا نعم الله على أنفسهم، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح بالمحن، حيث لا يبتدئ تعالى أحداً بالعذاب والمضرة، وأن الذي يفعله لا يكون إلا جزاءً على معاص سلفت، أما التغيير فإنه قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أُذهبت رأساً، وقد تكون قللت وأضعفت، قال السدي:(٦) والظاهر من قوله: " على قوم " العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبر وفاجر، وأنه تعالى متى أنعم على أحد فلم يشكره بدلها عنه بالنقمة (٧).

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي، أبو بحر، سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة، وهو من دهاة وفصحاء العرب، لقب بالأحنف لاعوجاج كان في رجله، انظر: تهذيب التهذيب – ابن حجر – ج١ص١٩١.

(٢) انظر: بحر العلوم – السمرقندي – ج٢ص٢٢.

(٣) الرعد ، (١١).

(٤) الشورى ، (٣٠).

(٥) أضواء البيان – الشنقيطي – ج٢ص٣٧٢.

(٦) السدي هو: إسماعيل ابن عبد الرحمن السدي ، تابعي حجازي الأصل ، سكن الكوفة ، صاحب التفسير والمغازي والسير وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس ، ت ١٢٨هـ . انظر: الأعلام – الزركلي – ج١ص٢١٧.

(٧) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٤ص٥٠٢.

قال الثعالبي: " معنى هذه الآية إخبار من الله سبحانه أنه إذا أنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتنكيرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك غير الله نعمته عندهم بنقمته منهم " (١).

وإن العذاب الذي ينزل بالطغاة من أخذ لهم، إنما هو من نفوسهم التي غيروها، وشوهوا فطرتها بمظالمهم، فمن كفر بآيات الله تعالى، فإن النُظم التي وضعها الله سبحانه نُظماً حكيمة في هذا الوجود الإنساني، تكفل هذه النظم والسنن أن يعامل هذا الكافر بموجبها بما يستحق، فنظام الله تعالى في الإنسان أنه أنعم عليه نعماً لها واجب، وأن الفطرة الإنسانية تدرك حق كل نعمة، وتُفسد هذه الفطرة بالاتجاه إلى الشر. والمعنى أن الله لا يغير نعمةً أنعمها على قوم، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، و " ما " هنا موصولة بمعنى الذي، والذي بأنفسهم هو نور الفطرة، وإخلاصها، وما أخذه الله تعالى على بني آدم من عهد، حينما أخرج من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، فهذا العهد المودع في الفطرة وهو التوحيد هو الذي يغيرونه بأنفسهم. وكذلك آل فرعون ومن قبلهم، ومثلهم قارون آتاهم الله نعمة المال والسلطان فغيروا ما بأنفسهم من موجبات الفطرة، وكفروا بالله وعبدوا غيره، فغير الله النعمة، وأغرقهم في اليم، وأزال أموالهم، وهذه سنة الله في الأكوان والناس (٢).
وقيل أيضاً في معنى هذه الآية: " بأن الله لم يكن ليزيل نعمةً أنعمها على قوم حتى يتغيروا عن أحوالهم المرضية إلى أحوال لا يجوز لهم أن يتغيروا إليها، وهو أن يستبدلوا المعصية بالطاعة، وكفران النعمة بشكرها، وقد يسلب الله تعالى النعمة على وجه المصلحة لا على وجه العقاب امتحاناً لمصلحةٍ يعلمها في ذلك، ولكن لا يسلبها بفعل النقمة على وجه العقاب إلا من استحق العقاب " (٣).
وقد أرشدنا الله سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وحسن معيشة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، وأخذ العظة والعبرة بما حصل للأمم السابقة، ثم التأمل في أحوال الذين حادوا عن الصراط، وعدلوا عن سنة العدل، فلم يبذلوا مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، هكذا جعل الله بقاء الأمم في التحلي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة ثابتةً لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال (٤).

---

(١) الجواهر الحسان – ج٢ص٢٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٦ص٣١٦٣-٣١٦٤.
(٣) مجمع البيان – الطبرسي – ج٣ص١٦٤-١٦٥.
(٤) انظر: تفسير المنار – رشيد رضا – ج١٠ص٤٣-٤٤.

ولنا أن نسأل كيف ننجوا من عذاب الله ونقمته وتحول عافيته؟ يكون ذلك بتوجيه الوجوه إلى الله سبحانه، والاستقامة على طريق الحق والخير، فإنهم إن فعلوا هذا أَمِنوا تلك النوازل التي تنزل بهم من الله.. فالله سبحانه لا يسلب عباده نعمةً من نعمه التي تفضل بها عليهم، إلا إذا أحدثوا من الأمور ما يعرضهم لانتقام الله منهم، فلا يغير ما بهم من نعمةٍ وعافيةٍ، أو من شدةٍ وبلاء، حتى يحدثوا هم تغييراً في أنفسهم، وتحولاً في سلوكهم، وهنا يغير الله أحوالهم حسب ما كان منهم من تغيير (١).

وقد جاء في التفسير الوسيط: " أنهم لما قابلوا الأمن والعافية والسعة بالكفر، والصد عن سبيل الله، فبدل الله نعيمهم عذاباً، والله لا يغير نعمة أنعمها على قوم بنقمة " (٢).

ونحن حين النظر إلى بني البشر، نجد أن الله قد أكرمهم بالخلق ثم بالخلافة في الأرض ثم منحهم بعد ذلك المنهج الصالح الذي يسيرون عليه، ويوصلهم إلى السعادة، ولكن ذرية آدم تغيرت، وجحدت النعمة، وأنكرت أن للنعمة خالقاً، فهل يُبقي الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ما داموا قد تغيروا؟، الجواب: لا فلقد استحقوا أن يغير الله نعمه عليهم، وإلا لما أصبح هناك أي منطق للدين، لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم، بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أُعد له إعداداً كاملاً، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادئ بالظلم.
ويلفتنا المولى سبحانه إلى أن إتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها كما في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣). وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لا بد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم، وتحول من عافيته (٤).

وفي الختام يمكن القول إن هذه الآية التي تناولها الحديث، والتي تعبر عن سنةٍ من سنن الله في تغير النعم، من جانب تقرر عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم.. ومن جانب آخر يكرم الإنسان أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وعملهم. والجانب الثالث يلقي تبعةً عظيمةً في مقابلة التكريم العظيم على هذا الكائن فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه، ويملك أن يزاد عليها، إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر(٥).

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – ج٣ص٦٣٨-٦٤٠.

(٢) التفسير الوسيط – مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر – ج٤ص١٦٣٦.

(٣) الأعراف ، (٩٦).

(٤) انظر: تفسير الشعراوي – ج٨ص٤٧٥٨-٤٧٥٩.

(٥) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٣ص١٥٣٥-١٥٣٦.

المبحث الثاني: أهم معاني النعمة في القرآن الكريم .

وفيه عشرة مطالب:

المطلب الأول: المنة والفضل .

المطلب الثاني: الإسلام والكتاب .

المطلب الثالث: محمد صلى الله عليه وسلم .

المطلب الرابع: الثواب والجزاء الحسن .

المطلب الخامس: الغنى والمال .

المطلب السادس: النبوة والرسالة .

المطلب السابع: الرحمة .

المطلب الثامن: الإحسان .

المطلب التاسع: سعة العيش .

المطلب العاشر: العتق .

المبحث الثاني: أهم معاني النعمة في القرآن الكريم.

سيعرض الباحث في هذا المبحث مجموعةً من أهم وجوه النعم ومعانيها في القرآن الكريم، وهي ليست على سبيل الحصر، وإنما هي أكثر الوجوه شهرةً واستفاضةً في الكتاب العزيز، وأكثرها قد تعددت آياته وتنوعت في ثنايا سور القرآن الكريم، وإلا فإن أوجه النعمة ومعانيها أكثر من ذلك، ولكنها وبعد الإطلاع عليها وتتبعها، وجد الباحث أنها إما غير مشهورة، وإما أنها مندرجة تحت أحد وجوه النعمة العشرة، والتي سيعرض لها الباحث في هذا المبحث – إن شاء الله تعالى –

المطلب الأول: المنة والفضل.

هذا هو أول وجوه النعمة ومعانيها في القرآن الكريم، فالنعمة كثيراً ما جاءت بمعنى المنة والفضل واليد والصنيعة، وتعددت الآيات الكريمة في هذا السياق، ومن هذه الآيات التي تحمل هذا المعنى تلك التي تخاطب بني إسرائيل، حيث تعدد فيها الخطاب بالنداء لبني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم مثل قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١). والذكر في كلام العرب له عدة معانٍ، ومن هذه المعاني ذكر القلب، والذي هو ضد الغفلة، والنعمة ها هنا اسم جنس مفردة تفيد الجمع (٢) أي أنه ليس المراد بها النعمة الواحدة، وقد تكرر النداء مرةً أخرى بعد هذه الآية في قوله تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).
وتكرار النداء هنا فيه تقوية للنداء الأول ، وتأكيد الحض على أيادي الله سبحانه وعطائه الحسن (٤).
والأيادي هنا المراد بها العطايا والمنن الربانية.

قال الحسن البصري عند تفسيره للآية الأولى التي سبق ذكرها: "نعمتي: المراد بهذه النعمة ما أنعم الله به على آبائهم وأجدادهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم وأعطاهم التوراة ونحو ذلك" (٥).
ومما يدلل على أن النعمة الواحدة تأتي بمعنى الجمع قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(٦).
كما بين ذلك المفسرون في كتبهم.

---

(١) البقرة: ، (٤٠) .
(٢) انظر: الجواهر الحسان – الثعالبي – ج١ص٦٨ .
(٣) البقرة ، (٤٧) .
(٤) انظر: الجواهر الحسان – الثعالبي – ج١ص٧٢ .
(٥) تفسير الحسن البصري – ج١ص٩٠ .
(٦) إبراهيم ، (٣٤) .

ومن باب الفائدة القول بأنه سبحانه كلف بني إسرائيل بذكر النعمة، ليستدلوا من خلالها على المنعم، بينما دعا أمة محمد ﷺ إلى ذكره مباشرةً، فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (١).
لتنظر أمة محمد ﷺ إلى المنعم مباشرةً لتعرف بعد ذلك فضله ومنته (٢).

وذكر مقاتل عند تفسيره للآية أن النعمة هي: " أن أنجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، وحين فرق بهم البحر، وحين أنزل عليهم المن والسلوى، وحين ظلل عليهم الغمام بالنهار من حر الشمس، وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل...، وفجر لهم اثنتي عشرة عيناً، وأعطاهم التوراة " (٣)
ومقاتل هنا فصّل ذكر النعمة المُنعم بها على بني إسرائيل بتعيينه أصنافاً عدة من النعم.

وقد ذهب بعض أصحاب التفسير إلى أن هذه الآية وأمثالها لم تعين هذه النعمة، وبقيت اللفظة على عمومها ، لأنه لا دليل على التعيين (٤).

وقد ذهب ابن أبي حاتم إلى أن الخطاب لأحبار اليهود والمعنى اذكروا بلائي عندكم، وفضلي عليكم وعلى آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وجنوده (٥).

وقد ذهب البعض إلى أن الخطاب هنا موجه لأبناء النبي يعقوب، أي: يا أولاد النبي الصالح يعقوب، اذكروا فضلي وإنعامي عليكم، وعلى آبائكم بصنوف النعم الجليلة التي لا تعد ولا تحصى، وقيل: المعنى ما أنعم الله به على آبائهم من النجاة من الغرق، ومن طغيان فرعون وجبروته... ولكن العموم في اللفظ أحسن من التخصيص (٦).

قال الطبري: " أمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم، وآبائهم فيحل بهم من النقم ما أحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه. وعن ابن عباس أنه قال: نعمتي: أي آلائي عندكم وعند آبائكم " (٧). والمقصود ها هنا بصنيعه عندهم وعند آبائهم الفضل والمنة التي له سبحانه عليهم وعلى آبائهم، وابن عباس فسر النعمة هنا بالإفراد. وعند تفسيره لآية:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٨).

---

(١) البقرة ، (١٥٢) .
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١ص٣٠٧ .
(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان – ج١ص٤٤ .
(٤) انظر: تفسير المراغي – المراغي – ج١ص٩٩ .
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن أبي حاتم – ج١ص٩٥ .
(٦) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٧٥-٨٠ .
(٧) جامع البيان – ج١ص٢٨٧.
(٨) البقرة ، (١٢٢).

وهي آية مشابهة تماماً للآيات السابقة والخطاب فيها أيضاً موجهٌ لبني إسرائيل.

قال ابن جرير: " عظةٌ من الله تعالى ذكره لليهود.. وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم.. فقال: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم وصنائعي عندكم " (١). ولا يخفى أن المراد بالأيادي والصنائع الفضل والمنة والعطاء.

وقد أنعم الله على بني إسرائيل نعماً متعددة، وتفضل عليهم بمننٍ كثيرة، ولكنهم قابلوا هذه النعم بالجحود، وقد أمر الله الذرية أن تتذكر هذه النعم، وألاّ يجحدوها حتى لا تنزل بهم نقمته وعقابه (٢).

جاء في نظم الدرر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ (٣).

" أي اذكروا نعمته عليكم في هدايته لكم إلى الإسلام ، وفي غير ذلك من جميع النعم الظاهرة والباطنة، ولم تجمع لئلا يظن أن المقصود تعداد النعم لا الندب إلى الشكر، وآداء الحق الذي فيها، وقد عظمها بإبهامها " (٤).

وهنا يصرح بأن المقصود ليس تعداد النعم بل الندب إلى الشكر وأن المقصود مجموع النعم لا مفردها

ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره للآية:﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ..﴾ (٥)، عن مجاهد أنه قال: " النعم آلاء الله " (٦).

وهذه النعم التي ذكّر الله بها بني إسرائيل هي نعمة جعل النبوة فيهم زمناً طويلاً، أو أعم من ذلك، وفي القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم، ولا شك أن هذه منقبة عظيمة من الله منحهم إياها بفضله ومَنِّه (٧).

ويرى الماوردي أن في النعمة قولين في هذه الآيات وأمثالها:

أحدها: عموم نعمه وآلائه التي أنعم بها وتفضل على خلقه وعباده من بني إسرائيل.

الثاني: قول الحسن البصري أنه أراد نِعَمه على آبائهم إذا أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم الأنبياء، وأنزل عليهم الكتب، وفجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى (٨).

والحق أن العموم أولى بالتقديم لأن العموم مؤداه ذكر فضله ومِنَنه في كل نعمه التي يمنحها لعباده، ولبني إسرائيل على وجه الخصوص كما في الآيات السابقة.

---

(١) جامع البيان – ج١ص٥٧٠-٥٧١ .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم – عبد الله شحاتة – ج١ص٦٠ .

(٣) المائدة ، (٧) .

(٤) نظم الدرر – البقاعي – ج٢ص٤٠٦-٤٠٩ .

(٥) آل عمران ، (١٠٣) .

(٦) تفسير القرآن العظيم – ابن أبي حاتم – ج٣ص٧٢٥ .

(٧) انظر: تفسير المنار – رشيد رضا – ج١ص٢٩٠-٣٠٤.

(٨) انظر: النكت والعيون – ج١ص١١١.

ومما سبق من الأقوال في معنى النعمة في سياق هذه الآيات يتضح أن هناك خلافاً بين أهل العلم من المفسرين هل المراد بها تعداد النعم،أم المراد بها ذكر النعمة مجملاً ليكون معناها بالمجمل اليد والصنيعة والفضل والمنة، وليكون المراد بالتعداد الإفراد بذكر كل نعمة من هذه النعم وذكر نوعها، والباحث يرى أن معنى النعمة هو الفضل والمنة واليد والصنيعة والمراد بالنعمة هنا الجمع لا الإفراد، ويمكن إجمال أسباب هذا الترجيح فيما يلي:

أولاً: أن النعمة في الآيات الكريمة لفظ مفردة جنس بمعنى الجمع، وليست بمعنى الإفراد، الأمر الذي لم يقله أحد من أرباب التفسير، فهي ليست مفردة، بل المراد بها الجمع.

ثانياً: أن السياق القرآني أبهم النعمة ولم يعرفها في الآيات التي سبق ذكرها، وهذا ما ذكره البقاعي في نظم الدرر كما مر معنا.

ثالثاً: أن تخصيص النعمة بغير ما نقلنا عن المفسرين، أمر يلزمه الدليل، ولا دليل عليه، ولذلك فإن الأصل هو بقاء العموم في لفظ النعمة عند معنى المنة والفضل واليد.

رابعاً: إن هذا القول بأن معنى النعمة الفضل والمنة واليد والصنيعة هو ما ذهب إليه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، ومجاهد، وابن عباس، وأما تفصيل النعم والآلاء فقد جاء في مواضع أخرى في القرآن الكريم، أما الآيات سالفة الذكر فهي تفيد الجمع والإجمال وليس التفصيل، ولذلك كان أحرى بالمعنى ما رجحه الباحث هنا، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني: الإسلام والكتاب.

لقد وردت النعمة في كتاب الله تعالى بمعنى الإسلام والكتاب، والدين، والإيمان، في مواطن عديدة، منها ما يتضح معناه حسب السياق مباشرةً بمجرد النظر، ومنها ما يحتاج إلى الأثر المنسوب لأصحابه في كتب التفسير للدلالة على هذا المعنى، ومن تلك المواضع قوله تعالى:﴿ .. وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

وقد كانت هذه الآية في سياق الحديث عن هداية المؤمنين إلى قبلتهم الجديدة، إلى المسجد الحرام، وحصول نعمة الله عليهم بهذه الهداية إلى هذه القبلة.

قال الطبري: " لأتم بذلك من هدايتي لكم إلى قبلة خليلي إبراهيم عليه السلام نعمتي، فأكمل لكم به فضلي عليكم، وأتمم به شرائع ملتكم الحنيفية المسلمة التي وصيت بها نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء وغيرهم. وذلك هو نعمته التي أخبر جل ثناؤه أنه متمها على رسوله والمؤمنين " (٢).

---

(١) البقرة ، (١٥٠) .

(٢) جامع البيان – ج٢ص٣٨ .

قال القنوجي: " ولأتم نعمتي أي بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية، وقيل تمام النعمة: الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ، ثم رؤية الله تعالى " (١).

يقول سعيد حوى: " ولأتم نعمتي عليكم، من أجل هدايتكم، وإتمام النعمة هنا بشرع استقبال الكعبة، لتكمل الشريعة من جميع وجوهها، وتتميز هذه الأمة بشعائرها وشرائعها " (٢).

ومن آيات ذات السياق قوله تعالى:﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣).

" يعني بالنعم جل ثناؤه: الإسلام، وما فرض من شرائع دينه .." ومن يبدل نعمة الله" ومن يغير ما عاهد الله في نعمته التي هي الإسلام من العمل والدخول فيه فيكفر به، فإنه معاقبه بما أوعد " (٤).

جاء في معالم التنزيل: " وقيل: من يبدل، أي يغير نعمة الله، وقيل: كتاب الله، وقيل: عهد الله، وقيل: إنكار الدلالة على نبوة محمد $، وعن مقاتل أنها نزلت في المنافقين عبد الله ابن أبي وأصحابه، كانوا يتنعمون في الدنيا، ويسخرون من ضعفاء المؤمنين، وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم " (٥).

وعند سعيد حوى: بدلوا نعمة الله كفراً بأن استبدلوا الإيمان بها بالكفر، وإن من أعظم نعم الله آياته التي أنزلها في كتابه وشريعته، فإن آياته سبب الهدى من الضلالة، وشريعته سبب الهدى في كل أمر، ويدخل في تبديل نعمة الله أن تستبدل قانوناً أو دستوراً إسلامياً بغيره، وبالأخلاق الإسلامية الأخلاق الجاهلية، وقد فعل المسلمون في عصرهم كل ذلك، فهل نعجب أن ينزل بهم عقاب الله بعد ذلك؟! (٦).

والنعمة التي أشارت إليها الآيات نعمة الإسلام أو الإيمان، فهما مترادفان، ومن بدل هاتان النعمتان فإنه يحرم من السلم والطمأنينة والاستقرار، وهذا ما حدث لبني إسرائيل (٧).

- ومن تلك الآيات المشهورة والتي تحمل نفس المعنى والدلالة، قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ... ﴾ (٨).

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن – ج١ص٣١٤ .
(٢) الأساس في التفسير – ج١ص٣١٩ .
(٣) البقرة ، (٢١١) .
(٤) جامع البيان – الطبري - ج٢ص٣٤٥ .
(٥) معالم التنزيل – البغوي – ج١ص١٦٨ .
(٦) انظر: الأساس في التفسير – ج١ص٤٩٣ .
(٧) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ص٢١٣ .
(٨) البقرة ، (٢٣١) .

قال الطبري: " يعني تعالى ذكره بذلك: " اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام الذي أنعم عليكم به فهداكم له، وسائر نعمه التي خصكم بها دون غيركم " (١).

وكذلك قوله تعالى في آخر الآية: " وما أنزل عليكم " معطوف على النعمة، وهو تخصيص العموم، لأن ما أنزل الله هو من النعمة كذلك بلا شك (٢).

والتذكير هنا بالنعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهي الإسلام بعد الجاهلية الذي سماه الله نعمة كما في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ... ﴾ (٣). فوجب عليهم التعاهد لهذه النعمة وعدم تضييعها (٤).

قال القنوجي: " اذكروا نعمة الله عليكم، أي النعمة التي صرتم فيها بالإسلام وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض " (٥).

فإذا ذكرهم الله بالنعمة هنا، فالمسلمون هنا يذكرون شيئاً حاضراً، ليس بعيداً عنهم فهم لا يحتاجون إلى جهد كبير لتذكره، وهم الذين عاشوا في الجاهلية ثم أدركوا الإسلام وعاشوا فيه، وشهدوا هذا التحول الكبير، وهم يذكرون هذه النعمة ممثلةً فيما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة، والقرآن عندما يخاطبهم ويأمرهم بالذكر فلكي يشعرهم بضخامة الإنعام، وغزارة الفيض، والتصاق النعمة بأشخاصهم (٦).

والمراد بالنعمة في الآية الإسلام دون شك، فلما دخله المسلمون صاروا متحابين في الله، متعاونين على البر والتقوى، ولولا مجيء الإسلام لما اجتمعت قلوبهم، فالإسلام هنا نعمة تستحق الشكر (٧).

وفي هذه الآية حين أمرهم الله بالاعتصام بحبله، وهو دينه وشريعته ومنهجه، وينهاهم عن التفرق، ذكرهم الحق تبارك وتعالى بأن ما هم عليه من الاعتصام بدين الإسلام وتآلف القلوب، إنما كان سببه إنعام الله عليهم بذلك، حيث خلق دواعي ذلك في قلوبهم بسبب نعمة الإسلام العظيمة (٨).

وسبب نزول هذه الآية كما ذكره ابن كثير: " نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود، مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمـــره

---

(١) جامع البيان – ج٢ص٤٩٦ .
(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٢ص٢١٩ .
(٣) آل عمران ، (١٠٣) .
(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٢ص٤٢٥ .
(٥) فتح البيان – ج٢ص٢٩ .
(٦) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج١ص٢٥٢ .
(٧) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٢ص٨٤٨ .
(٨) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص٢١ .

أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث ففعل، فلم يزل ذلك دأبه، حتى حميت النفوس، وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا ونادوا بشُعَّارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك النبي $، فأتاهم فجعل يُسكنّهم ويقول: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ فنزلت الآية " (١).

وكأن الحق يقول في الآية: اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان بأشياء ليست من الإسلام في شيء، لكن حينما يجيء الإسلام، ويرتضيه الله لكم ديناً، وتحصل به النعمة الكبرى، فالتفاخر يكون بالإسلام وحده، وهكذا نرى نعمة الإسلام في الدنيا، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى طول وقت ليدركها الإنسان، بل يستطيع المؤمن رؤيتها في الدنيا، ولقد كان العرب قبل مجيء الإسلام في حالة من الشقاق المتواصل، فلما جاء الإسلام صاروا إخواناً، وهذه نعمةٌ عاجلةٌ في الدنيا (٢).

- ومن الآيات قوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٣). وإتمام النعمة بالهداية والتوفيق إلى الإسلام الذي أكمله الله، وقيل معنى: أتممت عليكم نعمتي: أي أنجزت لكم وعدي، ورضيت لكم الإسلام، أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين عند الله تعالى لا غير (٤).

ونعمة إتمام النعمة بالإسلام هي أكبر نعم الله على أمة محمد $، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين آخر ولا إلى نبيٍ آخر، ولما أكمل لهم الحق سبحانه دينهم، تمت عليهم بذلك النعمة، وقد أخبر الله تعالى عباده المؤمنين بأنه قد أكمل لهم الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً (٥).

عن عمر ابن الخطاب " **أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال أي آية؟ قال " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي $، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة** " (٦) قال سفيان (٧) وأشك كان يوم الجمعة أم لا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ص٥٣ .
(٢) انظر: تفسير الشعراوي – ج٣ص١٦٦٠-١٦٦٢ .
(٣) المائدة ، (٣) .
(٤) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج٢ص٦١ .
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٣ص١٦ .
(٦) صحيح البخاري – كتاب الإيمان (٢) – باب زيادة الإيمان ونقصانه(٣٣) – ص(٣٢) – رقم(٤٥).
وصحيح مسلم – كتاب التفسير (٥٤) – ص(١١٥١) – رقم(٣٠١٧).
(٧) هو سفيان ابن سعيد ابن مسروق الثوري ، العالم الزاهد ، الثقة ، من أئمة وأعلام السنة ، توفي بالبصرة سنة ٦١هـ انظر: تهذيب التهذيب – العسقلاني – ج٤ص٩٩ .

وقد ذكر الحق سبحانه نعمة الإكمال للدين، والإتمام للنعمة، في هذه الآية في سياق تحريم هذه المحرمات في أول سورة المائدة ، وذلك لأن تحريم هذه المحرمات والخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الأديان، فالنعمة لا تتم فقط بتحليل الطيبات، بل كذلك بتحريم كل ما فيه مضرة من الخبائث والمحرمات (١).

قال سيد قطب في خضم حديثه عن الآية سالفة الذكر: " هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم .... ما دلالة هذا؟ إن بعض دلالته أن شريعة الله كلٌ لا يتجزأ، كلٌ متكامل، سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد، وما يختص بالشعائر والعبادات، وما يختص بالحلال والحرام، وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية، وأن هذا في مجموعه هو " الدين " الذي يقول الله عنه في هذه الآية: إنه أكمله، وهو " النعمة " التي يقول الله للذين آمنوا: إنه أتمها عليهم " (٢).

- ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ ... أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣). قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: " بنعمة الله، أي بالإسلام هم يكفرون " (٤).

- ومنها قوله تعالى: ﴿ ... كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (٥). وفي هذه الآية رجح القرطبي أن المراد بالنعمة الإسلام بعد أن ذكر أن " تسلمون " قرئت تارةً بالفتح وأخرى بالضم ، فعلى القراءة الأولى بالفتح أي تَسلمون من الجراح ، وعلى الثانية بالضم ، تستسلمون إلى طاعة الله ثم قال: " الاختيار قراءة العامة بالضم ، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح " (٦).

- ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ... ﴾ (٧). قال ابن أبي حاتم: " الذي أنعم الله عليه في الآية هو زيد بن حارثة وقد أنعم الله عليه بالإسلام " (٨).

---

(١) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٣ ص١٣١٥ .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ ص٨٤١ .
(٣) النحل ، (٧٢) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج٥ص٤٩٥ .
(٥) النحل ، (٨١) .
(٦) الجامع لأحكام القرآن – ج٥ص٥٠٩ .
(٧) الأحزاب ، (٣٧) .
(٨) تفسير القرآن العظيم – ج٩ص٣١٣٦ .

ومن خلال ما سبق نجد أن الخطاب عام لكل المؤمنين في كل الأجيال، والأعصار، فالدعوة إلى تذكر نعمة الله دعوة عامة، وإذا كان التذكير عاماً، فإن الاختلاف الذي أشار إليه القرآن كان خاصاً بين الأنصار من الأوس والخزرج، ولماذا اعتبر الخلاف عاماً وخوطب به كل المؤمنين؟، والجواب عن ذلك أن هذا للدلالة على وحدة الأمة، فما كان من ماضيها يخاطب به حاضرها للاعتبار، ولأن الاختلاف في كل نفس لا يقي منه إلا الهداية، والنعمة التي يذكرنا الله بها في قوله: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ... ﴾ (١). هي نعمة الإسلام التي تولد عنها نعمة أخرى عظيمة، هي التأليف القلبي (٢).

قلت: وأنت ترى من خلال ما مر معنا أن النعمة الكبرى التي تحدثت عنها الآيات الكريمة هي نعمة الإسلام والإيمان والكتاب العزيز، ومثل هذه الآيات، آيات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها جميعاً، وبالنظر إلى أقوال المفسرين السابقة فإن الباحث لا يجد كبير خلاف بين المفسرين حول معنى النعمة هنا، بل يكاد الخلاف لا يذكر أصلاً في هذا الجانب إذ إن النعمة التي لا قيمة لأي نعمة بدونها هي نعمة الهداية إلى دين الإسلام، ونعمة الإيمان بخالق الأكوان، والحق أن الآيات التي تحدثت عن هذا المعنى أكثر من غيرها في القرآن، وذلك نظراً لأهمية هذه النعمة، وعِظمها من بين النعم التي أسبغها الخالق المنعم سبحانه، والله تعالى أجل وأعلم.

---

(١) آل عمران ، (١٠٣) .

(٢) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٣ص١٣٤١ .

المطلب الثالث: محمد ﷺ.

إن من أهم معاني النعمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، نبي الهدى والرحمة سيد الخلق أجمعين، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع ومشفع، سيد ولد آدم يوم القيامة، وقائد النبيين وزعيمهم، ورائد المجاهدين الصادقين .

فاق النبيين في خَلقٍ وفي خُلقٍ ولم يدانوه في علم ولا كرم (١).

ذلك هو محمد بن عبد الله أبي القاسم، خير خلق الله كلهم، النذير البشير، والسراج المنير، الهادي إلى صراط العزيز الحميد، وداعي العباد إلى عقيدة التوحيد.

إنه الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، هو من لا يعرف قدره ومكانته غير خالقه ومولاه. ولقد وردت آيات عديدة في القرآن العظيم تتحدث عن هذه النعمة الكبيرة، ومن هذه الآيات آية سورة الأنفال، وهي قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (٢)، وهذه الآية وإن كانت قد مرت في صفحات هذا البحث عند الحديث عن سنة الله في تغيير النعم على الناس، وهي وإن كان ظاهرها العموم، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل خصوصيتها بحال من الأحوال.

قال أبو حيان: " أشار بالنعمة إلى محمد ﷺ، بعثه الله رحمةً فكذبوه، فبدل الله ما كانوا فيه من النعمة بالنقمة في الدنيا، وبالعقاب في الآخرة. وقيل القوم هنا قريش، بُعث إليهم رسول الله ﷺ، فكذبوه، فلما غيروا ما اقتضته نعمه.. غير تعالى عليهم بنقمه في الدنيا، وأعد لهم العذاب في العقبى " (٣).

قال ابن عطية: " ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته " (٤).

ولقد كان مشركوا قريش عبدة أصنام قبل أن يبعث إليهم محمد ﷺ، فلما بعث إليهم نبي الرحمة بالآيات البينات الواضحات، كذبوه وعادوه وتحزبوا عليه، تحدوهم الرغبة في إراقة دمه الطاهر، وهنا غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت بهذه النوايا السيئة، فغير الله عليهم ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بما استحقوا من العذاب والعقوبة (٥).

---

(١) من القصيدة المسماة البردة أو البُرأة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . انظر: ديوان البوصيري – ص٢٤١ .

(٢) الأنفال ، (٥٣) .

(٣) البحر المحيط – ج٤ص٥٠٢ .

(٤) المحرر الوجيز – ج٢ص٥٤١ .

(٥) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٢ص٢٢٢ .

ولقد أنعم الله على هؤلاء الكفرة بنعمة الإمهال والإملاء، علَّهم يرجعوا ويتوبوا إليه ويشكروه لسائر نعمه الدنيوية، والتي من أجلها وجود محمد ﷺ، بينهم بالبينات هادياً وبشيراً ونذيراً، فكذبوه وغيروا النعمة إلى السخط وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل، فغير الله عليهم نعمة الإمهال، وعاجلهم بالعذاب والنكال (١).

- ومن الآيات كذلك التي تحدثت عن نعمة الله الكبرى المتمثلة في محمد ﷺ، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢).

قال الزمخشري: " هم أهل مكة، أسكنهم الله حرمه، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر " (٣).

وهذا الخطاب في قوله تعالى: " ألم تر " لرسول الله ﷺ، وهو تعجب من حال هؤلاء الكفار الذين أحلوا الكفر والجحود مكان النعمة، وذلك بتكذيبهم بتلك النعمة الكبرى ، محمد ﷺ، حين أنعم عليهم به، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة ومشركيها (٤).

قال ابن عطية: " هذه الآية فيها تنبيه على مثال لظالمين أضلوا، والتقدير: بدلوا شكر نعمة الله كفراً وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٥). ونعمة الله المشار إليها في الآية هو محمد ﷺ، ودينه، أنعم الله به على قريش، فكفروا النعمة ولم يقبلوها، وتبدلوا بها الفكر. والمراد بـ " الذين " كفرة قريش جملةً، هذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين، فلقد روي هذا عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب: أنها نزلت في الأفجرين من قريش: بني مخزوم وبني أمية. قال عمر: فأما بنو المغيرة فكُفُوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين " (٦).

وكفار مكة قد أسكنهم الله حرمه الآمن، وجعل عيشهم في رغد وسعة، ثم بعث فيهم خير الأنبياء محمد $، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، فبدلوا النعمة بالكفر، وأحلوا قومهم دار البوار (٧).

يا خير من يمم العافون ساحته سعياً وفوق متون الأنْيُق الرُّسُمِ
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر ومن هو النعمة العظمى لمغتنم (٨).

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص٣٦٧-٣٦٨ .
(٢) إبراهيم ، (٢٨) .
(٣) الكشاف – ج٢ص٥٣٤ .
(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص١٣٦ .
(٥) الواقعة ، (٨٢) .
(٦) المحرر الوجيز – ج٣ص٣٣٧ .
(٧) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٩ص٩٧ .
(٨) من القصيدة المسماة البردة أو البُرأة . انظر: ديوان البوصيري – ص٢٤٥ .

قال الطبري: " كان تبديلهم نعمة الله كفراً في نبي الله محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش ، فأخرجه منهم، وابتعثه فيهم رحمةً ونعمةً لهم، فكفروا به وكذبوه، فبدلوا نعمة الله عليهم به كفراً " (١).

ومن الآيات التي وردت في القرآن الكريم كذلك قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢). قال صاحب زاد المسير: " المراد بالنعمة ها هنا: محمد ﷺ، يعرفون أنه نبي ثم يكذبونه ، وهذا مروي عن مجاهد والسدي والزجاج (٣) " (٤).

" قال السدي " النعمة " ها هنا محمد ﷺ، ووصفهم تعالى بأنهم يعرفونه بمعجزاته، وآيات نبوته، وينكرون ذلك بالتكذيب، ورجحه الطبري، ثم حكم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة " (٥).

ومن الآيات كذلك قوله سبحانه: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (٦). هذا في معرض حديثه سبحانه عن القرية التي كانت مطمئنةً ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ومثلهم وعلى شاكلتهم أهل مكة كانوا يعيشون، في ذلك الخصب، ويتقلبون في تلك النعمة حين أنعم الله عليهم بأعظم نعمة، وهو محمد ﷺ، فكفروا به وجحدوا رسالته، وبالغوا في إيذائه، وإيذاء أتباعه، فعاجلهم الله بالعذاب بأن سلط عليهم البلاء.

قال المفسرون: عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والقد، أما الخوف فهو أن النبي $، كان يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم (٧).

ولي أن أسأل: هل كانت قريش تعرف حقاً نعمة الله المتجسدة في شخص نبيه محمد ﷺ، قبل أن تنكرها، وتجحد رسالته وبعثته؟.. الجواب نعم والله إنهم ليعرفونه حق المعرفة، ألم يكونوا قبل بعثته يلقبونه بالصادق الأمين! كانوا يصدقونه في كل حديثه لا في بعضه، وكانوا يأتمنونه على أموالهم وأعراضهم وكل ما يملكون، بل وكانوا يثقون في عدالته، فقد حكّموه في خلافهم على وضع الحجر الأسود، ألم يهاجروا من مكة إلى المدينة، وأموالهم مودعةً عنده في بيته عندما ترك علياً كرم الله وجهه ليردها عليهم؟ بلى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، ويكفرون بها ظلماً وعلواً.

---

(١) جامع البيان – ج٧ص٤٥٢ . "بتصرف".

(٢) النحل ، (٨٣) .

(٣) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزّجاج، عالم بالنحو واللغة ، كان في فتوته يخرط الزجاج ، ومال إلى النحو ، من كتبه " معاني القرآن " ولد ومات في بغداد سنة ٣١١هـ . انظر: الأعلام – الزركلي – ج١ص٤٠ .

(٤) زاد المسير – ابن الجوزي – ج٤ص٣٤٣ .

(٥) المحرر الوجيز – ابن عطية - ج٣ص٤١٣ .

(٦) النحل ، (١١٢) .

(٧) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج٢ص١٠٣ .

المطلب الرابع: الثواب والجزاء الحسن.

يقصد بالثواب هنا طبعاً ثواب الآخرة، والجزاء الحسن في الجنة، وما فيها من نعيم وعده الله عباده المؤمنين، وهي دار المتقين، وهي الرحمة التي سيدخل الله فيها الصالحين من عباده، وهي محط رجاء كل مسلم وأمله، وهي التي يشتاق إليها الأصفياء الأتقياء وتشتاق لهم.

ولقد وردت النعمة في القرآن الكريم بمعنى الثواب والجنة في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١). والاستبشار في هذه الآية تأكيد للاستبشار في الآية السابقة في قوله تعالى:﴿ ...وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢).

وكذلك هي بيان لفضل الله عليهم بإدخالهم الجنة بمنه وكرمه، لا بعملهم، وأما النعمة فهي في الجنة والدرجات التي أخبر الله أنها على قدر أعمالهم. قال الزجاج: النعمة هي الجزاء، والفضل زائد عليه قدر الجزاء، وقيل النعمة قدر الكفاية، والفضل المضاعف عليها مع مضاعفة السرور بها واللذة، وقيل: الفضل داخل في النعمة للدلالة على اتساعها وعظمها، فإنها ليست كنعم الدنيا.
والظاهر تباين النعمة والفضل للعطف، ويناسب شرحهما النزول على قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ...﴾ (٣) فالحسنى هي النعمة، والزيادة هي الفضل (٤).

والجنة هي مستقر رحمة الله في الآخرة، قال مقاتل: بنعمة وفضل أي برحمة ورزق في الجنة (٥).

قال القرطبي: " في هذه الآية " بنعمة من الله " أي بالجنة من الله، ويقال: بمغفرة من الله.
" وفضل "، هذا لزيادة البيان، والفضل داخل في النعمة، وفيه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا، وقيل: جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد، قال رسول الله ﷺ: (**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعةٍ، ويرى مقعدة من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه**) (٦).

---

(١) آل عمران ، (١٧١) .
(٢) آل عمران ، (١٧٠) .
(٣) يونس ، (٢٦) .
(٤) انظر: البحر المحيط – أبو حيان التوحيدي – ج٣ص١٢١ .
(٥) انظر: زاد المسير – ابن الجوزي – ج٢ص٥٧ .
(٦) سنن الترمذي – كتاب فضائل الجهاد(٢٠) – باب في ثواب الشهيد(٢٥) – ص(٣٨٩) – رقم(١٦٦٣). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وسنن ابن ماجة – كتاب الجهاد(٢٤)–باب فضل الشهادة(١٦)– ص(٤٧٦)- رقم(٢٧٩٩).

وهذا تفسير للنعمة والفضل، والآثار في هذا المعنى كثيرة " (١).

والاستبشار معناه الفرح والسرور، فهم فرحون مسرورون بالفضل الذي هو إدخاله لهم الجنة بتفضله عليهم، لا بأعمالهم التي عملوها، وأما النعمة فدرجات الجنة، حيث أخبر الله أنها تكون على قدر أعمال أصحابها، لأن الشهادة مراتب ودرجات (٢).

وللفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية كلامٌ نفيسٌ يحسن بي أن أنقله كما هو لحسنه وجودته، حيث يقول: " إنه تعالى بين أنهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم على ما ذكر، فهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم، وإنما أعاد لفظ " يستبشرون " لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة. وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة، والنعمة هي الثواب، والفضل هو التفضيل الزائد، والآية تدل على أن استبشارهم بسعادة إخوانهم أتم من استبشارهم بسعادة أنفسهم، لأن الاستبشار الأول في الذكر هو بأحوال الإخوان، وهذا تنبيه من الله تعالى على أن فرح الإنسان بصلاح أحوال إخوانه، ومتعلقيه، يجب أن يكون أتم وأكمل من فرحه بصلاح أحوال نفسه. والمقصود من الآية بيان أن الذي تقدم من إيصال الثواب والسرور العظيم إلى الشهداء ليس حكماً مخصوصاً بهم، بل كل مؤمن يستحق شيئاً من الأجر والثواب، فإن الله سبحانه يوصل إليه ذلك الأجر والثواب ولا يضيعه البتة " (٣).

ولقد كرر يستبشرون ليعلق به ما هو بيان لقوله: " ألاّ خوفٌ عليهم " ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم، وهذا بحال أنفسهم، والنعمة هنا هي ثواب الأعمال التي عملوها، والفضل هنا الزيادة في هذا الثواب، والتنكير ها هنا للتعظيم (٤).

وقيل أيضاً أنه كرر الاستبشار هنا لبيان أن الاستبشار ليس بمجرد عدم الخوف والحزن، بل بما يقترن به من نعمة عظيمة لا يقدر قدرها، وهي ثواب أعمالهم، وجزاء صنيعهم الذي صنعوه بتقديم أنفسهم قرابين لمولاهم وخالقهم (٥).

" استبشروا وسروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب، وقد جمعت هذه الآيات المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم "(٦). وذلك طبعاً في فاصلة الآية الكريمة: " وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ".

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ج٢ص٦١٩.
(٢) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية الأندلسي – ج١ص٥٤١ .
(٣) التفسير الكبير – الرازي – ج٩ص٧٨-٧٩ .
(٤) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص١٩٠ .
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٤٤٧ .
(٦) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ص٩٩ .

المطلب الخامس: الغنى والمال.

هذا المعنى من المعاني التي جاء القرآن بها في حديثه عن النعمة، فإن من أوجه نعمة الله على الإنسان الإنعام عليه بالغنى والمال والوفرة في متاع الحياة الدنيا، ذلك أن الغنى والمال من الأشياء التي يبذل الإنسان في سبيل تحصيلها وقتاً وجهداً كبيراً في الحياة، فإذا حصل له ذلك، كان ذلك بالنسبة إليه من أعظم النعم التي تستحق أن يشكر المنعم عليها، ومن أسباب السعادة في هذه الدنيا، مما يستوجب عليه أن يؤدي حق الله فيها.

ولقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم ذكر فيها المفسرون أن النعمة فيها بمعنى الغنى والمال والمتاع والعافية والصحة لاقترانهما بالغنى والمال كون السعادة لا تكمل إلا بحصولهما، وغير ذلك من المعاني القريبة. ومن هذه الآيات قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ...** ﴾ (١).

والمراد بالإنسان في الآية الكريمة أقوامٌ بعينهم، مثل عتبة بن ربيعة وغيره من صناديد الشرك، وقيل بل المراد به جنس الكافر الذي جاء سياق الآيات متحدثاً عنه، وعن إعراضه وكفره بآيات ربه (٢).

وقوله تعالى: " خوله نعمة " بمعنى أعطاه، وفي حقيقته وجهان، أحدهما: جعله خائل مال، ومنه قولهم فلان خالَ مالاً، إذا كان متعهداً له، حسن القيام به، والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر على غيره بماله، وما عنده من متاع وأشياء (٣).

قال الشوكاني: " وخوله كذلك ملّكه المال والمتاع، وأعطاه ما يتمنى منهما " (٤).

ومثل هذه الآية آيةٌ أخرى من نفس السورة وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ...** ﴾ (٥).

وهذه الآية حجةٌ على عبَّاد الأصنام الذين يعتقدون نفعها ويعظمونها، فإذا نزلت بهم شدةٌ نبذوها ونسوها، ودعوا الخالق رب السماوات والأرض، قال الزجاج وغيره من أهل العلم.

التخويل: العطاء من غير مجازاة، والنعمة هنا عامةٌ فيما يسديه المولى للعبد، فمن ذلك إزالة الضُر، ومنه الصحة والأمن، ومنه المال والغنى، ومما يقوي الإشارة إلى الأخير الضمير في قوله: " أوتيته " أي يريد المال، وهي النعمة المذكورة هنا على الراجح (٦).

---

(١) الزمر ، (٨) .

(٢) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج٢٦ص٢١٧ .

(٣) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٤ص١١١-١١٢ .

(٤) فتح القدير – ج٤ص٥٣٨ .

(٥) الزمر ، (٤٩) .

(٦) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ ص٥٣٥-٥٣٦ .

وهذه هي الطبيعة الفاسدة للإنسان، وهو أنه بعد دفع الضر عنه، وبعد أن ينعم الله عليه إما بالسعة في المال، أو العافية في النفس، فإنه يزعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبجهده وجده إن كان مالاً، وبالعلاج إذا كان صحةً، ففي حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله، وفي حال السلامة والصحة والغنى قطعه عن الله، فرد القرآن بأن النعمة هنا، وهي المال فتنة للكافر (١).

وقد قيل أن الآية هنا نزلت في حذيفة بن المغيرة، وهي حديث عن الإنسان الذي يكفر بالنعمة، فإذا أعطاه الله نعمةً من مالٍ أو جاهٍ، أو غيرهما بعد سوء أو ضرر مر به طغى وبغى، وزعم أن ذلك بعلمه ومهارته، ومقالتهم هذه تشبه مقالة قارون من قبلهم (٢).

ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (٣).
النَّعمة بالفتح التنعم والترفة والمراد صناديد قريش، وهم أصحاب نعمة ومال وترفه وغير ذلك (٤).

وقيل: هم أصحاب التنعم بنضارة العيش والبهجة والمال والمتاع في الدنيا.(٥) والخطاب هنا للنبي $، في قوله " ذرني " أي دعني، والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم (٦).

والآية معناها: دعني يا محمد وأولئك المترفين أصحاب الأموال والغنى، فإني أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، فلا تهتم بكونهم أرباب الغنى والسعة والترفه في الدنيا، وتمهل عليهم رويداً، وزمناً قليلاً، أو تمهل إلى انقضاء آجالهم (٧).

جاء في التحرير والتنوير: " وصفهم الله تعالى بـ " أولي النعمة " توبيخاً لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديداً لهم بأن الذي قال: " ذرني والمكذبين " سيزيل عنهم ذلك التنعم. وفي هذا الوصف تعريضٌ بالتهكم، لأنهم كانوا يعدون سعة العيش ووفرة المال كمالاً.

---

(١) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٢٦ ص٢٥٠ .
(٢) انظر: التفسير المنير – وهبة الزحيلي – ج٢٤ ص٣١ .
(٣) المزمل ، (١١) .
(٤) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٣٠ ص١٥٩ .
(٥) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٨ ص٢١٠ .
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢٨ ص١٦٣ .
(٧) انظر: التفسير المنير – وهبة الزحيلي – ج٢٩ ص٢٠٣ .

وكانوا يعيرون الذين آمنوا بالخصاصة. وجعلهم ذوي النَّعمة المفتوحة النون، للإشارة إلى أن قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم، ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس، ولذة الاهتداء والمعرفة (١).

المطلب السادس: النبوة.

النبوة ترد في القرآن الكريم كثيراً عند الحديث عن النعمة، فمن أكثر معاني النعمة في القرآن الكريم النبوة والرسالة والبعثة، فالنبوة وهي اصطفاءٌ واجتباءٌ واختيارٌ من الله لعبد من عباده ليبلغ رسالته إلى الناس، هي في حقيقتها نعمةٌ من أكبر النعم، ومنةٌ من أعظم المنن، وهي كذلك من أعظم الكمالات البشرية التي تعلي شأن صاحبها، ولقد وردت النعمة بمعنى النبوة في آيات كثيرة في الكتاب العزيز، من تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

والنعمة التي أتمها المولى سبحانه النبوة التي أعطاها ليوسف عليه السلام، ومن قبله إبراهيم وإسحاق عليهما السلام بجعل النبوة والملك في ولده، والمقصود بإتمام النعمة: الحكم بدوامها وخلوصها من كل شائب ينقصها ويؤثر فيها (٣).

جاء في تفسير الأساس: " ويتم نعمته عليك، أي بإرسالك، والإيحاء إليك، وإدخالك الجنة، وعلى آل يعقوب. إتمام نعمته عليهم بأن يصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة " (٤).

وهناك من فسر الاجتباء بالنبوة وهذا لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة، وإلا لزم التكرار، كما يرى الفخر الرازي في تفسيره، وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، فهو يستطيع أن يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور منها:

١- إن إتمام النعمة عبارة عما تصير به النعمة تامة كاملة خالية عن النقص، وما ذاك في حق البشرية إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق في حق البشر ليس إلا بالنبوة والاصطفاء.

---

(١) التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٤ص٢٦٩-٢٧٠ .

(٢) يوسف ، (٦) .

(٣) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٤ص١٢ .

(٤) الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٥ ص٢٦٣١ .

٢- قوله تعالى: " كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق " ومعلوم أن النعمة التامة التي حصل بها امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة فوجب أن يكون المراد بتمام النعمة النبوة.(١) وقوله تعالى: " يجتبيك " أي يختارك ويصطفيك و " يتم نعمته " يريد النبوة في المرتبة الأولى، ثم ما انضاف إليها بعد ذلك من سائر النعم والهبات.(٢)

قال الزحيلي: " ويتم نعمته عليك، أي بإرسالك والإيحاء إليك، كما أتمها أي كإتمام تلك النعمة من قبل هذا الوقت على جدك إسحاق، وجد أبيك إبراهيم، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف، فهو تعالى أعلم، وأحكم حيث يجعل رسالته " (٣).

- ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ .. ﴾ (٤). والآية أمر من الله أن يا عيسى اذكر نعمتي عليك، ونعمة الله على عيسى عليه السلام هي النبوة وسائر النعم مما لا يحصى، وإن كانت النبوة هي أعظم هذه النعم على الإطلاق، ولولا النبوة لما أيد عيسى بجبريل، الذي كان ينزل على عيسى مبلغاً إياه الإنجيل وهو كلام الله (٥).

قال القنوجي:" اذكر نعمتي عليك، بالنبوة وغيرها، وعلى والدتك، حيث أنبتها نباتاً حسناً وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين، ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضيل الله سبحانه بها، لقصد تعريف الأمم بما خصهما به الله من الكرامة، وميزهما به من علو المقام " (٦). قلت وأي كرامة أعظم من الاصطفاء والنبوة، وأي مقام أرفع من مقام الرسالة، والله قد حباهما بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى من لحظة الخلق والتكوين إلى لحظة الوفاة والرفع.

- ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٧).

والخطاب هنا لمحمد ﷺ، فما أنت يا محمد بنعمة ربك عليك بصدق النبوة، ورجاحة العقل بكاهن ولا مجنون، كما يقول أولئك قاتلهم الله أنى يؤفكون (٨).

---

(١) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٨ ص٧٢ .
(٢) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ ص٢٢٠-٢٢١ .
(٣) التفسير المنير – ج١٢ ص٢٠٨ . " بتصرف "
(٤) المائدة ، (١١٠) .
(٥) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٢ ص٢٥٧ .
(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن – ج٤ ص٨٢ .
(٧) الطور ، (٩) .
(٨) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٥ص٧٥٢ .

والآية فيها تثبيت من الله لنبيه ﷺ، وأمر له بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وفيها نفي لما يرميه به أهل البهتان والفجور، فبرحمته إياك، وإنعامه عليك بالنبوة والرسالة ورجاحة العقل يا محمد ما أنت بكاهن ولا مجنون، بل أنت نبي رسول صاحب مقام رفيع (١).

- ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾.(٢) هذه الآية في مضمونها تطمين لقلب النبي ﷺ، وردٌ على أولئك الذين اتهموه ورموه بالجنون، فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه: أنت بريء يا محمد من الجنون، ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة، ووجود الضمير هنا لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه يتم نعمته عليه، ويبلغه من العلو غايةً لا غاية وراءها (٣).

قال صاحب زاد المسير: " أي ما أنت بإنعام ربك عليك بالإيمان والنبوة بمجنون " (٤).

وإن هذه التهمة التي رماه بها هؤلاء تحتاج إلى رد قاطع وحاسم، فإن رسول الله $، قد أنعم الله عليه بأعظم نعمة في الوجود، فكيف تجتمع هذه النعمة مع الجنون فنفى الله عن رسوله تهمة الجنون، وذكره بنعمته عليه بالنبوة، وبما أعده له من الأجر في الآخرة، رداً عنه وتسلية له، فمن رأى مضمون ما أنعم الله على رسوله من الوحي، لا يشك أن تاريخ البشرية ما عرف إنساناً كمحمد ﷺ،(٥)

قال صاحب الظلال: " فيثبت في هذه الآية القصيرة وينفي. يثبت نعمة الله على نبيه، في تعبير يوحي بالقربى والمودة حين يضيفه إلى ذاته، وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه. وإن لك لأجراً دائماً موصولاً لا ينقطع ولا ينتهي، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم، وهو إيناس كذلك وتسرية، وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة، وعن كل بهتان يرميه به المشركون " (٦).

- ومن الآيات المهمة كذلك في ذات السياق قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٧).

والنعمة التي أُمر النبي ﷺ، أن يحدث بها هي النبوة والرسالة، والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره في الأمر بالحديث عن نعمة الله (٨).

---

(١) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج١٠ص٥٥٤٨ .
(٢) القلم ، (٢) .
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٥ص٧٥٢ .
(٤) زاد المسير - ابن الجوزي – ج٨ص٦٥ .
(٥) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج١٠ص٦٠٥١ .
(٦) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٦٥٥ .
(٧) الضحى ، (١١) .
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١٠ص٣٤٥ .

والتحديث بنعمة الله في حقيقته اعتراف بفضل المنعم يتضمن الشكر، وقد قال مجاهد في تفسير النعمة الواردة في الآية، بأنها النبوة التي أعطاك ربك، وقال محمد بن إسحاق(١): ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها. وادع إليها قال: فجعل رسول الله $، يذكر ما أنعم الله عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله وصحبه والمقربين (٢).

المطلب السابع: الرحمة.

الرحمة من أعظم نعم الله سبحانه، ومن أهم مظاهر فضله وإحسانه على عباده، وهي من المعاني التي جاء ذكر النعمة بمعناها في القرآن الكريم، وهي غاية ما يرجوه الخلق من خالقهم، وما يأمله العباد من ربهم، وهي الهدف الأسمى، والغاية الكبرى من بعثة الأنبياء، وخصوصاً رسالة سيدنا محمد ﷺ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبين الهدف والغاية من رسالة نبينا أبي القاسم، قال لنا في تلخيص رائع لهذه الرسالة الرائعة الجميلة التي حملت أسمى المعاني:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

إذن تتلخص هذه الرسالة في كلمة واحدة وهي الرحمة، فلقد جاء ﷺ، برسالة الرحمة لكل العوالم على اختلاف أنواعها وأجناسها وأشكالها.

وهناك آيات كريمة ورد ذكر النعمة فيها بمعنى الرحمة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سياق الحديث الذي يدور بين الإنسان وقرينه يوم القيامة الذي يريد أن يهلك الإنسان ويوقعه في الغواية: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (٤).

فإن الغواية إذا نجح القرين في إيقاع الإنسان فيها تؤدي بالإنسان إلى الهلاك والعذاب، ولولا رحمة الله ولطفه بهذا المخلوق ، وإنعامه عليه بالإسلام والهداية لكان محضراً في العذاب (٥).

والرحمة هنا يقصد بها الهداية إلى الحق، والعصمة عن الضلال التي تمنع صاحبها من الوقوع في الخطايا والذنوب التي تُوجب لصاحبها النار، والفعل أُحضر لا يستعمل إلا في الشر والعذاب (٦).

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، من أقدم مؤرخي العرب ، وهو من أهل المدينة ، وله السيرة النبوية التي هذبها ابن هشام ، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١ هـ . انظر: الأعلام – الزركلي – ج٦ص٢٨ .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٨ص٢٦٨ .

(٣) الأنبياء ، (١٠٧) .

(٤) الصافات ، (٥٧) .

(٥) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص٤٧٣ .

(٦) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١١ص٣٩٠ .

قال صاحب الأساس في التفسير: " ولولا نعمة ربي، أي عصمته وتوفيقه في الاستمساك بعروة الإسلام، لكنت من المحضرين، أي من الذين أحضروا في العذاب، كما أحضرته أنت وأمثالك (١). فلم يحضر في العذاب، لأن الله رحمه وعصمه عن الوقوع فيما يوجبه.

قال ابن كثير: " ولولا فضل الله عليَّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليَّ ورحمني فهداني للإيمان " (٢).

وتتضمن هذه الآية إقرار واعتراف بفضل الله على العبد الذي أدركته رحمة ربه، فأنقذ به من الجحيم، حيث تفضل عليه مولاه ورحمه بأن هداه للإيمان، وأرشده إلى التوحيد الذي خلصه من العذاب (٣).

وهذا الخطاب للقرين على جهة التوبيخ، والمعنى لقد قاربت أن توقعني في الردى والهلاك بالإغواء، بدعوتك إياي إلى إنكار البعث والقيامة، ولولا رحمة ربي الواسعة وعصمته لي من الضلال، وتوفيقه وإرشاده لي، وهدايته قلبي إلى الإسلام، لكنت يوم القيامة مجلوباً إلى العذاب معك (٤).

- ومن هذه الآيات كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ (٥).

وقد قرأ الجمهور تداركه بتاءين، وهي على حكاية الحال الماضية، وقرئ: تداركته بتاء التأنيث، وتداركه فعل ماض مذكر حمل على معنى النعمة، لأن التأنيث هنا للنعمة غير حقيقي.

وقرئ: " لولا أن تداركه رحمة من ربه " وهو توفيقه للتوبة، وقبولها منه، وقد حسن تذكير الفعل للفصل بالضمير ، والمذموم الملام المطرود من الرحمة والكرامة.

ومعنى الآية أنه نبذ غير مذموم لنعمة الله عليه بالتوبة والرحمة والقبول، وكأن المؤنث الحقيقي هنا هي الرحمة التي وردت بها إحدى القراءات، فهي التي تداركته من الهلاك والنبذ بالعراء (٦).

وسياق الخطاب في الآية موجه من الله لنبيه، أن يا محمد اصبر لقضاء ربك وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين، ولا تكن كصاحب الحوت وهو يونس بن متّى عليه السلام، فيعاقبك ربك على تركك التبليغ كما عاقبه فحبسه في بطن الحوت، ولولا أن تداركه نعمة من ربه.

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٨ص٤٧٠٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٧ص١٠ .
(٣) انظر: في رحاب التفسير – عبد الحميد كشك – ج٥ص٤٦٦٧ .
(٤) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج٢٣ص٩٣ .
(٥) القلم ، (٤٩) .
(٦) انظر: هذه الخلاصة:
فتح البيان – القنوجي – ج١٤ص٢٧٨ . وإرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٥ص٧٥٨ .
وروح المعاني – الألوسي – ج١٠ص٤٥ . وزاد المسير – ابن الجوزي – ج٨ص٧٦-٧٧ .

فرحمه بها وتاب عليه واجتباه لبقي في بطن الحوت إلى يوم البعث (١).
قال القرطبي: " نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت ، وقيل: نعمة الله عليه الرحمة من ربه التي رحمه بها ، وتاب عليه واصطفاه " (٢).
والرحمة التي أنعم الله بها على يونس عليه السلام لولاها لنبذ بالعراء بمعنى لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات والجبال وهو مذموم، أي: ملام على الذنب الذي أذنبه، ومطرود من الرحمة، وكلمة لولا تدل على أن هذه المذمومية لن تحصل أو المراد منه ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو أن هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى: " فاجتباه ربه " أي اصطفاه بعدها ، واختاره لنبوته (٣).
والمكظوم: المحبوس المسدود عليه، والمعنى نادى في حال حبسه في بطن الحوت، وقوله تعالى: " لولا أن تداركه نعمة.." استئناف بياني ناشئ عن مضمون النهي من قوله تعالى: " ولا تكن كصاحب الحوت "، والتقدير لولا تدارك الرحمة من ربه، والتدارك: تفاعل من الدرك بالتحويل وهو اللحاق، وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه ورحمته الكبيرة بعبده ونبيه يونس عليه السلام (٤).

ويؤكد صاحب الأساس في التفسير أن النعمة التي أدركته هي الرحمة من الله والمعنى لولا أن الله أنعم عليه ورحمه بإجابة دعائه وقبول عذره، لنبذ بالعراء، وهو معاتب بزلته، لكنه رُحم فنبذ غير مذموم ولا مطرود من الرحمة، ثم اصطفاه ربه لدعائه، وقبل عذره وجعله من الصالحين (٥).

وقيل في الرحمة أنها التوفيق للتوبة وقبولها منه، ونجاته من بطن الحوت، ولولا هذه الرحمة، لنبذ بالفضاء مع الذم له، لكن الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذم (٦).

والحق أن معنى النعمة في حالة يونس عليه السلام هنا، أنسب ما يكون لها هو معنى الرحمة لأن مظاهر الرحمة كانت واضحةً في كل أحواله عليه السلام بدءاً بنجاته من بطن الحوت حينما لم يقطعه بأسنانه ويهضمه، ومروراً بقذفه في الأرض الخلاء، وكذلك بإنبات شجرة اليقطين عليه، والتي كانت سبباً في طرد الحشرات والهوام لكي لا تمسه بسوء، وانتهاءً باصطفائه واختياره ليكون نبياً من المرسلين.

---

(١) انظر: جامع البيان – الطبري – ج٢ص٢٠٢-٢٠٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن– ج٩ص٤٦٦ .
(٣) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١٤ص٢٧٨ .
(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٤ص١٠٥ .
(٥) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج١٠ص٦٠٦٦ .
(٦) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٥ص٣٠٤ .

المطلب الثامن: الإحسان .

من وجوه نعمة الله على عباده وخلقه الإحسان، والإحسان إلى الخلق وإكرامهم بشتى أصناف وأنواع النعم هي من أهم الأشياء التي تعبدنا الله سبحانه وتعالى بسببها، ويستحق من أجلها أن نوحده، ونفرده بالعبادة، فنحن دوماً عبيد إحسانه وفضله وعطائه وكرمه جل شأنه.

ولقد وردت النعمة في القرآن الكريم بمعنى الإحسان في مواضع عدة، ومواطن مختلفة. منها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١). وهنا في قوله تعالى:" بنعمة الله" عبر عن الفعل بأثره لأنه أحب، أي برحمة الملك الأعلى المحيط علماً وقدرةً بخلقه، وإحسانه وعنايته، ليريكم من عجائب قدرته الدالة على أنه سبحانه هو الحق المبين (٢).

جاء في إرشاد العقل السليم: " ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله "، بإحسانه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، وغاية حكمته، وشمول إنعامه، والباء إما متعلقة بتجري، أو بمقدر هو حال من فاعله أي ملتبسةً بنعمته تعالى، وقرئ الفلُك بضم اللام، وبنعمات الله " (٣) أي بالجمع، لأن تسيير الفلك يحتاج لنعم عديدة متضافرة.

وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه وتعالى أنه هو الذي سخر لنا البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلطفه وتسخيره وإرادته، فإنه لولا تمكين الماء من القوة التي يحمل بها السفن لما جرت هذه السفن في هذا الماء، ولأجل هذا قال " ليريكم من آياته "، أي من دلائل قدرته، وإحكام صنعه (٤).

ومن دلائل هذه القدرة، أي قدرة الخالق بإحسانه في تهيئة الأسباب للفلك لتجري في البحر بأمره، ما يدل على عِظم هذا الإحسان، وشمول هذا الإنعام، مما يدل على كمال القدرة وفائق العناية بالخلق (٥).

وإن جريان الفلك من أهم مظاهر إحسان الله إلى خلقه، ومن مظاهر تهيئة الأسباب وتسخير الخلق لخدمة الإنسان ومنفعته، ولكن هذا الإحسان وهذا العطاء والإكرام يحتاج للصبار الذي يصبر على الضراء، والشكور كثير الشكر للنعم، المؤدي لحقها (٦).

---

(١) لقمان ، (٣١) .
(٢) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٦ص٣٣-٣٤ .
(٣) إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٤ص٢٩٤ .
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٦ص١٥٨ .
(٥) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص٢٣١ .
(٦) انظر: محاسن التأويل – القاسمي – ج٨ص٢٠٦-٢٠٧ .

قال صاحب المقتطف: " ألم تر أن الفلك " أي بإحسانه ولطفه. فقد سخر البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع من بلد إلى بلد، ومن قارةٍ إلى قارة، تجري بهذه السفن الريح، والريح من نعم الله تعالى " (١).

وهذه الفلك تجري في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء، فخلقه سبحانه لهذه الخلائق على هذه الكيفية هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس ولا تغمرها المياه أو تقلبها أو تتوقف، ولو اختلت تلك الخواص أي اختلال ما جرت الفلك في البحر، وبعد ذلك كله يبقى أن الله سبحانه بفضله وإحسانه هو حارس الفلك وحاميها فوق هدير الأمواج وسط العواصف والأنواء، حيث لا عاصم لها إلا الله، فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال، ثم هي تجري حاملة نعمة الله وفضله كذلك، وهي معروضة للرؤية، يراها كل من له عين، وليس بها غموض أو خفاء (٢).

ومن الآيات التي تحمل ذات المعنى ونفس الدلالة قوله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴾ (٣).
هذه الآية فيها خطاب للناس عامة، والأمر بالذكر هنا بالقلب واللسان، وفيها قصر النعمة ونسبتها إلى المنعم الحقيقي، ولما كان إحسانه ونعمه غامرةً من كل جانب قال: عليكم، في دفعه للضر عنكم، وصنعه المنن لكم، فقد أكد بأنها منه وحده حيث قال منبهاً لمن غفل، وموبخاً لمن جحد: هل من خالقٍ غير الله يرزقكم ؟، ولما كان الاستفهام بمعنى النفي أكده بـــ " من " فقال: " من خالقٍ " أي للنعم وغيرها، يرزقكم ويعطيكم ويمنحكم ويحسن إليكم (٤).

والأمر بالذكر هنا: أمر بالشكر في الحقيقة للناس قاطبةً، أو أهل مكة خاصة، بأن يشكروا إنعام الله عليهم، وإحسانه إليهم، برعاية النعمة، وحفظها، ومعرفة حقها، والاعتراف بها، وتخصيص العبادة والطاعة بموليها، ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد والإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يجاب عنه بنعم، فلا معطي غيره، ولا محسن إلا هو (٥).

---

(١) المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٢٢٨ .
(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – مج٥ – ج٢١ص٢٧٩٧ .
(٣) فاطر ، (٣) .
(٤) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٦ص٢٠٢-٢٠٣ .
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٤ص٣٦٠-٣٦١ .

ومن المفسرين من قال: إن الخطاب هنا لجميع الناس وليس خاصاً بالمشركين من قريش، ونعمة الله عليهم هي التي تقدم ذكرها في سياق الآيات التي تسبق هذه الآية، من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد، وإرسال الرسل لبيان المنهج والطريق، والزيادة في الخلق، وفتح أبواب الرزق، ومعنى هذا الذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامة هذه النعم، وطلب المزيد من أوجه الفيض والإحسان (١).

وما نفهمه من هذا المقطع أن رسول الله ﷺ، يدعو الناس إلى تذكر نعم الله سبحانه وإحسانه إليهم، وأن تكذيبه مع وجود الإحسان إفك وطغيان وكفر بالنعمة (٢).

وأنا أقول: إن إنكار الإحسان مع وضوحه كل هذا الوضوح من قبل مشركي العرب وغيرهم هو انتكاس للفطرة السوية، لأن الفطرة السوية تقضي بالإحسان لمن أحسن إليك مرة واحدةً أو مرتين، فكيف بمن أحسن إليك مرات لا تعد ولا تحصى؟! وأنت ترفل في نعمه آناء الليل وأطراف النهار.

ونحن نجد أن الله سبحانه يذكر الناس بنعمته عليهم وإحسانه إليهم، ويعجب سبحانه كيف يُصرفون عن هذا الحق الواضح المبين! ونعمة الله على الناس لا تتطلب إلا مجرد الذكر فهي واضحة بينة، يرونها ويحسونها ويلمسونها ولكنهم ينسون فلا يذكرون، وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم وأوجه الإحسان، وفي كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض يفيضها الخالق على خلقه، فهل من خالق غيره يرزقهم بما في أيديهم من هذا الفيض والإحسان العميم؟ إنهم لا يملكون أن يقولوا هذا . فما لهم لا يذكرون ولا يشكرون؟! (٣).

- ومن تلك الآيات الكريمة قوله تعالى:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ ...﴾ (٤). وهنا يقول تعالى شأنه: ثم تذكروا أيها العباد نعمة ربكم التي أنعمها بتسخيره ذلك لكم مراكب في البر والبحر عندما تستوون عليه، وتعظمونه وتمجدونه، وتقولون تنزيهاً لله الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه من هذه الفلك والأنعام، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مطيقين لا في الأيدي ولا في القوة (٥).

---

(١) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١١ص٢٢٠ .
(٢) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٨ص٤٥٦٨ .
(٣) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ ص٢٩٢٤-٢٩٢٥ .
(٤) الزخرف ، (١٣) .
(٥) انظر: جامع البيان – الطبري – ج١١ص١٧٠ .

وذكر النعمة بعد الاستواء والتمكن من ظهور الأنعام يعني الإقرار والاعتراف بفضل المنعم وإحسانه، وشكره على تسخيره تلك النعم، فلولا إحسانه وتسخيره لنا هذه الأنعام ما قدرنا على هذا الاستواء. ومعنى " إنا إلى ربنا لمنقلبون " أي صائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، هذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة (١).

وخير من كان يذكر نعمة ربه فيشكرها ، ويعرف فضله وإحسانه هو سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، ولقد كان من هديه ﷺ، عند ركوب الدابة في السفر أن يسبح الله ويحمده، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: " **إن النبي $، كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهنّ وزاد فيهنّ: آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون** " (٢).

والضمير في " ظهوره " عائد على " ما " أي ما يركبونه كأنه قال: على ظهور ما تركبون ويعني ذلك الفلك والأنعام، ثم تذكروا أي في قلوبكم نعمته وإحسانه، مستعظمين تلك النعمة، لا يريد الذكر باللسان، بل بالقلب لأنه قابله بقوله: " وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا " أي تنزهوه وتعظموه (٣).

والذكر للنعمة يكون حين الركوب أي حين التلبس بمنافعها، لأن الذكر حينئذٍ أوقع في النفس، وأدعى لشكر النعمة، وشكر صاحب الإحسان، وأجدر بعدم النسيان، وذكر النعمة كناية عن شكرها، لأن شكر المنعم لازم للإنعام عرفاً فلا يصرف عنه إلا نسيانه. والتسخير: التذييل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو خلقه إياها قابلةً للترويض، فاهمةً لمراد الراكب، وهذا من تمام إحسانه وإنعامه جل شأنه (٤).

" هذا هو الأدب الواجب في حق المنعم، يوجهنا إليه لنذكره كلما استمتعنا بنعمةٍ من نعمه التي نتقلب بين أعطافها ثم ننساه. والأدب الإسلامي وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير، فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء. ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان، بل استحياء للمشاعر لتشعر بيده في كل ما يحيط بالناس، مما سخره الله لهم، وهو محض الفضل والإحسان والإنعام بلا مقابل منهم " (٥).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٧ ص١٤٦-١٤٧ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الحج(١٥) – باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره(٧٥) – ص(٥٠١) – رقم(٤٢٥).

(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٨ص٩ .

(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور –ج١٢ص١٧٤-١٧٥ .

(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٣١٨٠ .

ومن هذه الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ...﴾ (١).

والمراد بأوزعني: أي ألهمني شكر نعمتك، وفضلك، وإحسانك عليَّ في هدايتي، واستقامتي، وعلى والديَّ بالتحنن والشفقة حتى ربياني صغيراً، وقيل أنعمت عليَّ بالصحة والعافية، وعلى والديَّ بالغنى والثروة، وقال عليّ كرم الله وجهه: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده (٢).

ونعمتك: اسم مضاف يعم، والمراد ألهمني شكر النعم التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ، من جميع النعم الدينية كالإيمان والتوفيق، ومن أوجه الإحسان الدنيوية كالصحة والسلامة وغير ذلك (٣).

وإذا قوي الشاب وارتجل وبلغ الأربعين، أي تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ناجى ربه أن يا رب ألهمني شكر نعمتك عليَّ وعلى والديَّ، وإحسانك إليَّ وإليهما، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه، لأن النعمة عليهما نعمة عليه، وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويجدد شكر نعمة الله عليه وإحسانه إليه ويذكر ذلك دائماً (٤).

المطلب التاسع: سعة العيش والرغد.

جاءت النعمة في القرآن بمعنى العيش الواسع الرغد، والدنيا الوافرة في آيات عدة في كتاب الله عز وجل، ومن هذه الآيات قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (٥). وفي هذه الآية يخبر الحق سبحانه عباده عن حقيقة هذا الإنسان، ويقرر لنا طبعاً من طباعه وسجيةً من سجاياه، وهي أنه حين يَبسط له في دنياه، ويرزقه رخاءً في عيشه، ويوسع عليه في رزقه، ويمنحه كل تلك النعم وغيرها، فإنه يقول بعد أن كان في ضيق وعسر كان يعانيه: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره، وهو بهذا فرحٌ بالنعم التي يعطاها، مسرورٌ بها، فخورٌ بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له منها من العيش، وينسى صروفها، ونكد المصائب فيها، ويطلب دوام النعيم وعدم زواله (٦).

---

(١) الأحقاف ، (١٥) .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٨ص٤٨٣ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٢ص٣٣ .

(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٩ص٥٢٥٥ .

(٥) هود ، (١٠) .

(٦) انظر: جامع البيان – الطبري – ج٧ ص١٠ .

وإن الإنسان بعد أن تصيبه النعماء، وهي الصحة، وسعة الرزق، يصيبه حالةٌ من الفرح المبالغ فيه، والسرور الكبير، ثم هو فخور بما لديه، قال ابن عباس: يفاخر أوليائي بما أوسعت عليه (١).

قال صاحب التفسير المنير عند تفسيره لهذه الآية: " النعماء هي النعمة والنعمى: وهي الخير والمنفعة من صحة وغنى، ويقابلها: الضراء والضر، وهو الألم من فقر وشدة، والسيئات: المصائب، وفرح أي بطرٌ مغتر بالنعمة، وفخور متعاظم على الناس بسبب النعم " (٢).

" والنعماء تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضراء من الضر وهو أيضاً شامل، ويكثر استعمال الضراء فيما يخص البدن، ولفظ "ذهب السيئات عني" تقتضي بطراً وجهلاً أن ذلك بإنعام من الله" (٣).

وفي تعبير القرآن الكريم بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك القول عند سلب أقل نعمة من النعم التي أنعم الله بها عليه، لأن الإذاقة أقل ما يوجد به الطعم، والنعماء: إنعامٌ يظهر أثره على صاحبه في سعة العيش ورغده، والمعنى أن الله سبحانه إذا أذاقه من الصحة والسلامة والغنى والسعة بعد أن كان في ضر من مرض وفقر وخوف لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر، وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس، مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة (٤).

ومن الآيات كذلك التي جاءت فيها النعمة بمعنى سعة العيش قوله تعالى:﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ (٥).

النعمة: لذاذة العيش ونضارة الحياة، والمعنى أنهم تركوا مواضع حسنة كثيرة من المساكن وغيرها، ومن وجوه النعمة ومتع الحياة، وفاكهين: ناعمين أصحاب فاكهةٍ ولذة (٦).

وسياق الآيات يتحدث عما تركه فرعون وقومه بعد عزتهم، حيث تركوا جنات وبساتين، ونعمة كبيرة، وهي العيش اللين الرغد، والحياة الناعمة الفاكهة، حيث أورثها الله أناساً آخرين غيرهم (٧).

وقد كان هؤلاء متنعمين منغمسين في النعمة، يتفكهون، فيأكلون ويلبسون ما شاؤوا وما أحبوا، مع الأموال، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوه، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير (٨).

---

(١) انظر: زاد المسير – ابن الجوزي – ج٤ص٦٧ .
(٢) التفسير المنير – الزحيلي – ج١٢ص٢٥ .
(٣) المحرر الوجيز – ج٣ص١٥٣ .
(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٢ص٦١٢ .
(٥) الدخان ، (٢٧) .
(٦) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٥ص٧٢-٧٣ .
(٧) انظر: زاد المسير – ابن الجوزي – ج٧ص١١٦ .
(٨) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٩ص٥١٩١ .

قال صاحب التفسير المنير: " كثيراً ما تركوا في مصر وراءهم من بساتين خضراء، وحدائق غناء، وأنهاراً متدفقة، وآباراً مترعة بالماء، وزروع نضرة، ومنازل ومجالس حسنة وثيرة، وتنعم بالمال والخير الوفير، كانوا يرفلون بالنعمة، ويتنعمون بعيشة هنية، ويستمتعون بأنواع اللذة، كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة، فيأكلون ويلبسون ما شاؤوا " (١).

المطلب العاشر: العتق .

العتق من أقل المعاني التي جاءت بها النعمة في القرآن الكريم، حيث لم ترد النعمة بمعنى العتق إلا في آية واحدة في كتاب الله سبحانه وتعالى وهي قوله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ...**﴾ (٢). والمراد بهذه الآية الكريمة هو: زيد بن حارثة، فالله سبحانه قد أنعم عليه بالإيمان والنجاة من أيدي المشركين، حيث يسر دخوله للإسلام، وكذلك سهل وصوله لرسول الله ﷺ، وقد أنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق حيث أعتقه، ثم تبناه بأن اتخذه ولداً، وجعله موطن محبته، ولُقب زيد بن حارثة بحب رسول الله (٣).

جاء في التفسير المنير: " أنعمت عليه بالعتق والتحرير، وقد كان زيد من سبي الجاهلية، اشتراه رسول الله ﷺ، قبل البعثة، والأصح أن السيدة خديجة وهبته له، ثم أعتقه وتبناه (٤).

وقد بين الله تعالى علو منزلته وشرفه بقوله: " للذي أنعم الله عليه " فأنعم الله عليه بأن هداه للإسلام، وبأن تولى نبيه ﷺ، تربيته وتعليمه، ثم بين تعالى منزلته من نبيه بقوله: " وأنعمت عليه " أي بالعتق والتبني والرعاية والمحبة (٥).

والخطاب هنا للنبي ﷺ: أي اذكر يا محمد وقت قولك للذي أنعم الله عليه، بتوفيقه لدخول الإسلام، وتوفيقك لحسن تربيته، وأنعمت عليه من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريره وعتقه، والمقصود زيد، تبناه رسول الله ﷺ، قبل النبوة، ثم أعتقه، وزوجه بزينب التي كانت عند الاختلاف معه تتعاظم عليه لشرفها، فقال له رسول الله: أمسك عليك زوجك واتق الله، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنه: ما أنزلت على النبي ﷺ، آية أشد منها، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها، ولكنه خشي قالة الناس (٦).

---

(١) التفسير المنير – الزحيلي – ج٢٥ص٢٢٢ .
(٢) الأحزاب ، (٣٧) .
(٣) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١١ص٢٩ .
(٤) التفسير المنير – الزحيلي – ج٢٢ص٢٤ .
(٥) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٦ص١٠٨ .
(٦) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٢٦٧ . وتفسير القرآن العظيم – ابن أبي حاتم – ج٩ص٣١٣٦.

المبحث الثالث: من أعظم وجوه النعم .

وفيه مطالب:

المطلب الأول: بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

المطلب الثاني: الإسلام دين التوحيد وتمام النعمة .

المطلب الثالث: نعمة إنزال القرآن الكريم .

المبحث الثالث: من أعظم وجوه النعم.

إن نعم الله سبحانه على عباده كثيرة جداً، بدءاً بنعمة الخلق، ومروراً بنعم لا تعد ولا تحصى، بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر مستتر، وإن من أعظم نعم الله، أو أعظمها على الإطلاق هذه النعم الثلاثة التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي نعمة بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونعمة اصطفاء الإسلام دين التوحيد للناس، ونعمة إنزال القرآن كتاب الأمة ومنهجها، وهذه النعم الثلاثة لا تعد لها نعمةٌ أخرى حتى نعمة الخلق والإيجاد، لأن نعمة الخلق إذا لم ينتفع صاحبها – أي المخلوق – بهذه النعم الثلاثة فإنه لا فائدة من خلقه وإيجاده، بل قد تكون وبالاً عليه يوم القيامة، إذن هذه النعم الثلاثة لا قيمة لأية نعمة سواها، ما لم يتنعم الإنسان بها، وإليك هذه النعم تباعاً كما بينها كتاب الله تعالى فيما يلي:

المطلب الأول: بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد منَّ الحق سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين باختيار رسوله محمد ﷺ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلقد كان عليه الصلاة والسلام حكيماً أميناً فيهم قبل الرسالة، وكان رفيقاً عطوفاً يخشى عليهم العنت والمشقة بعد الرسالة، لين الجانب، ليس بالفظِّ ولا الغليظ، امتلأ قلبه بالرحمة تجاه الخلق، كل الخلق، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم في آيات كثيرةٍ منه.
ولعلنا نذكر طرفاً منها في هذه الورقات. منها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).
ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الحق سبحانه ذكر قبلها الفريقين، فريق الرضوان، وفريق السخط، وأنهم درجات عند الله على وجه الإجمال بدون تفصيل، ففصل بعد ذلك أحوالهم، وذكَّر المؤمنين من عباده بما امتن عليهم به من إرسال خير المرسلين إليهم، واصطفاءه من بينهم ليبلغهم رسالة ربهم، تالياً آياته على مسامعهم، مبيناً لهم طريق الهدى، ومطهراً لهم من أرجاس الشرك، ومزكيّاً لأخلاقهم ونفوسهم، ومسلياً لهم عما لحق بهم يوم أحد من الخذلان والقتل، وقد قال ابن عباس وقتادة: " من أنفسهم " لكونه معروف النسب فيهم، معروفاً بالصدق والأمانة. وكذلك فإن شرفهم يتم بظهور نبي منهم يعرفون أحواله في الصدق والأمانة، ليكون ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به، قال ابن عباس: ما خلق الله نفساً هي أكرم من محمد رسوله $، وما أقسم بحياة أحدٍ غيره فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ (٢).(٣)

---

(١) آل عمران ، (١٦٤) .

(٢) الحجر ، (٧٢) .

(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص١٠٨-١١٠ .

ومعنى أن الله منَّ على المؤمنين: أي انعم وتفضل، وأصل المنّ القطع، ولقد سميت النعمة منَّةً لأنه يقطع بها عن البلية والحاجة والعوز، واعتبرت الصنيعة مناً لأنه قطع لها عن وجوب الشكر عليها، وقيل المنُّ هو: تكدير النعمة بالتحدث بها، وكثرة الكلام فيها، ولكن المنّ الذي نحن بصدده هو الأول، أي العطاء بلا مقابل، أما المنُّ الثاني فهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿ .. ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً ..﴾ (١). وعندما تنقطع الحاجة فإننا نسمي ذلك منَّةً (٢).

وقوله تعالى: " لقد منّ الله على المؤمنين " جواب قسم محذوف، أي والله لقد منَّ الله، أي أنعم وتفضل وتطوّل على المؤمنين ببعثته ﷺ. (٣)

" ومن أنفُسهم " أي نبياً من أهل لسانهم، قال الطبري: " ولم يكن من غير أهل لسانهم فلا يفقهوا عنه ما يقول، ثم يقول: يقرأ عليهم كتابه وتنزيله، ويزكيهم: يطهرهم من ذنوبهم بإتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ويعلمهم كتاب الله الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه، ويعني بالحكمة السنة التي سنها الله جل ثناؤه، للمؤمنين على لسان رسوله وبيانه لهم " (٤).

ولقد أشرق عليه نور النبوة عليه الصلاة والسلام عندما كمل له أربعون، فأكرمه تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وحمله أمانة التوصيل للوحي، ولا خلاف في أن مبعثه كان يوم الاثنين، واختلف في شهر المبعث، ورجح جمع من العلماء أنه في رمضان، حيث قالوا: إنه حينما أكرمه مولاه بالنبوة، أنزل عليه القرآن، ومن هؤلاء العلماء يحيى الصرصري (٥) الذي قال في نونيته:

وأتت عليه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

وكمل سبحانه له من مراتب الوحي مراتب عديدة كالرؤيا الصادقة، وما يلقيه الملك في روعه، وتمثله له رجلاً، ومجيئه في صلصلة الجرس، وعلى صورته التي خلق عليها وغير ذلك من المراتب (٦).

ومنة الله على عباده بأن ابتعثه ﷺ، من العرب منةً خاصة، لكنها لا تنافي المنَّة العامة في كونه رحمةً للعالمين، فذلك فيه مزيد شرف لهم، وباعث لهم على الاهتداء، لأنهم أسرع فهماً من غيرهم (٧).

(١) البقرة ، (٢٦٢) .

(٢) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج٢ص١١٢ . وتفسير الشعراوي – الشعراوي – ج٣ص١٨٥٠-١٨٥١ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٤٤١ .

(٤) جامع البيان – الطبري – ج٣ص٥٠٦ .

(٥) جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري ، نسبة إلى صرصر، قرية قرب بغداد، علامةٌ وحافظ لغوي ، ديوانه ومدائحه سائرة ، يشبه في عصره حسان ، قتله التتار سنة ٦٥٦هـ انظر: شذرات الذهب – ج٥ص٢٨٥-٢٨٦

(٦) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد – ابن القيم – ج١ص٧٧-٧٨ .

(٧) انظر: تفسير المنار – رشيد رضا – ج٤ص٢٢١ .

قال القرطبي: " من أنفسهم: أي بشر مثلهم، فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم، علم ذلك من عند الله، وقيل: من أنفسهم، منهم فتشرفوا به ﷺ، فكانت تلك المنَّة وقيل: من أنفسهم، ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته. وقرئ في الشواذ " من أنْفَسهم " بفتح الفاء، يعني من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم.
ثم قيل لفظ المؤمنين عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلا ولهم فيه نسب ﷺ، إلا بني تغلب فإنهم كانوا نصارى فطهره الله من دنس النصرانية، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون أكثر من غيرهم، فالمنة عليهم أعظم " (١).

والصفة الثانية التي تضمنتها الآية، أنه يتلو عليهم آياته، بعد ما كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي، وظاهر السياق أن الآيات التي تتلى هنا هي آيات القرآن، وقيل: إن المراد بالآيات الكونية، ومعنى تلاوتها تلاوة القرآن المشتمل على أنباءها، وعلى توجيه الأنظار إليها، والظاهر القول الأول، ولا يخلو الرأي الثاني من تكلف (٢).

والصفة التالية يزكيهم، أي يطهرهم من دنس الطبائع والشرك والآثام، وقيل: يزكيهم، أي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به، راضين عن حال شركهم ووثنيتهم وعاداتهم الجاهلية القبيحة (٣).

وأما الصفة الأخيرة فهي تعليمهم الكتاب والحكمة، والمقصود القرآن والسنة، وهو صفة أخرى لـــ " رسولاً " مترتبةً في الوجود على التلاوة، ووسَّط التزكية بينهما، لأن التزكية هي دعوة لتكميل النفس وتهذيبها، لتنتفع بالتلاوة والتعليم، وقيل أن الحكمة هي الفقه وبيان الحلال والحرام، ولقد كانت نتيجة هذا التعليم أن يصبح منهم العلماء، والحكماء، والقادة، والأساتذة، وبناة الحضارة، وإن كانوا قبل هذا لفي غيٍ وضلال (٤).
وأقول: إن المنة ظاهرةٌ في بعثته ﷺ، فلولا هذه البعثة لما كان للعرب في هذا العالم مكان أبداً، فبهذه البعثة عرفهم العالم، واحترمهم، وسلمهم القيادة، والعرب ليست لهم رسالة غير التي جاءت بها هذه البعثة، فإما أن يحملوا رسالته ﷺ، فتعرفهم البشرية وتكرمهم، وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً وأصفاراً كما كانوا قبلها، فلا يعترف بهم أحد، ولا يكرمهم أحد.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – مج٢ صج٤ص٦٠٩-٦١٠ " بتصرف " .
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٤٤١ . وزهرة التفاسير – أبو زهرة – ج٣ص١٤٨٩ .
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٤٤١ . وتفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ص٩٤ .
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٤٤١ . وبحر العلوم – السمرقندي – ج١ص٣١٣ . والتفسير المنير – الزحيلي – ج٤ص١٤٩ .

ومن الآيات كذلك التي تحدثت عن بعثته ﷺ في سياق نعمة الله على العباد قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

قال البقاعي: " لما كان الرسول يجب إكرامه، والوقوف في خدمته لأجل مُرسله. شرع يَذكر لهم من أوصافه ما يقتضي لهم مزيد إكرامه. فقال لهم: " من أنفسكم " أي ترجعون معه إلى نفس واحدة بأنكم لأب قريب، وذلك أقرب إلى الألفة، وأسرع إلى فهم الحجة، وأبعد من اللجاجة " (٢).

وأما قوله: " عزيز عليه ما عنتم " فالعزة: امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه بالقدرة أبو بالقلة أبو بالصعوبة، والعنت: لحاق الأذى الذي يضيق به الصدر، ولا يُهتدى للمخرج فيه. والمعنى أنه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة وحصول العذاب والضرر والأذى لهم ، والوقوع في المكروه (٣).

- وكذلك قوله: " حريص عليكم " المراد بليغ الحرص عليكم، أي على نفعكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه، وقيل: حريص على إيصال الخيرات لكم في الدنيا والآخرة، وقيل: حريص عليكم أي: على هدايتكم، وقال الفَّراء:(٤) الحريص هو الشحيح، والمعنى أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار (٥).

وأما قوله تعالى: " بالمؤمنين رؤوف رحيم " فقد قدم الجار لإفادة الاختصاص، وقيل أنهما بمعنى واحد، والرأفة شدة الرحمة، وقيل رؤوفٌ بأقربائه رحيم بأوليائه، قال بعض السلف: إن الله سبحانه لم يجمع لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبي ﷺ تشريفاً له، وتعظيماً لشأنه، وتكريماً لشخصه، قال عنه: " بالمؤمنين رؤوف رحيم " وقد قال عن نفسه سبحانه: ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.(٦)، وقيل أنه رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، والرؤوف الشفوق، والرأفة أخص من الرحمة، وتكون مع الضعف والرقة والشفقة (٧).

---

(١) التوبة ، (١٢٨) .
(٢) نظم الدرر – ج٣ص٤٠٧ .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٥ص١٢٠ . ونظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٤٠٧ .
(٤) الفرَّاء هو: يحيى بن زياد بن عبد الله الأسدي ، صدوق ، نزيل بغداد ، نحوي ولغوي كبير ، توفي سنة ٢٠٧هـ
انظر: - تقريب التهذيب - ج٢ص٥٩٠ .
(٥) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٤٠٧ . والبحر المحيط – أبو حيان – ج٥ص١٢٠-١٢٢ .
(٦) الحج ، (٦٥) .
(٧) انظر: مجمع البيان – الطبرسي – ج٣ص١٦٩-١٧٠ . والتفسير المنير – الزحيلي – ج١١ص٨٨ .

وأقول: إن هذه الآية الكريمة تبين أن بعثته ﷺ كانت خيراً وبركة، وأنه ﷺ لا يحب إعنات المؤمنين وتعبهم ومشقتهم، بل هو حريص على هدايتهم، وإنقاذهم من النار، ولفت انتباهي أن هذه الصفات الخلقية التي مدح بها عليه الصلاة والسلام منفعتها متعدية للغير، وليست مقصورةً عليه صلوات الله عليه، بل الفائدة فيها عامة للمؤمنين وغيرهم، ولكن جانب الرأفة والرحمة أكثر خصوصية بالمؤمنين.

ومنذ ذلك الحين الذي بعث فيه نبي الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام قام وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه وأهله، بل بقي يواصل الليل بالنهار ليبلغ دين الله ودعوته للعالمين، يحمل على عاتقه الشريف العبء الثقيل الباهظ ولا ينؤ به، عبء تلك الأمانة الكبرى، عبء البشرية كلها جيلاً بعد جيل، فلم يلهه شأن عن شأن خلال هذا الأمد الطويل، منذ أن سمع النداء العلوي (١).

وانظر كيف أن الحق سبحانه لم يقل في الآية السابقة جاءكم رسولٌ منكم، ولكنه قال: من أنفسكم وهي أشد حساسيةً، وأعمق تأثيراً، وأدل على نوع الرابطة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفسهم لا يلقي بهم في المهالك، فإذا كلفهم بالجهاد وتحمل المشاق، فليس لهوانهم عليه، ولا لقسوةٍ في قلبه، إنما هي الرحمة في صورةٍ من صورها (٢).

وأقول: ما الذي تعلمنا إياه هذه الآية؟ إنها تعلمنا أن على قادة المسلمين، وهم خلفاء رسول الله على أمته أن يتصفوا بهذه الصفات من الشفقة، والحرص على المؤمنين، والرأفة والرحمة بهم، وبتطبيق أوامر الله، ومن ذلك الجهاد في سبيله، فرسول الله ﷺ، وهو أكمل الخلق، والمبعوث رحمة للعالمين قاد المسلمين إلى الجهاد سنوات طويلة، فمن دعته رحمته وشفقته وحرصه على المؤمنين، ورغبته في عدم إعناتهم إلى ترك الجهاد، فهو غير وارث له، بل هو خارج عن سننه وسيرته وهديه ﷺ.

- ومن الآيات كذلك التي وردت متحدثةً عن نعمة الله الكبرى متمثلةً في رسالته وبعثته قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. ﴾ .(٣) والأميين في هذه الآية هم العرب، لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون، وقد صح عنه أنه ﷺ قال: " **إنا أمة أميَّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين** " (٤).

(١) انظر: الرحيق المختوم – المباركفوري – ص٨٣ .
(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٣ص١٧٤٣ .
(٣) الجمعة ، (٣) .
(٤) صحيح مسلم –كتاب الصيام(١٣) – باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال(٢) – ص(٣٩١-٣٩٢)- رقم(١٩١٣).
صحيح البخاري-كتاب الصوم(٣٠) –باب قول النبي "لا نكتب ولا نحسب" (١٣) – ص(٣٦٣) – رقم(١٩١٣).

وأريد بذلك أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب، فالأمي نسبةً إلى الأم، وقيل: نسبة إلى أمة العرب، وقيل: نسبةً إلى أم القرى، والأول أكثر شهرةً واستفاضةً، واكتفى البعض بالقول أنه الذي لا يكتب، وقوله " رسولاً منهم "، أي: كائناً من جبلتهم، فمن تبعيضية، وهنا يتلو عليهم آياته مع كونه أميّاً مثلهم لم يعهد منه قراءةً وكتابةً، ويزكيهم كذلك صفةٌ لـــ " رسولاً " أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين مـــن خبائث العقائـــد، والأفعـــال، والأقـــوال، وتعليمهم الكتاب والحكمة مترتبةً في الوجود على التلاوة، وتعليمه ﷺ لهم الكتابة والحكمة مع كونه أميّاً، فيه دلالة على الإعجاز كونه أمي، ويستطيع أن يعلم مع ذلك كل هذه الأمة، كما قال البوصيري في ميميته:

كفاك بالعلم في الأمي معجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليتم (١).

حيث كانوا قبل ذلك في ضلال مبين من الشرك والوثنية وخبث الجاهلية (٢).

" وهذه الآية مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه سبحانه وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة له إليه. فبعث الله محمداً بشرع عظيم جمع الكمال والشمولية لجميع الخلق ، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم " (٣).

وهناك لطيفة في قوله تعالى: " ويعلمهم الكتاب والحكمة " وفي قوله: " يتلو عليهم " هذا يفيد أن تلاوة الآيات شيء، وتعليمها شيء آخر، وأن التزكية شيء زائد على مجرد التلاوة والتعليم، فالتلاوة قراءةٌ وعرض، والتعليم يراد به التفهيم والاستيعاب، لأجل التطبيق، والرسول ﷺ يتلو ويعلم ويزكي (٤).

وأقول: إن بعثة النبي ﷺ كانت بمثابة انتشال للأميين من أميتهم، لتصبح أمة العلم، وبانية الحضارة والأمجاد، بل إنهم ببعثته أصبحوا خير الأمم وأحسنها، لقد جاء محمد ﷺ ليزكيهم لتسمو نفوسهم، وليطهر ضمائرهم وسلوكهم، وجميع نواحي حياتهم، إنها التزكية التامة الشاملة في أبهى صورها. تزكيةً تسمو بالإنسان، ليحلق بروحه وقلبه وعقله، وجاء ليعلمهم الكتاب فيصبحوا أهل كتاب بعد أن كانت الجاهلية تحكم حياتهم، وليعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأشياء ويفهموا واقعهم ويصنعون مستقبلهم وفق هداية القرآن، ويقودون الأمم إلى كل خير عندما يتبعون هذا النبي والتعاليم التي جاء بها.

---

(١) من نونية البوصيري في مدح الرسول ﷺ - المسماة البردة – ص٢٤٧ .

(٢) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج١٠ص٩٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٨ص٧٤-٧٥ .

(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج١٠ص٥٩٠١ .

المطلب الثاني: دين الإسلام تمام النعمة.

الإسلام هو دين الله سبحانه وتعالى الذي ارتضاه لعباده، وهو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، فكلهم دعوا إلى هذا الدين الذي معناه توحيد الله وإفراده بالعبادة، وهو نعمة الله التي أتمها على هذه الأمة، حيث رضيه لها من بين سائر الأديان.

والإسلام هو الدستور الكامل، والمنهج الذي أراد إقامة حياة إنسانية رفيعة يتحرر فيها العقل والضمير، وتستقل فيها الإرادة والتفكير، فلا سلطان لأحد سوى سلطان الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

وإن آيات كثيرةٍ تحدثت عن هذه النعمة الكبرى، نعمة الإسلام والإيمان والهداية، حيث تطرق لها القرآن بمنتهى الوضوح والصراحة، بحيث تتجلى هذه النعمة بمجرد النظر في هذه الآيات، والتي منها قوله تعالى شأنه:﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ .(١)، وقد نقل أبو حيان عن جمعٍ من أهل العلم أن إكماله هو إظهاره، واستيعاب فرائضه العظيمة، وحلاله وحرامه. وقد أكمل الله عز وجل بهذا الإعلان الواضح، وهذا البيان الشافي للأمة كل ما تحتاج إليه من معرفة الحلال والحرام، وحدود الشريعة. وقيل بأن المراد: أنه كمل معظم الدين في ذلك اليوم حيث حج المسلمون وليس معهم مشرك، وقيل: إكماله هو عزه وظهوره على الشرك والكفر. وقيل: إكماله أنه لم يُنسخ بعد ذلك اليوم منه شيء (٢).

قلت: وعلى الرغم من نزول بعض القرآن بعد ذلك اليوم، والمقصود يوم عرفة على أرجح الأقوال، إلا أنه لم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم، وقد اتضحت الفرائض والحدود اتضاحاً جلياً، فلم تحتج إلى مزيد بيان، فلله وحده الحمد والمنة على ذلك.

وأما تمام النعمة فكان ذلك في ظهور الإسلام، وكمال الدين، وسعة الأحوال، وغير ذلك مما تضمنته هذه الملة الحنيفية، وهدم منار الجاهلية ، فتمت النعمة بالهداية إلى الإسلام، لأنه لا نعمة أتم منه (٣).

قال ابن كثير في هذه الآية: " هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبيٍ غير نبيهم صلوات الله عليه. فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال: " ورضيت لكم الإسلام " أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف الكتب، فقد أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً " (٤).

---

(١) المائدة ، (٣) .

(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص٤٤١ .

(٣) انظر: المرجع السابق .

(٤) تفسير القرآن العظيم – ج٣ص١٦ .

وفي هذه الآية خاطب الله عباده بالقول: أيها المؤمنون قد أكملت لكم فرائضي عليكم وحدودي، وأمري ونهيي، وحلالي وحرامي، وتنزيلي وبياني، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة بعد اليوم ولا نقص. ولم يعش رسول الله بعد هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة على الراجح (١).

قال صاحب التفسير المنير: " وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصاً قبل اليوم ثم أكمله، وإنما المراد أن الأحكام صارت غير قابلة للنسخ، وأصبحت مؤبدةً صالحةً لكل زمان ومكان. والمراد بالإكمال: إتمامه في نفسه وفي ظهوره، أما إتمامه في نفسه فباشتماله على أصول العقائد، وأسس التشريع، وقوانين الاجتهاد. وأما إتمامه في ظهوره: فبإعلاء كلمته، وتفوقه على كل الأديان، وتوافقه مع المصالح العامة، وانسجامه مع التطور، ووسطيته، وتوازن المصالح الخاصة والعامة فيه " (٢).

إنه الدين الذي أكمله الله لنا، وأتمه عقيدةً وشريعةً، والعقيدة فيه تلك الأصول الراسخة التي لا يعتريها تغيير أو تبديل، القائمة على الإيمان بالله وملائكته. والشريعة فيه هي كل ما ينتهجه المسلم ويسلكه ويقيمه كي يعتقد هذه العقيدة، ويدين الله بها، وإن أصول وقواعد العقيدة والشريعة قد اكتملت بتمام الوحي، الذي اكتمل به الدين، وتمت به النعمة (٣).

وإن هذا الإسلام يمثل هدايةً كاملةً للإنسان والناس، فإن الله عز وجل جعله كاملاً وشاملاً، بحيث لا توجد قضية من قضايا الوجود، إلا وقد بين حكمها جوازاً أو منعاً، إباحةً أو حرمةً، سواءً في ذلك شؤون العقيدة، أو العبادة، أو السياسة، أو الحرب، أو السلم، أو الاقتصاد، وإذا أرادت البشرية أن تستقر وتسعد فليس أمامها إلا الإسلام، وهي ليست مختارةً بينه وبين غيره لأن الله لا يقبل غيره (٤).

وكمال الشيء باستيفاء أجزائه، وقد استوفى دين الإسلام كل مكوناته في ذلك الوقت، وأتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج الذي أنزله ورضيه، وما دام سبحانه رضي الإسلام منهجاً، فلا يصح أن يرفع أحدٌ رأسه بعد ذلك ليقول: لنستدرك على الله ، لأن الله قال: " أكملت " فلا نقص ، وقال: " أتممت " فلا زيادة، وقال: " رضيت " فمن خالف ذلك فقد غلَّب رضاه على رضا ربه (٥).

جاء في الجواهر الحسان: " ورضيت لكم الإسلام، يحتمل أن يكون الرضى بمعنى الإرادة ، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه، لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال، والله قد أراد لنا الإسلام ورضيه لنا، وثمة أشياء يريد وقوعها ولا يرضاها " (٦).

---

(١) انظر: جامع البيان – الطبري – ج٤ص٤١٨ .
(٢) التفسير المنير – الزحيلي – ج٦ص٨٥-٨٦ .
(٣) انظر: معالم المنهج الإسلامي – محمد عمارة – ص٩٤ .
(٤) انظر: الإسلام – سعيد حوى – ص٨ .
(٥) تفسير الشعراوي – متولي الشعراوي – ج٥ص٢٩٢٥-٢٩٢٦ .
(٦) الجواهر الحسان – الثعالبي – ج١ص٤١٣ .

قال القرطبي: " ورضيت لكم الإسلام، أي أعلمتكم برضاي به لكم ديناً، فإنه لم يزل راضياً بالإسلام لنا ديناً. وقيل: المعنى ورضيت عنكم إذا انقدتم لي بالدين الذي شرعته لكم، ويحتمل أنه يريد: رضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم ديناً باقياً بكماله إلى آخر آية لا أنسخ منه شيئاً " (١).

إن إتمام نعمة الله على عباده المؤمنين بإكمال هذا الدين،هي النعمة التامة الكبرى، النعمة التي تمثل مولد الإنسان في الحقيقة، وتمثل نشأته ونضجه واكتماله، فالإنسان لا وجود له قبل أن يعرف ربه وخالقه كما يُعرِّفه هذا الدين له، ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية، ولم يذق ويلاتها، والجاهلية هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله، فالذي عرف ويلات الجاهلية، هو الذي يحس ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله، وعظيم منته في هذا الدين (٢).

- ومن الآيات كذلك التي وردت في نفس السياق حول نعمة الله في هذا الدين قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

لما أخبر سبحانه في الآية السابقة حكايةً عن أعداء الإسلام من مشركي العرب وغيرهم أنهم يحاولون إبطال أمر محمد ﷺ، وبيَّن تعالى أنه يأبى ذلك الإبطال، وأنه يتم أمره، بيَّن كيفية ذلك الإتمام ، فقال: " هو الذي أرسل.. الآية ". وقد حصلت النعمة وكملت المنة بمجيء رسالة الهدى والرحمة، المشتملة على كل خير، ومنفعةٍ، وصلاح في الدنيا والآخرة، وهذه الآية يستفاد منها صيرورة هذا الدين مستعلياً على سائر الأديان غالباً لها، قاهراً لمنكريها، وظهور الشيء على غيره قد يكون بالحجة، وقد يكون بالكثرة، وقد يكون بالغلبة والاستيلاء، وظهور هذا الدين بالحجة مقرر معلوم، فالواجب حمل المعنى على الظهور بالغلبة (٤).

وقد اختلف في الضمير هنا في قوله: " ليظهره " فقيل أنه عائدٌ على الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا وإن كان صحيحاً، إلا أن القول الآخر بأنه عائد على دين الله، وشرعه، ومنهجه أبرع من سابقه، وأليق بنظام الآية ومعنى السياق (٥).

وتخصيصه سبحانه في هذه الآية لــ " دين الحق " وهو دين الإسلام بالحديث على الرغم من دخوله في الهدى لبيان شرفه وتعظيمه، ولما له من مكانة عند الله سبحانه (٦).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ج٣ص٤٣٨ .

(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ص٨٤٣-٨٤٤ .

(٣) التوبة ، (٣٣) .

(٤) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٦ص٣٢-٣٣ .

(٥) انظر: الجواهر الحسان – الثعالبي – ج٢ص٤٧ .

(٦) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٥ص٢٨٩ .

وأما قوله تعالى: " على الدين كله " أي على سائر الأديان، والمقصود أن لا يعبد الله إلا بهذا الدين، وما من أهل دين إلا قهرهم المسلمون، وظهروا عليهم في بعض المواضع، وإن لم يكن ذلك في جميع المواضع، فقهر المسلمون اليهود، وغلبوا النصارى، وأطاحوا بالمجوس وعباد الأوثان، فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل، وكان ذلك معجزاً، لأنه إخبارٌ عن الغيب ، وقيل: إن ذلك الظهور سيحدث عند نزول عيسى عليه السلام، وخروج المهدي فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام في ذلك الحين - نسأل الله أن ندرك ذلك الزمان، وأن نكون من أنصار ذلك الإمام- وقيل: المراد ظهوره على الدين كله في جزيرة العرب، وقد حصل ذلك، فما بقي فيها أحدٌ من المشركين(١).

وأقول: إن الإسلام يملك أن يظهر على سائر الأديان، ويقتحم كل ميدان بقواه الذاتية، فإن في الإسلام خصائص تؤهله لهذا الظهور، ولهذه الغلبة، ويملك من القدرة على الإقناع لكل العقول ما لا يملكه غيره من الأديان، فلا عجب أن نرى آلافاً في كل عام يدخلون في الإسلام، وذلك ببساطة لأنه دين الفطرة، ولأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده وأتمه.

" لو أدرك الناس كافةً معنى الإسلام، وفقهوا كنه ما يرمي إليه، لما بقي على وجه الأرض من يدين بدينٍ آخر، لأنه مطلوب كل روح، ومرمى كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد، ومطمأن كل إحساس، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والإيمان. ولولا أن الإسلام دين ينطبق على كل قابليةٍ واستعداد، ويلائم كل عاطفةٍ وإحساس، لما كلف الخالق به عموم خلقه من إنس وجن " (٢).

فالإيمان بالخالق والدخول في دينه شيء فوق ما يتصور كثير من الناس، إنه ليس رأياً في شخص من الأشخاص، أو حكماً في قضيةٍ من القضايا، أو اعتناقاً لنظريةٍ فلسفية، إنه تعامل جاد وحقيقي بين طرفين أحدهما الحي القيوم، وعلاقة تشد المرء من أخفى أغواره، وأبرز أحواله إلى من نشأه من عدم، ورباه من ضياع، إنه نور الضمير المشع في ثناياه ، يعرف به الخير من الشر. من هنا ندرك أن فيصل التفرقة بين الإيمان الصحيح والإيمان المزيف، أن الأول يولد به المرء ولادةً جديدة، ويحيا به حياةً رشيدة، أما الآخر فلا يصنع شيئاً لصاحبه، ولا يعود عليه بفائدة (٣).

- ومن الآيات قوله تعالى:﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤).

---

(١) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٥ص٢٨٩-٢٩٠ .
(٢) الإسلام في عصر العلم – محمد وجدي – ص٤٩٩ .
(٣) انظر: هذا ديننا – محمد الغزالي – ص٦٥-٦٦ .
(٤) الحجرات ، (١٧) .

وهذه الآية نزلت في بني أسد، لتبطل ما أظهروه للنبي ﷺ مما اعتقدوا أن فيه منَّةً حينما أسلموا دون إكراه، والمنُّ: ذكر النعمة والإحسان ليراعيه المُحسَنُ إليه للذاكر. وقد يكون المنُّ صريحاً، وقد يكون بالتعريض، وقد كانت مقالة بني أسد مشتملةً على النوعين، لأنهم قالوا للنبي: لم نقاتلك كما قاتلك محارب وغطفان، وقالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ورغم زعمهم الإيمان إلا أن الله سماه إسلاماً، أي هذا الذي منُّوا به عليك إسلامٌ لا إيمان، وسماه الله إيماناً في نهاية الآية مجاراةً لزعمهم، أي لو فرض أنكم آمنتم كما تدعون فإن إيمانكم نعمة منَّ الله بها عليكم (١).

وقد زجرهم الحق سبحانه ونهاهم أن يعدُّوا إسلامهم منَّةً عليه، فإن الإسلام هو المنة العظمى التي لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: " بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان " أي هو الذي منَّ وتفضل وأنعم عليكم بإرشادكم إليه وإلى طريقه، سواءً وصلتم إليه أم لم تصلوا (٢).

قال سيد قطب: " لقد منوا بالإسلام، وزعموا الإيمان، فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام، وأن المنة لله عليهم لو صدقوا في دعواهم، وهذا الرد يتضمن حقيقةً ضخمةً يغفل عنها الكثيرون، إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبدٍ من عباده في الأرض، إنه أكبر من منَّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد، إنها المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقةً مميزة " (٣).

يقول السيد السابق: " إن الإنسان في هذا العصر. تهفو نفسه إلى دين موثوق بأصله من جهة، وقادر على أن يسمو به إلى الكمال المادي والروحي من جهة أخرى، ونحن نجزم في إيمان وثقة بأن الإسلام، والإسلام وحده هو الذي توفر فيه هذان العنصران، لأنه هو الدين الذي وضحت معالمه، وكرمت مبادئه، وثبتت مصادره، وحفظت من التغيير والتحريف. وأنه كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من ارتقاء وما يرجوه من كمالٍ ورفعةٍ " (٤).

وأقول: إن الله هو الهادي للإنسان، ومظهر هذه الهداية على الأرض دين الإسلام، الذي تبقى البشرية في ضلال إن لم تعتصم به، وحيثما كان الحق فهو الإسلام، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله، والله عز وجل قد أنزل هذا الإسلام كاملاً كما مر معنا، ووعدنا بظهوره، فمن أخذه كله فهو المسلم، ومن أخذ قسماً وترك قسماً فقد خلط بين الإسلام وغيره، إن الإسلام قويٌ بنفسه لأنه الحق، ولكنه في حاجة إلى رجال يوضِّحون حقائقه، ويضحُّون من أجله.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٢ص٢٦٩-٢٧٠ .
(٢) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١٣ص١٥٦ .
(٣) في ظلال القرآن – ج٦ص٣٣٥١ " بتصرف " .
(٤) إسلامنا – ص٨-٩ .

المطلب الثالث: نعمة إنزال القرآن الكريم.

من أعظم نعم الله علينا هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا ينطفئ نوره، ولا يخلق عن كثرة الرد، بل يظل جديداً، يزيده التكرار حلاوةً، ولا يزيده مرور الزمن إلا سطوعاً وثباتاً، قال في حقه مُنزله جل شأنه: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .. ﴾ (١).

وقال عز من قائل في موضع آخر يصف فيه كتابه العزيز، مذكراً فيه رسوله ﷺ بهذه النعمة: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن نعمة إنزال القرآن، وعن منته جل شأنه، وفضله على عباده في إنزال هذا الكتاب ، ولا يتسع المجال في هذا البحث المتواضع لتناول كل هذه الآيات، وإلا فإن الموضوع حريٌ به أن يكتب فيه بحث كامل أو بحوث، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (٣).
ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن الكلام السابق كان عما عوقب به بنو إسرائيل لكونهم لم يتبعوا كلام ربهم وحرفوا كتبه، فجاءت الإشارة إلى النعمة التي حصلت بإنزال هذا القرآن، فإذا تقررت النعمة وتقررت العقوبة، اتضح سبيل النجاة والفوز بالرضى من خلال الانتفاع بالنعمة التي أنزلت على المؤمنين ولم ينتفع بها من لم يؤمن (٤).

وقد جاءت هذه الآية تنفيساً عن المؤمنين، بعد القصص المخيفة التي تحدثت عن بني إسرائيل، وما أصابهم من العقوبة والبلاء، مما أثار في نفوس المسلمين الفزع أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأخبرهم المولى سبحانه بأن في القرآن ما يعصمهم من الوقوع مما وقع فيه أولئك، لأنه يهديهم للطريق التي هي أقوم، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة، لتطمئن نفوس المؤمنين وتهدأ أرواحهم (٥).

وقوله تعالى: " هذا القرآن " إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية، وبُينت الإشارة بالاسم الذي جاء بعدها، ليلفتنا إلى عظم شأن هذا القرآن وفضله (٦).

---

(١) الزمر ، (٢٣) .
(٢) الشورى ، (٥٢) .
(٣) الإسراء ، (٩) .
(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٦ص٣٠٤٨ .
(٥) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٤٠.
(٦) انظر: المصدر السابق- ج٧ص٤٠ .

وهذا القرآن الذي آتيناك إياه يا محمد يهدي الناس كافة للطريقة الأقوم، والأكثر سداداً وهي ملة الإسلام، وترك ذكرها هنا لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية التي هي من روادفها، وكلمة أقوم يدل على أن هذا الدين أقوم وأفضل من سائر الأديان، وهو يبشر المؤمنين بما في تضاعيفه من الشرائع والأحكام السامية، الموصلة إلى رضا الله سبحانه والجنة، والأجر الكبير بحسب الذات، وبحسب المضاعفة إلى عشرة أضعاف ويزيد (١).

قال الماوردي في قوله تعالى: " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم "، " فيها تأويلان:

أحدهما: شهادة أن لا إله إلا الله.

الثاني: ما تضمنه من الأوامر والنواهي التي هي أصوب من غيرها " (٢).

وهذه الآية بيان من الله لعباده، يخبرهم فيها بأن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدد من اهتدى به للسبيل التي هي أفضل من غيرها من السبل، وهو دين الله وصراطه المستقيم الذي يهدي أهله وأصحابه المهتدين إلى سواء السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به (٣).

وهذه الآية مزيةٌ للقرآن عن غيره، فهو يهدي للحالة التي هي أقوم الحالات، أو للملة التي هي أقوم، أو للطريقة التي هي أقوم في كل شيء، في العقائد، والأخلاق، والسلوك، والعبادات، والتشريع، وقد بينت الآيتان خاصية من أهم خصائص القرآن، وهي الهداية لأقوم وأحسن الطرق مع التبشير والإنذار، وهذا من مظاهر إعجازه، إذ تحدث عن كل شيء، فهدى فيه إلى أقوم ما يمكن أن يكون فيه بأسلوب التبشير والإنذار، فأي كتاب يمكن أن يكون كذلك لولا أنه من عند الله سبحانه وتعالى (٤).

ويشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، وتشمل الهداية كل منهج وكل طريق، وهو يهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، ويهدي للتي هي أقوم في العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، وفي العلاقات بين الناس أفراداً وجماعات، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويبشر المؤمنين، وينذر الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهذه قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له (٥).

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٧٩ .

(٢) النكت والعيون – ج٣ص٢٣٢ .

(٣) انظر: جامع البيان – الطبري – ج٨ص٤٣ .

(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٦ص٣٠٤٦ .

(٥) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٢١٥ .

ومن الآيات كذلك التي تحدثت عن نعمة الله على المؤمنين في إنزال هذا القرآن قوله تعالى شأنه:
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً .. ﴾ (١).
وقد استحق سبحانه الحمد والثناء إخباراً وإنشاءً، لأنه أنزل القرآن على النبي ﷺ وهو من أعظم نعمه تعالى على عباده المؤمنين، لأنه سبب نجاتهم في آخرتهم، وسبب فوزهم، وسعادتهم في الحياة العاجلة بطيبها ورغدها، ونعمةً على النبي ﷺ بأن جعله واسطة ذلك ومبلغه ومُبَينه، وذكره عليه الصلاة والسلام بوصف العبودية لله، تقريب لمنزلته، وتنويه بما في إنزال الكتاب عليه من رفعةٍ لقدره (٢).

" الحمد لله "، الحمد: الوصف بالجميل ثابت لله تعالى، وهو تعليم للعباد كيف يثنون على الله ويحمدونه على أجزل نعمائه، وهي ما أنزله على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب رشادهم وفوزهم.
" لم يجعل له عوجاً " لم يجعل فيه شيء من العوج، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه.
" قيماً "، مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف منعاً للمشقة، ولا تفريط فيه بإهمال ما يُحتاج إليه، وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة التأكيد (٣).

وقد بدأت السورة بالثناء على الله بما هو أهله، ثم وصفت الكتاب ببعض أوصافه وهي الاستقامة والهيمنة على ما سواه وانعدام العوج في معانيه وأحكامه وتشريعاته، وعللت حكمة إنزاله وهي التبشير والإنذار، للمؤمنين في الأولى، وللكافرين في الثانية (٤).

" والمقصود بالعبد هنا محمد ﷺ، وتمدح بإنزاله لأنه أنعم عليه خصوصاً، وعلى الخلق عموماً، وهناك ثلاث تأويلات في قوله تعالى: " قيماً ":-
أحدهما: أنه المستقيم المعتدل، وهو قول ابن عباس.
الثاني: أنه قيم على سائر الكتب التي أنزلها الله تعالى، يصدقها وينفي الباطل عنها.
الثالث: أنه المعتمد عليه، والمرجوع إليه، مثل القيم على الدار الذي يُرجع إليه في أمرها " (٥).

و " لم يجعل له عوجاً " معترضة بين الكتاب وبين الحال منه، وهو قيماً، والواو اعتراضية، ويجوز كون الجملة حالاً، والواو حالية، والمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفة الصواب (٦).

---

(١) الكهف ، (١،٢) .
(٢) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢٤٦-٢٤٧ .
(٣) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٥ص٢٠٢ .
(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٦ص٣١٥٣ .
(٥) النكت والعيون – الماوردي – ج٣ص٢٨٣-٢٨٤ . " بتصرف "
(٦) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢٤٧ .

والله سبحانه يمدح نفسه عند فواتح الأمور وعند خواتمها، فهو المحمود سبحانه على كل حال، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم، فإنه أعظم نعمة أنعمها على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وهدى به عباده إلى صراطٍ مستقيم، وقد جعله بيناً واضحاً جلياً، سهلاً لمن أراد أن يَّدبر، يسيراً لمن أراد أن ينظر ويعتبر، للمؤمنين مبشراً، وللكافرين منذراً (١).

وقد وصف صاحب إرشاد العقل السليم القرآن الكريم وصفاً جميلاً حسناً، أنقله كما هو، قال: " الكتاب: أي الكتاب الكامل، الغني عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن جميع المنزل حينئذٍ. وفي وصفه تعالى بالموصول اشعارٌ بعلية ما في حيز الصلة، لاستحقاق الحمد، وإيذان بعظم شأن التنزيل الجليل، كيف لا؟! وعليه يدور فلك سعادة الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد مضافاً إلى ضمير الجلالة، تنبيهاً على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة، وتشريف له أي تشريف " (٢).

ووجه التعبير بمادة الإنزال، هو التنويه لشرف ذلك الكتاب، وعلوه، وفضله، ليحصل الاهتمام به والعناية بخطابه، والإلتفات لتوجيهه وإرشاده، وكذلك الإشارة إلى علو صاحب هذا الكتاب المنزل علواً كبيراً (٣).

ومن الآيات التي جاءت متحدثةً عن نعمة الله في إنزال الكتاب، وفي كونه متفضلاً على عباده بإنزاله عليهم قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ (٤).

لما ذكر تبارك وتعالى وجوب مبايعة المؤمنين لرسوله ﷺ، وأنهم عند كونهم معه على أمر جامع لا يجوز لهم تركه دون إذنه، وحذر من يخالفه في ذلك، فكان ذلك غايةً في التحذير والإنذار، ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى منزه في صفاته عن النقائص، يملك الخير الكثير، ومن خيره ونعمته على عباده أنه نزّل الفرقان على عبده ورسوله لينذرهم، وليبين لهم ما يتقون. وتبارك: تمجد، وقيل: تعظم، وقيل: تعالى وارتفع، وقيل هو من البركة، وهو التزايد في الخير من قبله، فالمعنى: زاد خيره وعطاؤه، وكثر وتعاظم (٥).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٥ص٨٢ .
(٢) إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٣ص٣٥٨ .
(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن – الزرقاني – ج١ص٣٠ .
(٤) الفرقان ، (١) .
(٥) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٦ص٤٤٠ .

وتبارك في حقيقتها كلمة تعظيم، ولا تستعمل هذه الكلمة إلا لله وحده، والبركة: النماء والزيادة، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان: مصدر فرق بين الشيئين، وسمي به القرآن لفرقه بين الحق والباطل، والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور (١).

والاسم الموصول الذي، هو كناية عن تعظيم شأن الفرقان، وبركته على الناس، وخصوصاً المؤمنين منهم، " ليكون للعالمين " أي للثقلين نذيراً، فتلك منَّةٌ عظيمة، توجب الثناء على الله، وهو أيضاً كنايةٌ عن تعظيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذه السورة بدأت بتمجيد الله تعالى، وإنشاء الثناء عليه، وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن، وجلال منزلته ومنزّله جل شأنه، وما فيه من الهدى والإعجاز، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه، وإرشاده لهم، ليجتنبوا المهالك، والافتتاح هنا بتبارك بديعٌ لندرته في كلام العرب، ولأنه مما تفرد به القرآن الكريم في أسلوبه البلاغي الرائع عن سائر الكتب الأخرى (٢).

وأقول: حسبنا أن نعلم أن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى تكلم به حقيقةً، وأوحاه إلى خير خلقه، وأكرم رسله محمد ﷺ، وأن الوساطة كان أمين السماء وقائد الملائكة جبريل عليه السلام، وأن مكان نزوله في خير بقاع الأرض في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأن زمن نزوله أو بداية زمن نزوله على أقل تقدير كان في خير الشهور شهر رمضان، وفي أفضل ليلة في العام عند الله في ليلة القدر، ومن هذا كله ندرك كبر حجم وعِظم هذه النعمة، نعمة نزول القرآن على قلب رسول الله ﷺ، ليكون للعالمين، شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

---

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٥ .

(٢) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٩ص٣١٤-٣١٧ .

الفصل الثاني

من نعم الله على الإنسان

وفيه ثلاثة مباحث: -

المبحث الأول: نعم كونية مسخرة للإنسان .

المبحث الثاني: نعم في الذات الإنسانية .

المبحث الثالث: نعم خاصة .

المبحث الأول: نعم كونية مسخرة للإنسان .

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: نعمة الله في الأرض وتيسير الحياة عليها .

المطلب الثاني: نعمة الله في خلق الرواسي .

المطلب الثالث: نعمة الماء والبحار .

المطلب الرابع: نعمة تسخير الأنعام .

المطلب الخامس: نعمة النبات والثمار .

المطلب السادس: تسخير الشمس والقمر .

المطلب السابع: تسخير الليل والنهار.

المطلب الثامن: تسخير النجوم.

نعم الله على الإنسان

المقدمة:

سبق القول بأن نعم الله سبحانه لا يعدها عادٌ، ولا يحصيها حاصٍ، مهما حاول جهده، ومهما أوتي من ذكاء وفطنة، ولو واصل في سبيل ذلك الليل بالنهار، واستعان بأهل الخبرة والحساب، فإنه سيقف بعد ذلك عند الحقيقة الساطعة، والمعنى الواضح المؤكد في قوله تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا...﴾ (١)، إلا أن القرآن الكريم مع ذلك كله أشار لبعض النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وسخرها له في الآفاق الكونية والأنفس، والتي منها ما هو في ذات الإنسان وكيانه، ومنها ما يعد خاصاً لا يمنحه الله لكل مخلوق، ومنها ما هو مسخر لمنفعة الإنسان.

وقد صرح القرآن الكريم بشكل واضح لا يقبل التأويل، بأن السموات والأرض وما فيهما قد سخر لهذا المخلوق الذي كرمه الله على سائر مخلوقاته، والذي أسجد له ملائكته وحملة عرشه، وذلك حتى يقوم بواجبه في الخلافة على هذه الأرض على أكمل وجه، ووفق تعليمات الخالق المنعم الذي وهبه كل ذلك. قال جل شأنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً... ﴾ (٢).
وإذا لم يكن بالإمكان حصر تلك النعم سواءً التي في السموات أو في الأرض، أو في ذات الإنسان، فإننا نكتفي في هذا الفصل ببعض ما أشار إليه القرآن من هذه النعم المسخرة للإنتفاع والفائدة.

المبحث الأول: نعم كونية مسخرةٌ للإنسان.

إن السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات عظيمة تمثل في مجموعها نعماً كبيرة سخرها الله لفائدة الإنسان، ليستقر على هذه الأرض، وليستطيع مباشرة مهامه في الخلافة، والعمارة، والعبادة، ولذلك حباه الله بتلك النعم، ثم كلفه بالقيام بوظيفته، فجاء إلى كونٍ معدٍ له سلفاً، ومسخر لمنفعته.

المطلب الأول: نعمة الله في الأرض وتيسير الحياة عليها.

إن من أعظم نعم الله على العباد أن خلق لهم هذه الأرض، ويسر لهم الحياة عليها، بأن جعلها متناسبة مع عيشهم، ومذللةً لهم، ومهيأةً لاستقبالهم، ومستقرةً بهم، ليتمكنوا من العيش عليها، والانتفاع بما فيها، وإن السماء والأرض آيتان دالتان على قدرته تعالى، وعنايته بهذا الإنسان، ويتضح ذلك مما يلي:
أولاً: خلق الأرض ليس عبثاً:
بين تبارك وتعالى أن خلق السماء والأرض لم يكن عبثاً، بل خلقهما لحكمةٍ يريدها تبارك وتعالى، فقال عز من قائل في كتابه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ (٣).

---

(١) النحل ، (١٨) .
(٢) الجاثية ، (١٣) .
(٣) الأنبياء ، (١٦) .

وقد ذكر القرآن الكريم أن الأرض خلقت، وجعلت بمواصفات متعددة تنم عن العناية التي أحيط بها هذا الإنسان. ومن هذه الصفات أن الأرض مهاداً، قراراً، ذلولاً، بساطاً، فراشاً للإنسان.

ثانياً: جعل الله الأرض فراشاً:

- ومن الآيات التي تحدثت عن خلق الأرض متضمنةً إحدى الصفات التي ذكرناها، قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً .. ﴾ (١)، وهذه الآية جاءت في سياق تعداد نعم الله على الإنسان، حيث جعل لهم سبحانه الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقررةً موطأةً مثبتةً بالرواسي الشامخات (٢).

وإن من أغراض خلقها على هذا الشكل، أن تكون مُستَقَراً، ومهاداً للخلق لينتفعوا بخيراتها، ويستخرجوا كنوزها ومعادنها، ويستفيدوا من نباتها وحبها، من أجل ذلك جعلها الله صالحةً للافتراش عليها، والإقامة فيها (٣).

ولما أمر الله سبحانه عباده بعبادته لأنه خالقهم من العدم، أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه وحده، وهي نعمةُ المستمرة عليهم، والتي تحمل في طياتها دلائل قدرته، فإنه مكَّن لهم سُبل العيش، وأولها المكان الصالح للاستقرار والاضطجاع عليها، وهو أخص أحوال الاستقرار (٤).

فالحق تبارك وتعالى منح عباده ما يمكنَّهم من العيش بسهولة ويُسر، فتَحتَهم أرضاً تقلهم، وهم ينظرون إلى هذه الأرض اليابسة، لكن ما أسرع أن تُكسى جلابيب سندسية، ثم هي تمدهم بما يأكلون، وتعطيهم ما به يشفون، فالأرض مهادٌ لهم عليها ينامون، وجمالٌ إليه ينظرون، وغذاء منها يطعمون، وغير ذلك. لعلهم يشكرون (٥).

وكلمة " فراشاً " تُوحي بأنه سبحانه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر، كما تفرش على الأرض شيئاً، تجلس عليه أو تنام عليه، فيكون فراشاً يريحك، ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل، وهي تصلح لحياتنا جميعاً، وهي كانت وستظل فراشاً للإنسان إلى يوم القيامة (٦).

" هو تعبير بشيء باليسر في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً، وملجأ واقياً كالفراش، والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليُمهِّد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة " (٧).

---

(١) البقرة ، (٢٢) .
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج١ص٧٦ .
(٣) انظر: تفسير المراغي – المراغي – ج١ص٦٢-٦٣ .
(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١ص٣٣١ .
(٥) انظر: الجواهر في تفسير القرآن – طنطاوي جوهري – ج١ص٣٣ .
(٦) انظر: تفسير الشعراوي – الشعراوي – ج١ص١٨٦ .
(٧) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج١ص٤٧ .

ثالثاً: جعل الله الأرض مهداً وجعل فيها سبلاً:

ومن صفات الأرض، جعلها الله ممهدةً للإنسان،﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً..﴾ (١).
قال صاحب التحرير والتنوير: " المهد هو اسم لما يمهد للصبي، أي يوضع عليه ويحمل فيه، والمعنى أنه جعل الأرض ممهودةً مسهلةً للسير، والجلوس، والاضطجاع، بحيث لا نتوء فيها، إلا نادراً يمكن تجنبه، وقوله سلك لكم فيها سبلاً، فهو سلك المتعدي، أي أسلك فيها سبلاً، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض، أي داخلةً فيها، ومتخللة. وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض. والسبل: كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول، أو من أثر فعل الناس" (٢).

وكلمة مهداً مفرد وجمعها مهاد، ومعنى ذلك أنه تعالى مكنهم من التصرف، والعيش عليها في جميع أحوالهم ومنافعهم، ونهج لهم فيها طرقاً لمقاصدهم، حتى لا تتعذر عليهم مصالحهم (٣).

قال المراغي في تفسيره: " الذي جعل لكم الأرض مهداً " أي ربي الذي لا يضل ولا ينسى وهو الذي جعل لكم الأرض كالمهاد، تتمهدونها وتستقرون عليها، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها.
" وسلك لكم فيها سبلاً " أي وجعل لكم فيها طرقاً بين الجبال والأودية تمشون في مناكبها، وتسلكونها من قُطر إلى قُطر، لتقضوا مآربكم، وتنتفعوا بمرافقها " (٤).

رابعاً: جعل الله الأرض ذلولاً:

وفي سياق النعمة جعل الله الأرض ذلولاً، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ (٥).
وقد امتن الله على عباده بتذليل الأرض لهم، وجعلها سهلةً لمعيشتهم، مُيسرةً لقضاء حوائجهم، والذلول: فعول للمبالغة، يقال دابة ذلول بينة الذل، والمراد بالمشي في مناكبها، التصرف فيها والتكسب، ومناكبها قيل: أطرافها وهي الجبال، وقيل: جوانبها، وقيل: طرقها وفجاجها (٦).

قال صاحب الظلال: " إن هذا الوصف: " ذلولاً ".. الذي يطلق عادةً على الدابة، مقصود في إطلاقه على الأرض، فالأرض هذه التي نراها ثابتةً مستقرةً ساكنةً، هي دابةٌ متحركةٌ بل رامحةٌ راكضةٌ مهطعة! وهي في الوقت ذاته ذلول " مطيعة " لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضه، أو تهزه، أو ترهقه كالدابة غير الذلول، ثم هي دابةٌ حلوب مثلما هي ذلول " (٧).

---

(١) طه ، (٥٢) .
(٢) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٨ص٢٣٦-٢٣٧ .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٦ص٢٣٤ .
(٤) انظر: تفسير المراغي – المراغي - ج٦ص١١٩.
(٥) الملك ، (١٥) .
(٦) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٨ص٢٩٥ .
(٧) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٦٣٧ .

خامساً: جعل الله الأرض بساطاً:

- ومن تلك الآيات التي وصفت الأرض في ذات السياق، سياق النعمة والمنّة على العباد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ (١).

قال أبو السعود: " تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم، وتوسيط " لكم " بين الجعل ومفعوله مع أن حقه التأخير... للاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم، والتشويق إلى المؤخر، فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم تبقى مترقبةً له فيتمكن عند وروده لها أفضل تمكن، " لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً " أي طرقاً واسعةً جمع فج، وهو الطريق الواسع، وقيل هو المسلك بين الجبلين " (٢).

أقول: من رحمة الله سبحانه أن جعل الأرض مبسوطةً وممهدةً ومفروشةً لعباده ليستقروا عليها، فلا تعقيد ولا صعوبة في العيش عليها، فلم يجعلها كلها جبالاً ولا كلها بحاراً، بل جعل منها السهل والجبل والبحر والوادي، ليتمكن الناس من قضاء مصالحهم عليها، ومن رحمته سبحانه أن جعل للإنسان في هذه الأرض سبلاً يسلكها ليهتدي بها الإنسان إلى ما يريد، لأنه بالسير يكسب الإنسان رزقه، وبالسير ينجو من الأماكن الخطرة، وبالسير تتعارف الأمم والشعوب، وبالسير يتمتع الإنسان بالمناظر المختلفة، لذلك خلق لنا أقداماً نسير عليها، وجعل الأرض ذلولاً ميسرةً لسيرنا عليها، وأمرنا أن نسير في أرجاء الأرض فله الحمد والمنة على ذلك.

المطلب الثاني: نعمة الله في خلق الرواسي:

إن خلق الجبال يمثل نعمةً عظيمةً من نعم الله تعالى على الإنسان، لما لها من فائدة كبيرة تؤدي إلى استقرار الحياة، وانتظامها فوق الأرض، ولولا نعمة الله في خلق هذه الجبال، لاضطربت هذه الأرض، واهتزت، وتحركت حركة غريبةً، يصعب معها على الإنسان أن يعيش، ولانتهت حياة البشر على الأرض منذ مدة طويلة، لكنَّ لطف الله، ورحمته بهم منع ذلك بسبب وجود الجبال، التي تعمل على تثبيت الكرة الأرضية.

وهناك آيات كثيرة تحدثت عن نعمة الله في خلق الجبال منها قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴾ (٣) فالقرآن الكريم يذكر في هذه الآية وغيرها (٤) أن وظيفة الجبال تثبيت الأرض حتى لا تميد بالبشر. ومعنى تميد: أي تهتز وتضطرب.

قال الراغب: " الميد: اضطراب الشيء العظيم، كاضطراب الأرض " (٥).

---

(١) نوح ، (١٩ ، ٢٠) .

(٢) إرشاد العقل السليم – ج٥ص٧٧٤ .

(٣) النحل ، (١٥)

(٤) الأنبياء ، (٣١) . والرعد ، (٣) ، والحجر ، (١٩) .

(٥) المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٤٧٧ .

قال صاحب المحرر الوجيز: " قال المتأولون: " ألقى " بمعنى خلق وجعل. وهي عندي أخص من خلق وجعل، وذلك أن " ألقى " تقتضي أن الله أحدث الجبال ليس من الأرض، وجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرةٍ على ظهرها أحداً، فأصبحت ضحى وفيها رواسيها.

و " الرواسي " الثوابت ، رسا الشيء يرسو إذا ثبت " (١).

وإن هذه الجبال تشبه الأوتاد، التي تُضرب لحفظ الخيمة من الحركة، والاضطراب مع الريح. فكأن تخليق هذه الجبال على وجه الأرض يشبه الأوتاد المغروزة في الكرة، المانعة لها من الحركة المضطربة، بحيث تمنع الأرض من الميد، والميل، والاهتزاز، بمعنى أنها أصبحت مستقرة بالخلق، صالحةً لهم (٢).

" وألقى في الأرض رواسي أي: جبالاً ثوابت"أن تميد بكم" كراهة أن تميل بكم وتضطرب.. فإن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال، كانت كرةً خفيفةً، وكان من حقها أن تتحرك بأدنى سبب مُحرك، فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها، وتوجهت الجبال بثقلها فصارت كالأوتاد،- والله أعلم– " (٣).

ومن باب الفائدة فإن بعض أهل العلم قالوا: إن في هذه الآية دليل ساطع، وبرهان ناصع، على أهمية الأخذ بالأسباب، لأن الله سبحانه كان وما زال قادراً على تسكين الأرض دون الجبال، ولكنه جلت حكمته لم يفعل، فكان هذا دليلاً على وجوب الأخذ بالأسباب والاهتمام بها (٤).

قال صاحب الجواهر: " وجعل سبحانه الجبال كالأوتاد، تثبيتاً لها، فهي في الأرض كالعظام لجسم الإنسان، وهي التي تحفظ الماء في باطنها، وتخزنه فيجري ينابيع، وهي التي تصد الرياح الحاملات للسحاب فتحجزه، فيمطر على تلك البطاح التي أمام الجبال " (٥).

ويتضح مما سبق: أن الله جعل للأرض أوتاداً لها، أرساها بها، وثبتها وقررها حتى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها.

---

(١) المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ص٣٨٤ .

(٢) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٢٠ص٩ .

(٣) المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري - ج٣ص١١١ .

(٤) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص١٠٣ .

(٥) الجواهر في تفسير القرآن – طنطاوي جوهري – ج١٣ص٨ .

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: " تأكد الباحثون عام ١٩٥٦م أن تحت كل جبل عِرق لهذا الجبل، وامتداد له قد غرس في الطبقة العجينية أو اللزجة التي تحت طبقة الصخور، وقد جعل الله هذا الامتداد تحت كل جبل ماسكاً للقارات من أن تطوف أثناء دوران الأرض، فهذه الأوتاد المغروسة في الطبقة اللزجة التي تحت القارات تثبت القارات كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس في التراب " (١).

" وجَعْلُ الجبال أوتاداً.. يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها. أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها، وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال، وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات.. وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد. وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن، ثم عرف البشر طرفاً منها بعد مئات السنين! " (٢).

وهناك فائدة أخرى في الجبال ذكرها القرآن الكريم، وهي اتخاذ الجبال بيوتاً ومأوى، قال تعالى: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً.. ﴾ (٣) وأكناناً المراد بها مواضع للسكن تحمي الإنسان من الأخطار، ومن العوامل الجوية من شمس ومطر وغير ذلك.
قال صاحب الأساس في التفسير: " الأكنان جمع كن: وهو ما سترك من كهف وغار " (٤).

وأيضاً لعل المراد بها إضافة لما ذُكر، الحصون، والمعاقل، والملاجيء. لأن النعمة ظاهرةٌ فيها وخصوصاً في الحرب.
ووظيفة الأكنان هي الحفظ من المطر، والريح، وحر الشمس، ولقد عدَّ سبحانه عليهم هذه النعمة. وأمثالها بحسب أحوال القوم، فهي أشياء مباشرةً لحياتهم، لأن بلادهم من الحرارة وشدة القيظ، بحيث يكون للظل عندهم غناءٌ عظيم، ونفعٌ ظاهر (٥).

وأقول: هذه البيوت التي نسكنها جعلها تبارك وتعالى سكناً للإنسان يأوي إليها ليستريح من عناء العيش وكدح النهار، فجعل الله تلك البيوت محل راحة وهدوء، نحتمي بها من حر الصيف وبرد الشتاء، وهجمات الأعداء والوحوش، وهبوب الرياح، وغيرها من الأخطار، ولو شاء الله ما جعل لنا في بيوتنا سكناً، لأنه قادر على إرسال الزلازل والعواصف التي تجعلنا نفر من تلك البيوت، ونهرع إلى الجبال لنحتمي بها، ونجد فيها ملجأً ليحمينا، فنعرف قدر تلك النعمة.

---

(١) كتاب التوحيد – الزنداني – ج٣ص٧١ .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٨٠٤ .
(٣) النحل ، (٨١) .
(٤) الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٦ص٢٩٦٢ .
(٥) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ص٤١٢ .

المطلب الثالث: نعمة الماء والبحار.

الماء نعمة من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان، فيه يكمن سر الحياة، ولولا وجود الماء لما استطاع إنسان، ولا حيوان، ولا نبات أن يعيش على سطح هذه الأرض، والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة حيث قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .(١)

ولو فكر الإنسان في أمر هذه النعمة لوجد فيها سراً عظيماً يدل على عناية الله تعالى بالإنسان، وإذا فقد الإنسان الماء شارف على الهلاك، ولا ينقذه من ذلك إلا شربة ماء، وقد امتن الله علينا ورحمنا بأن أسقانا هذا الماء من غير حولٍ لنا ولا قوة ، وإذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً ﴾ .(٢) وكذلك قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٣) ففي هذه الآية نجد عظمة امتنان الله على عباده بأن سقاهم الماء، ثم بين لهم عجزهم وقلة حيلتهم عندما أخبرهم بأنهم لا يستطيعون خزن الماء لولا تقدير الله ورحمته بهم وعنايته بخلقه.

قال ابن كثير: " أسقيناكموه، أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه.. وقوله: " وما أنتم له بخازنين " يحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله مَعيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء الله تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم " (٤).

والمقصود بقوله تعالى: " فأسقيناكموه " أي جعلناه سقيا لكم، وعندما يقال سقى القوم فلا يراد به ما يروي عطشهم، ولكن يراد به ما يخصب أرضهم، وينبت زرعهم (٥).

وأما آية المرسلات التي امتن الله بها أن سقى عباده ماءً فراتاً، فالماء الفرات هو: الماء العذب، والعذب هو الذي تستسيغه النفس، ولا يوجد به كدرٌ أو تنغيص، فهو خالصٌ طيب (٦).

ثم تأمل قوله سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧).

جاء في روح المعاني: أن الماء العذب هو الذي يرتوي منه الإنسان ليطفيء ظمأه، أما غير العذب أي المالح فلا يرتوي منه الإنسان، بل يزيد عطشه، فمن رحمة الله أن جعل الماء لنا عذباً، ولم يجعله مالحاً.

---

(١) الأنبياء ، (٣٠) .
(٢) المرسلات ، (٢٧) .
(٣) الحجر ، (٢٢) .
(٤) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٤ص٣٠٤ .
(٥) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٩ص١٤٠-١٤١ .
(٦) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص٣٧٤ .
(٧) الواقعة ، (٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) .

فلو شاء الله سبحانه لجعل الماء مالحاً شديد الملوحة لا يمكن لأحد أن يشربه، والأجاج: كل ما يلذع الفم، ولا يمكن شربه، ولا تستسيغه النفس، ويشمل المالح والمر والحار (١).

يقول سيد قطب: " وهذا الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، ما دور الإنسان فيه؟ دوره أن يشربه، أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه، فهو الله تعالى، وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان... ولو شاء لجعله مالحاً لا يستساغ، ولا تقام به حياة، فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان " (٢).

وإذا كانت رحمة الله بعباده أن وهبهم نعمة الماء، فماذا يكون حال جسم الإنسان إذا فقد الماء؟ يقول بعض الباحثين: " إن الإنسان إذا فقد من مائه نحواً من ١% من وزن جسمه أحس بالظمأ، وإذا ارتفع الفقد إلى ٥% جف حلقه ولسانه، ويبس جلده، واهتلس عقله، وأصيب بانهيار تام، وإذا تجاوز الفقد ١٠% فإنه سوف يشرف على الموت والهلاك، ولا ينقذه إلا شربة ماء " (٣).
فتبارك من جعل لنا الماء عذباً فراتاً سائغاً برحمته، ولم يجعله مالحاً أجاجاً بذنوبنا وزلاتنا.

وإذا كانت نعمة الماء الذي هيأه الله للإنسان ليشربه من أعظم النعم وأكبر المنافع، إلا أن الماء يعود بالفائدة على الإنسان في أمر طعامه، فبالماء ينبت الله من الأرض، وينشيء الزرع والثمار التي يعيش عليها الإنسان، فتأمل قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤).

والمعنى في هذه الآية أن الله تعالى أنزل مطراً يشربه الناس، والدواب، وسائر المخلوقات، ومنه ينبت الشجر والثمر، وتخضر الأرض، ويرعى فيه الناس ماشيتهم فتأكل العشب الذي نبت بالماء (٥).

فالذي خلق السموات والأرض والإنسان والأنعام والدواب، هو الذي هيأ ظروف الحياة للإنسان بإنزال المطر من السماء فجعله عذباً سائغاً، فأنبت به شجراً لنرعى فيه أنعامنا، وأنبت به لنا زرعاً وزيتوناً ونخيلاً وأعناباً، ورزقنا ما تقوم به حياتنا من الأطعمة، والأشربة المختلفة (٦).

(١) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج٩ص١٤٩ .
(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٤٦٩ " .
(٣) تأملات في العلم والإيمان – نجيب غالب وأحمد سليمان – ص١٧٩ .
(٤) النحل ، (١٠ ، ١١) .
(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٠٨ .
(٦) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص٩٨ .

وإن هناك سنناً كونية يجب أن نعلمها، وننتبه إليها، ونتأملها في قضية الماء منها:

١- أن الله جعل حرارة الشمس والرياح سبباً في رفع بخار الماء فوق مستوى الجبال حتى لا تعوق الجبال انتقال الماء عند تبخره من البحار، ورفع الله ماء البحر بخاراً، ولم يرفع معه الملح لكي لا يلحق الضرر بالإنسان.

٢- هيأ الله الأسباب ليتوقف ارتفاع بخار الماء عند حدٍ معين، عن طريق البرودة التي في الجو، حتى يتوقف الماء عن الارتفاع إلى أفاق السماء.

٣- نقل هذا الماء من فوق البحار إلى أعماق القارات بواسطة الرياح، وانظر إلى سرعة الرياح فهي سرعة مناسبة لنقل السحاب، وليست مُدمرةً ومخربة.

٤- هناك سنة إلهية تعمل على إنزال المطر قطرات صغيرةً لا سيولاً متدفقة تدمر كل شيء.

٥- وهناك أيضاً سُنة أخرى، حيث يجري الماء أنهاراً وسيولاً تنتشر في الأرض كانتشار عروق الدماء في جسم الإنسان، ليتوزع توزيعاً جيداً، فيصل لكل إنسان مهما بعُد مكان إقامته.

٦- وهناك سُنة تعمل على امتصاص أغلب الماء، لتحفظه عن التعفن، ولتصبح الأرض صالحةً للسير عليها بدون عائق من الماء.

٧- وهناك سُنةٌ ربانية تعمل على حفظ الماء قريباً من سطح الأرض، فيُنتَفع به في شكل عيون وآبار بواسطة صحن من الحجر، يحفظ لنا المياه الجوفية حتى لا تغور في الأرض (١).

ومن نعمة الله على الإنسان أن سخر لنا البحر لنستفيد منه، والبحر خلق عظيم بهوله، بحيث يقف الإنسان مذهولاً عاجزاً أمام هذا الخلق بأمواجه العاتية، وكثرة مياهه، وتنوع المخلوقات التي تعيش بداخله، بحيث لا يملك الإنسان إذا رآه إلا أن يسبح بحمد خالقه، ويمجده ويعظمه، ويزداد معرفةً بربه ومولاه وبقدرته المطلقة على الخلق والإبداع، ولو تأملنا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

فالله سبحانه يمتن على عباده في هذه الآية بتذليله البحر لهم، وتيسيره للركوب والإبحار، وإباحته السمك، وسائر المخلوقات فيه حيّة وميتة، وخلقه اللآليء والجواهر النفيسة في باطنه حيث يوفر لهم الحُليَّ التي يلبسونها، وكذا الاستفادة من المرجان الذي في قيعانه، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٣)، وكذلك سخر البحر يحمل السفن التي تمخر عبابه، لتصل من بلد إلى بلد آخر، ثم لتطلبوا فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، وتشكروه على نعمة تسخير البحر (٤).

---

(١) انظر: التوحيد – عبد المجيد الزنداني – ج١ص٣١-٣٧ .
(٢) النحل ، (١٤) .
(٣) الرحمن ، (٢٢) .
(٤) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص١٠٠ .

قال المنصوري في تفسير هذه الآية " وهو الذي سخر البحر "، أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب، والغوص، وصيد الأسماك، " لتأكلوا منه لحماً طرياً " أي غضاً وهو السمك، ووصفه بالطراوة، للإشعار بلطافته، والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله، كيلا يتسارع إليه الفساد، وللإيذان بكمال نعمته وفضله تعالى، خلقه الله عذباً طرياً في ماءٍ زعاف، حيث أنه حدث لا بحسب طبيعته بل بقدرة الله وحكمته... " وتستخرجوا منه حليةً " كاللؤلؤ والمرجان، " تلبسونها " عبر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم، لكون لبسهن لأجلهم، " وترى الفلك " أي السفن " مواخر فيه " أي جواري فيه، مقبلةً ومدبرة ومعترضةً، بريحٍ واحدة تشقه في سيرها، من المخر وهو شق الماء... لتطلبوا من سعة رزقه، بركوبها للتجارة " (١).

يقول سيد قطب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ...﴾ (٢).

"والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.."،وأشهد بأني أحسست ما في هذه اللفتة من تفضل وإنعام عندما أحسست بوجود تلك النقطة الصغيرة في خضم المحيط تحملنا وتجري بنا، والموج المتلاطم، والزرقة المطلقة من حولنا، والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك، ولا شيء إلا قدرة الله، وإلا عنايته، وإلا قانون الكون الذي جعله الله يحمل تلك النقطة الصغيرة في هدير الأمواج وخضمها المرعب "(٣).

وأقول: الماء هو أساس الحياة التي نعرفها، فلا حياة بلا ماء وإن من بين الكائنات الحية من يحيا دون هواء لكن ليس بينها كائن يحيا دون ماء، والماء هو نهر الحياة الدافق في عروق الكائن الحي حاملاً لكل خليةٍ أسباب بقائها، وبدون الماء ليس هناك تنفس أو هضم أو حركة أو تكاثر.

المطلب الرابع: نعمة تسخير الأنعام.

إن من نعم الله الكثيرة التي سخرها للإنسان ويسر له الانتفاع بها تلك الأنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ (٤)، ومن هذه المنافع أن الإنسان يأكل منها، ويشرب من ألبانها، ويتخذ من جلودها البيوت والأثاث، وتحمل الإنسان وأثقاله على ظهرها.. إلى غير ذلك من المنافع.

والقرآن الكريم يلفت الانتباه إلى ما بث الله في هذه الأنعام من منافع عظيمة، ونعم كبيرة منها أنها:

١- **مسخرةٌ للركوب**: فمن نعمة الله أن خلق الأنعام للركوب وحمل الأثقال، وليقضي الإنسان حاجاته، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٥).

---

(١) المقتطف من عيون التفاسير – ج٣ص١١٠ .
(٢) البقرة ، (١٦٤) .
(٣) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج١ص١٥٢ .
(٤) المؤمنون ، (٢١) .
(٥) غافر ، (٧٩ ، ٨٠) .

والمراد بجعل الأنعام لنا أي أنه خلقها لأجلنا ولمنفعتنا، والأنعام الأزواج الثمانية، " ومنها " الأولى للتبعيض، والثانية لبيان الجنس، والمعنى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها، " ولكم فيها منافع " غير الركوب والأكل من الوبر، والصوف، والشعر، والزبد، والسمن، والجبن "، ولتبلغوا عليها حاجةً " في صدوركم " أي لتحمل أثقالكم وأمتعتكم من بلد إلى بلد (١).

" والحاجات التي كانت في الصدور، والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات ضخمة في ذلك الزمان، قبل نشوء كل وسائل النقل، والسفر، والإتصال إلا على هذه الأنعام، وما تزال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغد، وهناك حتى اللحظة أسفار في بعض الجبال لا تبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار، والسيارة، والطائرة، لأنها مجازات ضيقة لا تتسع لغير أقدام الأنعام " (٢).
فمن رحمة الله أن سخر لنا الأنعام للركوب والتنقل... ومهما تقدمت وسائل النقل فستبقى الحاجة ماسة لهذه الأنعام، ولهذا قيل عن الجمل بأنه سفينة الصحراء.

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: " إن السفر قطعة من نار جهنم، فكيف إذا حمل الإنسان أمتعته وسافر؟! لكن رحمة الله ذللت لنا من المخلوقات ما هو أضخم منا كالجمال، والبغال، والخيل، والحمير نركب عليها، ونحمل عليه أثقالنا، وهي مستسلمة منقادة، ولنتأكد من تذليل الله لنا إياها: حاول أن تذلل قطةً أو ذئباً أو أسداً وجرب هل يمكن أن يستسلم لك لِتُحمله شيئاً من أثقالك؟ رغم أنها جميعاً أصغر من الجمل والحمار " (٣).
٢ - **مسخرة للأكل**: فمن نعمه تعالى أن سخر لنا لحومها لنأكلها، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤) وما يؤكل منها هو اللحوم، والشحوم، والألبان، التي يتغذى عليها الإنسان ويحتاجها لنموه (٥).

ولقد خص الله منفعة الأكل بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها وأهمها، وقيل: خصها لأن الانتفاع باللحم والشحم تعدم عنده عينها فلا يبقى لها وجود، بخلاف غيرها من المنافع التي تبقى وقيل: لأن الأكل منها هو الأصل، وهو ما أعدت له، وأكثر ما يرجوه الإنسان (٦).

٣ - **مسخرة لشرب ألبانها**: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (٧).

---

(١) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص٥٩٧ .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب - ج٥ص٣١٠٠ .
(٣) كتاب التوحيد – ج٢ص٣٢ .
(٤) النحل ، (٥) .
(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٠٥ .
(٦) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص١٨٧ .
(٧) النحل ، (٦٦) .

والفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش والمعنى: أن الشيء الذي تأكله الأنعام يكون منه ما في الكرش وهو الفرث، ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً، وأعلاه دماً وأوسطه لبناً، فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث كما هو، " وخالصاً " يعني من حمرة الدم، وقذارة الفرث، حيث يتم الفصل بين هذه الأشياء الثلاثة، ليسوغ بعد ذلك للشاربين، فيكون لذيذاً هنيئاً، لا يغص به من شَربه، ويسهل دخوله للحلق والمعدة (١).

قال البيضاوي: " خالصاً: صافياً لا يستصحب لون الدم، ولا رائحة الفرث " (٢).

٤ - **مسخرةٌ للانتفاع بجلودها:** وذلك لنتخذ منها بيوتاً وأثاثاً ليتحقق لنا فيها السكن والراحة، قال تعالى:﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ... ﴾ (٣). ولفظ " بيوتاً " نكرة يحتمل أنه يراد به العموم أي بيوت الأدم، وبيوت الشعر، وبيوت الصوف، لأن هذه كلها من الجلود لكونها تنبت منها (٤).

وهذه النعمة أي نعمة الجلود، والتي تصبح بيوتاً لنا كالخيام والقباب، هناك نعمة أخرى مخبوءةٌ في هذه، وهي نعمة الخفة واليسر في حملها ولذلك قال: " تستخفونها " أي يخف عليكم حملها في الأسفار وحال الانتقال، ولهذا قال: "يوم ظعنكم" والظعن: سير أهل البادية للانتجاع، والتحول من موضع إلى موضع (٥).

وكذلك بين القرآن أن هذه الجلود يُتخذ منها الآثاث والمتاع، فقال جلّ شأنه في ذلك: ﴿ ...وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ (٦)، والأثاث هو: متاع البيت الكثير، قال الراغب: الأثاث متاع البيت الكثير، وأصله من أثَ، أي كثر وتكاثف، وقيل للمال إذا كثر أثاث (٧).

قال الألوسي في هذه الآية: " أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز " أثاثاً " أي متاع البيت كالفراش وغيره.. " ومتاعاً " أي شيئاً يتمتع به، وينتفع به في المتجر والمعاش " (٨).

---

(١) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٢٢٠ .
(٢) أنوار التنزيل – ج١ص٥٤٩ .
(٣) النحل ، (٨٠) .
(٤) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ص٤١٢.
(٥) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٢٣٢ .
(٦) النحل ، (٨٠) .
(٧) المفردات – ص٩ .
(٨) روح المعاني – ج٥ص٢٠٤ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه منفعةً أخرى ننتفع بها من الأصواف، والأوبار، والأشعار، وهي الدفء الذي يقي الإنسان من البرد، ولقد أفرده الله سبحانه بالذكر كما ورد في قوله: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ (١) لأنها من أعظم المنافع رغم أنها تدخل في ضمن المنفعة (٢).

٥ - **مسخرة للجمال والزينة:** وهذا من مظاهر التمتع بالنعمة، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٣).

قال الألوسي: " الجمال، الزينة في أعين الناس، والعظمة والوجاهة " (٤).

وقال أبو حيان: " والمعنى أنه منها جمالٌ وعظمةٌ عند الناس بإقتنائها، ودلالتها على سعادة الإنسان في الدنيا، وكونه فيها من أهل السعة، فمنَّ الله تعالى بالتجمل بها كما منَّ بالانتفاع الضروري، لأن التجمل بها من أغراض أصحاب المواشي، ومفاخر أهلها، والعرب تفتخر بذلك " (٥).

وقد قدم الإراحة على السرح، لأن الجمال في مظهرها أوضح إذا أقبلت ممتلئة البطون، حافلة الضروع، حين تأوي إلى الحظائر بخلاف وقت السراح، وإن كانت في كلا الوقتين تزين الحظائر (٦).

وإن خلق الأنعام وتسخيرها للإنسان من أدلة العناية الإلهية بالخلق حيث جعل الله سبحانه هذه الأنعام متناسبةً تماماً مع ما سخرت له، فتبارك " الله " الذي خلق وسخر وقدر وأنعم.

المطلب الخامس: نعمة النبات والثمار.

لقد هيأ الله سبحانه بقدرته وعنايته لخلقه ما يأكلون، لتستمر حياتهم، ولتنمو أجسامهم، ومن هذه الأشياء التي أوجدها وسخرها للأكل، النبات والثمار، فالأرض تُنبت للإنسان ما يأكله وفق سنن كونية قدرها أحكم الحاكمين، والقرآن الكريم كثيراً ما يلفت انتباهنا إلى قضية إعداد الطعام، وإخراج النبات والثمر من الأرض فقال تبارك وتعالى:﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٧).

فمن نعمة الله تعالى على عباده أن أنبت الزروع والثمار ليعيش الإنسان، ومن نعمته كذلك أن هيأ كثيراً من المخلوقات لتتفاعل بعضها مع بعض حتى يتم إنبات النبات، والزروع، والثمار، وسنتحدث عن ذلك لاحقاً.

---

(١) النحل ، (٥)
(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٥ص٤٦١ .
(٣) النحل ، (٦) .
(٤) روح المعاني – ج٥ص٩٩ .
(٥) البحر المحيط – ج٥ص٤٦١ .
(٦) انظر: البحر المحيط – أبو حيان التوحيدي – ج٥ص٤٦١ .
(٧) عبس ، (٢٤-٣٢) .

يقول الفخر الرازي في قوله تعالى: " فلينظر الإنسان إلى طعامه "،: " طعامه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره، ولا شك أنه موضع الاعتبار، فإن الطعام الذي يتناوله الإنسان له حالتان:

إحداهما: متقدمة، وهي الأمور التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود.

والثانية: متأخرة، وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول، ولما كان النوع الأول أظهر للحسن، وأبعد عن الشبهة لا جرم، اكتفى الله تعالى بذكره،... واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض ، فالسماء كالذكر ، والأرض كالأنثى " (١).

والمراد بصب الماء أي: الغيث النازل من السماء المنهمر بقوة، ثم شق الأرض بعد ذلك والمراد به شق الأرض بالنبات، ثم ذكر الله سبحانه ثمانية أنواع من النبات على سبيل تعداد النعم بتعدد أشكال النبات (٢).

وانظر في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣).

والحديث في هذه الآية جاء في سياق تعداد النعم، ومن تلك النعم الإنبات للزروع والثمار، وقد استعمل صيغة المستقبل " ينبت " للدلالة على التجدد والاستمرار، ولم يقل " كل الثمرات " لأن كل الثمرات لا يكون موجوداً في كليته إلا في الجنة، وأنبت البعض للتذكرة، فإن التأمل في الجنَّة والنواة وهي تلقى في بطن الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ إليها ثم ينشق أسفلها ليمتد لباطن الأرض ليكون عروقاً وجذوراً، ثم ينشق أعلاها فيخرج منه ساق فينمو، فتخرج منه الأوراق، والأزهار، والحبوب، والثمار مشتملة على أجسام مختلفة في الشكل، والطعم، واللون، والخواص، عُلم أن ذلك من آثار نعمته، وحسن رعايته لخلقه جلَّ شأنه (٤).

قال الزحيلي: " أنبت به لكم زرعاً وزيتوناً ونخيلاً وأعناباً، ومن كل الثمرات على اختلاف أصنافها وأنواعها وطعومها وروائحها، وأشكالها، رزقاً لكم تستطيعون به تحقيق قوام الحياة، والمراد بالشجر هنا: النبات مطلقاً ، سواء كان له ساق أم لا " (٥).

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ...﴾(٦).

---

(١) التفسير الكبير – ج٣١ص٥٦-٥٧ .
(٢) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٣١-٥٧ .
(٣) النحل ، (١٠ ، ١١) .
(٤) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٠٩ .
(٥) التفسير المنير – وهبة الزحيلي – ج١٤ص٩٨ .
(٦) طه ، (٥٣ ، ٥٤) .

قال المراغي عند تفسير هذه الآية: " أي وأنزل من السماء مطراً، فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة، وهي أيضاً مختلفة اللون والرائحة والنفع والشكل، بعضها يصلح للإنسان، وبعضها يصلح للحيوان، وفي هذا بيان لنعمة الله على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي يولد تلك المنافع " (١).

والأزواج جمع زوج، وحقيقة الزوج أنه اسم لكل فرد من اثنين من صنف واحد، فكل واحد منها زوج بالنظر إلى الآخر، والنبات: مصدر سمي به كل شيء نابت، وشتى: متباعدة، وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللون والطعم، وصلاح بعضها للإنسان، وبعضها للحيوان (٢).

يقول الشيخ الزنداني: "وكشف التقدم العلمي أن في النبات تزاوجاً وأزواجاً كما هو الحال في الحيوانات، وأن الزهرة هي مكان ظهور هذه الزوجية، فيوجد فيها السداة التي يكون الله منها حبوب اللقاح " الذكرية " والتي تنتقل بواسطة الرياح أو غيرها لتعلق في المتاع، وتنزل إلى عنقه حتى تصل إلى البويضة حيث يتم التزاوج، ولم يكن أحد يعلم من قبل عن وجود هذا التزاوج في النبات، أو أن هناك ذكراً أو أنثى، حتى إذا تقدم علم النبات كشف أن الزوجية ليست في نبات واحد، بل هي حقيقةً في جميع النباتات " (٣).

قلت: أليس ذلك ما أخبرنا به القرآن قبل خمسة عشر قرناً من الزمان، ولكننا حينها لم ندرك معناه، ولم نفهم مقتضاه، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

يقول أحد علماء الطبيعة متحدثاً عن عجائب التربة والنبات: " إن حبة القمح لا بد أن تتعرض للموت قبل أن تبزغ منها الحياة، ولكن لا بد أن يكون هناك ماء حتى تقوم الحياة، ولا بد أن يكون هنالك مصدر للمواد الغذائية التي يحتاج إليها النبات. والعناصر والمركبات الكيماوية هي للمواد الخام الميتة التي يمتصها النبات، فتحولها إلى داخل أجسامها إلى مواد غذائية، وكذلك لا بد من أن يكون هناك ضوء وطاقة لكي تمد النبات بالقوة اللازمة للنمو، ولكن لا يكفي أن يكون هناك قوة داخل البذور تنبثق في الظروف المناسبة، بل لا بد من قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة والتي تعمل معاً في توافق عجيب " (٥).

فانظر إلى آثار رحمة الله، ونعمته على الإنسان في طريقة صنع غذائه، ومدى التعقيد الذي تتم به.

---

(١) تفسير المراغي – ج٦ص١١٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٨ص٢٣٨-٢٣٩.
(٣) كتاب التوحيد – ج٢ص٧٢ .
(٤) يس ، (٢٦) .
(٥) من بحث للدكتور(لسترجون زمرمان)عضو الجمعية العلمية لدراسة التربة بأمريكا، من كتاب " الله يتجلى في عصر العلم "– مجموعة من الباحثين –ص١٢٧. وانظر ما كتب في الكتاب ص١٢٢ ، عن عجائب التربة وعلاقــته بالنبات.

المطلب السادس: تسخير الشمس والقمر.

سخر الله سبحانه الشمس والقمر لخدمة الإنسان ومنفعته، ولولا وجود الشمس والقمر لانعدمت الحياة على سطح الأرض، فهما يمدان الإنسان ببعض أسباب بقاءه، وهناك آيات كثيرة أشارت لذلك منها قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ ...﴾ (١).
قال الزمخشري: " دائبين، يدأبان في سيرها وإنارتها، ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات " (٢).

وهذا يعني أن حركتهما دائمة لا يتوقفان ما دام الليل والنهار حتى يأذن الله بتوقفهما.

ويقول سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية: " لا يستخدمهما الإنسان مباشرة، كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار.. ولكنه ينتفع بآثارهما، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها، فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه، بل في تركيب خلاياه وتجديدها " (٣).

وقد وصف القرآن الكريم الشمس بأنها ضياء، والقمر بأنه نور، وكذلك وصف الشمس بأنها سراج يضيء قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ (٤). وهو القائل أيضاً: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (٥).

يقول الفخر الرازي في آية يونس: " اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح العالم. وبحركة القمر تحصل الشهور، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم " (٦).

---

(١) إبراهيم ، (٣٣) .
(٢) الكشاف – ج٢ص٥٣٥ .
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢١٠٨ .
(٤) يونس ، (٥) .
(٥) نوح ، (١٦) .
(٦) التفسير الكبير – ج١٧ص٣٠ .

وتوصف الشمس بأنها سراج متوهج مضيء باعث للحرارة التي تحتاجها الكائنات الحية، والتي تؤثر في تكوين السحب بتبخير المياه من المحيط الواسع، ورفعها إلى طبقات الجو العليا، وفي السراج توقد وحرارة وضوء.. وهو ما يتوافر في الشمس (١).

ويقول الأستاذ محمد قطب متحدثاً عن أهمية الشمس: " وعملية التمثيل الضوئي التي تحول طاقة الشمس إلى مادة! وتوزع النبات على سطح الأرض بحسب توزيع الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة، بل بحسب توزيع النور والظلام " (٢).

وأقول إن للشمس والقمر أهميةً كبرى في حياتنا تتمثل فيما يلي:-

١- بضوء الشمس نبصر، ونسير، ونعمل، وننتج، ونتقدم، ونحصل على معايشنا.

٢- بحرارة وضوء الشمس يتكون من النبات طعامنا، وطعام كل كائن حي، وتنضج الثمار بسبب حرارتها.

٣- بحرارة الشمس تدفأ الأرض، وتذهب البرودة المميتة التي تقضي على كل أشكال الحياة.

٤- بحرارة الشمس يتم تبخر المياه من البحار والأنهار وتصبح عذبةً خالية من الأملاح.

٥- على الرغم من أن القمر تابع صغير للأرض، لكنه ذو أثر قوي في حياتنا عليها، حيث يعتبر نوراً يضيء الظلمة لأهل الأرض، وكذلك هو العامل الأهم في حركة المد والجزر في البحار.

وقد أشار القرآن الكريم إلى فوائد أخرى للقمر، حيث قدر الله القمر منازل محددةً، لنعلم منها عدد السنين والحساب، ونحن نعلم من الحس والمشاهدة أن للقمر في كل ليلة هيئةً خاصةً به، قال تعالى: ﴿ .. وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٣).

المطلب السابع: تسخير الليل والنهار.

وهما نعمتان مرتبطان أشد الارتباط بالشمس والقمر، لأنهما يتعاقبان نتيجة دوران الكرة الأرضية حول نفسها فتظهر الشمس في النهار، ويظهر القمر في الليل، وقد سخرهما الله سبحانه لخدمة الإنسان، بما يتفق مع نظام الحياة التي أهلها الله ليعيش عليها البشر، قال تعالى في سياق الامتنان على عباده: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ (٤).

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٨٠٦ .
(٢) قبسات من الرسول – محمد قطب – ص٦٧ .
(٣) يونس ، (٥) .
(٤) يونس ، (٦٧) .

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١)، " والمعنى: أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً لتهتدوا به في حوائجكم بالإبصار، والمبصر الذي يبصر، والنهار يُبصر فيه، وإنما جعله مبصراً على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبب " (٢).

أقول: من نعمة الله على الإنسان أن جعل له الليل ليسكن فيه، ويرتاح من عناء طلب الرزق، ولولا هذا التعاقب بين الليل والنهار لاختل نظام الإنسان، وفسد جسمه، فلا يعرف متى يعمل، ولا متى يرتاح ويهدأ وينام، ولذلك كان الليل للسكينة والراحة رحمة بالعباد.

ولهذا يذكر الله سبحانه العباد بحالهم كيف سيكون لو أنه جعل الليل سرمداً أو النهار سرمداً، فقال مذكراً عباده برحمته بهم ونعمته عليهم في كتابه العزيز: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣).
ومعنى سرمداً أي: دائماً مستمراً مُطَّرداً (٤).

يقول ابن كثير: " يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: " من إله غير الله يأتيكم بضياء "، أي تبصرون به وتستأنسون بسببه " أفلا تسمعون "؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي: دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان، وكلت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: " من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه " أي، تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، أفلا تبصرون " (٥).

" ومعنى تسخيرهما للناس: تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به، ولا يخرج عن إرادته، ولا يهمل السعي في نفعه " (٦).

---

(١) غافر ، (٦١) .
(٢) التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج١٧ص١٠٦.
(٣) القصص ، (٧١ ، ٧٢) .
(٤) كلمات القرآن – حسنين مخلوف – ص٢٤٢ .
(٥) تفسير القرآن العظيم – ج٦ص٩٨-٩٩ .
(٦) فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص١٥٢ .

المطلب الثامن: تسخير النجوم.

من النعم التي تتصل إتصالاً وثيقاً بالليل النجوم، ذلك لكثرة ما يراها الناس في الليل، ولعظم الفائدة التي تعود على البشر جراء وجود وظهور النجوم، وخصوصاً في ظلمة الليل. وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى ذلك عندما بيّن لنا أنه سخر هذه النجوم لمنفعة الإنسان، ومن هذه المنفعة أن يهتدي بها السالكون في البر والبحر حيث قال تعالى في كتابه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (١) وقال أيضاً سبحانه: ﴿ .. وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

قال أبو السعود في تفسير هذه الآية: " بالنجم هم يهتدون بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيره. والمراد بالنجم: الجنس.. وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء هم يهتدون، فالاعتبار بذلك، والشكر عليه ألزم لهم، وأوجب عليهم " (٣).

أقول: ولولا رحمة الله وإيجاد هذه النجوم لضل الإنسان طريقه في الصحاري والقفار، والجبال والأودية، والبحار والأنهار، ولتعذر عليه الوصول إلى حاجةٍ يريدها، أو غايةٍ يسعى إليها.

- ومن الآيات كذلك التي أشارت إلى وظيفةٍ أخرى من وظائف النجوم وهي أنها زينةٌ للسماء، وكذلك حفظاً من الشياطين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ (٤). قال الشوكاني: " إنا زينا السماء بالكواكب، فإن الكواكب في أنفسها زينةً عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة " (٥).

" ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة، لإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين، جميلة التنسيق.. وتناثر الكواكب في السماء، أجمل مشهد تقع عليه العين، ولا تمل طول النظر إليه، وكأنه عين مُحبةٌ تخالسك النظر، فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت، وإن التفت عنها أبرقت ولمعت! ..، ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى، وأن منها شهباً تُرجم بها الشياطين، كي لا تدنوا من الملأ الأعلى " (٦).

---

(١) الأنعام ، (٩٧) .
(٢) النحل ، (١٦) .
(٣) تفسير إرشاد العقل السليم – ج٣ص٢٥٤ .
(٤) الصافات ، (٦ ، ٧) .
(٥) فتح القدير – ج٤ص٤٦١ .
(٦) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٢٩٨٤ .

المبحث الثاني: نعمٌ في الذات الإنسانية .

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نعمة خلق الإنسان وتصويره .

المطلب الثاني: نعمة تكريم الإنسان بالعقل .

المطلب الثالث: نعمة الهداية إلى الحق .

المبحث الثاني: نعمٌ في الذات الإنسانية.

لقد خلق الله الإنسان، وميزه عن بقية مخلوقاته بميزات كثيرة، منها العقل الكبير الذي وهبه الله إياه للتفكير، ومنها الروح التي نفخها الله في الإنسان، ومنها الصورة الحسنة، والخلق الجميل القويم في أحسن هيئة، وخَلْقُ الإنسان آية من آيات الله، تدل على عجيب صنع الله تعالى. وفي جسم الإنسان وتركيبه وعقله وروحه وأحواله وصفاته الخَلقية والخُلُقية ما يثير العجب والدهشة في النفس، مما يزيد في عظمة الله تعالى في القلب، والإيمان بقدرته، ومعرفة قدر الصانع الحكيم جل شأنه.

وقد قررنا سابقاً في هذا البحث حقيقة أن الله جلت حكمته جعل هذا الكون بكل ما فيه مسخراً لهذا الإنسان، وذلك ليقوم بوظيفة الخلافة التي كلف بها، ويحمل الأمانة التي قَبِلَ حملها، ولم تستطع السموات والأرض والجبال حملها، وقد زود الله هذا المخلوق العجيب بالوسائل التي تعينه على القيام بالمهمة التي كلف بها، فكان خلقه وتصويره على أفضل هيئة وأجمل صورة، وكان عقله متفوقاً متقدماً راقياً على بقية المخلوقات، وكانت نعمة تمكينه من الاختيار، والإرادة، والهداية إلى دين الحق، وكل ذلك سأتحدث عنه فيما يلي بمشيئة الله تعالى.

المطلب الأول: نعمة خلق الإنسان وتصويره.

إن من أعظم مظاهر قدرة الله، وعظمته، ونعمته خلق الإنسان وتركيبه على هذا النحو العجيب، وبهذا الشكل الغريب، فلقد ميّز الله شكل الإنسان عن غيره من المخلوقات، فأحسن خلقه وتركيبه، وصوره في أجمل صورة، وأبهى هيئة، ابتداءً من خلقه من تراب، ومروراً بالنفخ فيه من الروح، وانتهاءً بهذا الخلق القويم، والشكل الجميل، والتركيب البديع، فقال عز وجل: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

والمعنى: أن الله أحسن كل شيء في خلقه وإيجاده، فأتقن وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض منها وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي مُتقنةٌ محكمةٌ في الخلق، أو فيما صُنعت له، فيشبه معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾(٢)، أي لم يخلق الإنسان على شكل البهيمة ولا البهيمة على شكل الإنسان، والمقصود بقوله " بدأ خلق الإنسان من طين " يعني بذلك آدم وذريته، خلقه من طين، فصار على صورة بديعة، وشكل حسن جميل، " وجعل نسله من سلالة "، والنسل: ما يكون عن الحيوان من الولد، كأنه مأخوذ من نسل الشيء إذا خرج من موضعه ومكانه والنسل: الذرية، وقد سميت الذرية سلالة لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه.

---

(١) السجدة ، (٧-٩) .

(٢) طه ، (٥) .

والمراد بـــ " الماء المهين " الماء الذي لا قيمة له عند الناس ولا وزن وهو المني، وقال الزجاج: هو الماء الضعيف، " ثم سواه " الضمير عائد على الإنسان، والمعنى: عدّل خلقَه، وسوى شكله، وناسب بين أعضائه، " نفخ فيه من روحه " والضمير لله تعالى، وهي إضافة مُلك إلى مالك، وخَلقٍ إلى خالق، والإضافة للتشريف والتكريم، ثم أظهر تعديد النعم عليهم في أن خصهم بذلك في قوله " لكم " في حديثه عن السمع، والأبصار، والأفئدة، والمقصود خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتتميماً لتسويته لخلقكم، حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كل مسموع، وتبصرون كل مُبْصَر، وتتعقلون كل مُتَعَقَّل، وتفهمون كل ما يفهم (١).

وأيضاً تأمل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً... ﴾ (٢) فقوله تعالى ها هنا من تراب المقصود به آدم، ثم ذكر النطفة إشارة إلى خلق أولاده. والمخاطب هنا جميع الخلق لأنهم أولاد آدم، وهم جميعاً من النطفة، والنطفة من غذاء، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب أصبح نطفة، فالتراب أصل مادة الخلق بما فيه من مكونات (٣).

قال الشوكاني: " أي خلقكم ابتداءً في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. والتقدير على هذا خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب، ثم من النطفة التي أخرجها من ظهر أبائكم، ثم جعلكم أزواجاً بعد ذلك، أي زوّج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً " (٤).

وأيضاً لنتأمل مرة أخرى في هذه الآية لنشعر بمدى عِظم نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة التصوير في أحلى وأجمل صورة، في قوله: ﴿ ... وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ... ﴾ (٥). والمعنى خلقكم في أحسن صورة، وأجمل شكل، وفضلكم في الصورة التي أنتم عليها على سائر خلقه (٦).

وهذا فضل وامتنان من الله سبحانه وتعالى على عباده أن خلقهم في أحسن صورة، فلم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان، ولم يخلقهم كالبهائم منكسةً رؤوسهم، يمشون على أربع، بل أنعم عليهم بالهيئة الحسنة ، والتقويم الجميل الذي لا إعوجاج فيه (٧).

---

(١) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص٢٩٩-٣٠٠ . والمحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ص٣٥٩ .
(٢) فاطر ، (١١) .
(٣) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٢٦ص١٠ .
(٤) فتح القدير – الشوكاني - ج٤ص٤٠٧ . " بتصرف "
(٥) غافر ، (٦٤) .
(٦) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص٥٩٢ .
(٧) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٤ص١٧٢ .

ونجد أن القرآن الكريم يلفت الانتباه إلى ذات الإنسان، وما أُودع فيه من عجائب تدل على قدرة الصانع، وعنايته الفائقة، قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١).

- يقول سيد قطب عند تفسيره لآية " وفي أنفسكم أفلا تبصرون ": " وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان، وحين يحرم نعمة اليقين، إنه عجيبة في تكوينه الجسماني، وفي أسرار هذا الجسد...، وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تُدهش وتحير، فتكوين أعضائه، وتوزيعها، ووظائفها، وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغُدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل والدقيق... وكل عجيبةٍ من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو، خارقةٌ تحير الألباب" (٢).

هذا، وإن من أهم ما يميز الإنسان عن غيره في خلقته، أن الله خلقه في أحسن تقويم فقال جل شأنه: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (٣).

يقول سيد قطب " إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلاً منه، ورعاية منه، فقد كان قادراً أن يُركبه في أية صورة أخرى يشاؤها: فاختار له هذه الصورة السويّة المعتدلة الجميلة.

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين: سويّ الخلقة، معتدل التصميم.. وإن الجمال والسواء والإعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء " (٤).

أقول: ونحن لو أردنا التعرف على أسرار الجسم الإنساني في الخلق والتكوين لوجدنا العجب العجاب، ولوجدنا أن الجسد حقاً ينطق بتسبيح خالقه، ويدل عليه دلالةً واضحةً، فسبحان من خلق الإنسان على هذه الصورة العجيبة، وأرانا من آياته في خلقه ما يثبت عظيم النعم التي أسداها لهذا الإنسان، ليشكر الله على نعمه وآلائه، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا..﴾ (٥).

---

(١) الذاريات ، (٢٠-٢١) .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٣٣٨٠ .
(٣) الإنفطار ، (٦-٧) .
(٤) في ظلال القرآن – ج٦ص٣٨٤٨ .
(٥) النحل ، (١٨) .

وكذلك إن من تمام نعمة خلق الإنسان في أحسن تقويم، أن خلق الله له الأدوات التي يستطيع من خلالها التعرف على العالم المحيط به، والتفاعل معه، وإدراك حقائقه المختلفة عبر نافذة تلك الأدوات، ألا وهي الحواس الخمس، لا سيما السمع والبصر، وكذلك يُضاف إليها القلب، وهي بلا شك من أعظم النعم، وقد أخذت لها موقعاً مهاً بين آيات القرآن الكريم، حيث سخر الله هذه الحواس، وهذا الفؤاد لمنفعة الإنسان ولكي يستطيع من خلالها معرفة الأشياء والحكم عليها، قال تعالى في كتابه العزيز:﴿...وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

وقال جل شأنه:﴿... ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

قال الفخر الرازي: " خلقاً مُسوى بأنواع القوى.. والترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة، فيبصر الأمور ويجربها، ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام، وذهن كامل " (٣).

قال الشوكاني: " خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتتميماً لتسويته لخلقكم، حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كل مسموع، وتبصرون كل مبصر، وتتعقلون كل متعقل، وتفهمون كل ما يفهم" (٤).

وقال سبحانه في سياق الامتنان على عباده:﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ..﴾ (٥).

قال السعدي: " ثم قرره بنعمه فقال: ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين؟ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية " (٦).

وقد عدد تعالى نعمه على الإنسان في هذه الآية منكراً على أولئك الذين لا يتفكرون في هذه النعم، وهي من أخص خصائصه الملاصقة له، وهي جوارحه التي يتعرف من خلالها على الأشياء ويدركها، فمن الأشياء ما يتم إدراكه عن طريق السمع، ومنها ما يدرك عن طريق البصر، وقد قرن تعالى " الشفتين " باللسان لأن نعمة التعبير والكلام لا يصح إلا بالجميع (٧).

---

(١) النحل ، (٧٨) .
(٢) السجدة ، (٩) .
(٣) التفسير الكبير ، ج٢٥ص١٥٢ .
(٤) فتح القدير – ج٤ص٢٩٩-٣٠٠ .
(٥) البلد ، (٨-١٠) .
(٦) تيسير الكريم الرحمن – ج٥ص٤١٨ .
(٧) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٥ص٤٨٤ .

المطلب الثاني: نعمة تكريمه بالعقل.

لقد ميز الله تعالى الإنسان عن بقية المخلوقات بالعقل، فأكرمه بالقدرة على التفكير والابتكار، والتمييز بين الأشياء بهذا العقل، وبهذا حمل الإنسان الأمانة، وقام بدوره في الخلافة وإعمار الأرض.
وإن الإنسان إذا استخدم عقله – بعيداً عن الأهواء – فإنه يتوصل بالضرورة إلى أن هناك إلهاً قادراً حكيماً عليماً، مما يجعله يقدر هذه النعمة حق قدرها.

ولهذا نجد أن القرآن الكريم يؤكد كثيراً على قضية العقل، ويجعل الذين يتعظون ويعتبرون هم الذين يعقلون، أما الكافرون والمنافقون فإنه يصفهم بأنهم لا يعقلون، ويعطلون تلك النعمة. قال تعالى:﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (١) فالذين يعقلون هم الذين ينتفعون بآيات القرآن، ويفهمون مراد الله منها، وكذلك هم الذين ينتفعون بآيات الله في الكون وفي الآفاق، ويستدلون منها على عظمة خالقها سبحانه، وعلى قدرته، وإتقانه لصنعه، قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (٢).

والمقصود إن في ذلك التسخير آيات، أي دلائل وبراهين لأصحاب العقول، الذين يُعملون عقولهم في هذه الآثار، الدالة على وجود الصانع، وتفرده وعدم وجود شريك له، وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالةً على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للعظمة والكبرياء، وأكثر استثارة للعقل، والتفكير، وأجلب للإنتباه (٣).

وكذلك تأمل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ... لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (٤).

إن القرآن في هذه الآية يلفت انتباهنا إلى آيات كثيرة في الكون، ونعم جليلة في الآفاق والأنفس، لا يجوز لنا أن نمر عليها مروراً عابراً، بل إن في هذه الآيات، السموات، والأرض، والليل، والنهار، والفلك، والمطر، وحياة الأرض، والرياح، والسحاب، آيات للعاقلين، الذين ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون، لأنها دلائل على عظيم القدرة، وباهر الحكمة (٥).

---

(١) الزخرف ، (٣) .
(٢) النحل ، (١٢) .
(٣) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص١٩٢ .
والكشاف – الزمخشري – ج٢ص٥٧٤ .
(٤) البقرة ، (١٦٤) .
(٥) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج١ص٢٠٩ .

وإن هذه الآيات الواضحة الظاهرة تدل على وجود المنعم المتفضل الذي يعطي بحكمة ويمنع بحكمة، وإن دليل العقل يثبت أن العالم لا يمكن أن يكون له إلا إله واحد لجواز اختلاف الاثنين فصاعداً، والعقل يجزم بالوحدانية ويرفض الشراكة (١).

ولذلك نجد أن القرآن الكريم في آياته قد ذم أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم، ولا ينتفعون بهذه النعمة الكبيرة، ويعطلون وظيفتها، انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: " شبههم بالدواب لجهلهم، وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم، ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون. وقيل: بل هم من الدواب لأنه اسم لما دبَّ على الأرض، ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم " (٣).

وإن المقصود بهذه الآية بيان أن هذه النوعية من الكفار هي شر الناس عند الله سبحانه، وأنها أخسُّ أنواع الخلق لديه، وعبَّر بـــ "الدواب" ليتأكد ذمهم، ويفضل عليهم الكلاب والخنازير والقردة والفواسق، ولذلك وصفهم بالصم والبكم للتعبير عن حالهم بالضيق، وقلة انشراح الصدور، والكبت، والأخطر من ذلك كله أنه سلبهم نعمة العقل فهم لا يعقلون، ولا ينتفعون بما أودعه الله في رؤوسهم (٤).

ولذلك نجد أن القرآن الكريم سجل لنا ندم هؤلاء، وحسرتهم يوم القيامة على الحال التي وصلوا إليها، والتي استحقوا بها نار جهنم، لأنهم عطلوا نعمة العقل وأهملوها. والعقل: تلك القوة المهيأة لتلقي العلم، وقد يعبر بها عن العلم ذاته.

قال الراغب: " العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة "(٥).

---

(١) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج١ص٢٣٤ .
(٢) الأنفال ، (٢٢) .
(٣) التفسير الكبير – ج١٥ص١١٦ .
(٤) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٢ص٥١٣ .
(٥) المفردات – ص٣٤١ .

لنعد مرةً أخرى لما سجله القرآن عن ندم أولئك، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١).

قال الفخر الرازي عند تفسير هذه الآية: " ما حكاه الله تعالى عن الكفار، جواباً للخزنة حين قالوا: " ألم يأتكم نذير " والمعنى، لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق، أو نعقله عقل من كان متأملاً متفكراً، لما كنا من أصحاب السعير، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل " (٢).

فهم لما عطلوا نعمة العقل، ولم ينتفعوا بها، ولا بغيرها استحقوا أن يكونوا من أصحاب النار، ولقد عبروا عن ندمهم على ذلك، ولكن لات حين مندم.

قال ابن عطية أيضاً عند تفسير هذه الآية: " المعنى: وقال الكفار للخزنة في محاورتهم، " لو كنا نسمع أو نعقل، سمعاً أو عقلاً ينتفع به، ويغني شيئاً لآمنا ولم نستوجب الخلود في السعير، ثم أخبر تعالى محمداً $: أنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الإعتراف " (٣).

والعقل تصل إليه المعلومات عن طريق الحواس، ولهذا نجد في آيات كثيرة يمتن الله فيها على عباده بأن أعطاهم السمع والبصر والأفئدة، ونجد أنه خص السمع والبصر من بين سائر الحواس، لأنها أهم الحواس التي توصل المعلومات إلى العقل، فيقوم بترتيب هذه المعلومات من حيث تخزينها، وترتيبها، واستعمالها في الوقت اللازم، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤).

لكن هذه الحواس محدودة القدرة فنحن لا نستطيع أن نسمع كل شيء، ولا أن نبصر كل شيء، وبما أن الحواس محدودة، فالعقل أيضاً محدود بهذا الإطار، ولا يستطيع تجاوزه مهما أوتي من قوة.

قال الأستاذ " حبنكة ": " العقل مقيد بعالم الحس، لا عمل له في الحكم على عالم الغيب، ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين المصورة، والذاكرة، والمخيلة، والذكاء، تقوم بعملها الجبار في التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، واستنتاج القواعد العامة، والكليات، وقياس الأشباه والنظائر، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهدتها في الكون... ثم تكون أحكامها مقيدة بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس " (٥).

---

(١) الملك ، (١٠) .
(٢) التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٣٠ص٥٧ .
(٣) المحرر الوجيز – ج٥ص٣٤٠ .
(٤) الملك ، (٢٣) .
(٥) العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حبنكة الميداني – ص١٩ .

فالعقل هبة الله للإنسان، التي تميز بها عن بقية المخلوقات، ولكن العقل كما ذكرنا محدود في إطار ما يصله من الحواس... وهذه الحواس قد تخدع.. وبالتالي فإن العقل قد يُخدع في عمله، فأحكامه لا تكون قطعية على كل الأشياء، بل كثيرٌ منها ظني.

وبما أن العقل مخلوق محدود القوة، فإن الله امتن على الإنسان، بأن وهبه من روحه ليستطيع الاتصال بخالقه، ويستمد منه عن طريق الرسل أسباب حياته المادية، والروحية، ووهبه هذا العقل حتى يتمكن من تلقي تشريع الله، ولا يمكن للعقل إنشاء تشريع يحقق السعادة للإنسان بعيداً عن هداية الوحي.

يقول سيد قطب: " إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان، قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته، وهذه وظيفته .. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية، وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذٍ للضلال والانحراف، وسوء الرؤية، ونقص الرؤية، وسوء التقدير وسوء التدبير " (١).

" إن دور العقل.. هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره.. إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم هذا العقل، فهذا النص من عند الله، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله، وعند هذه النقطة يقع خلط كثير.. سواءً ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى.. والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا.. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها، ولم يعد أمامه إلا التصديق، والطاعة، والتنفيذ " (٢).

وهذا الدفاع الذي تجري فيه كل العمليات العقلية، وفيه مراكز الإدراك والإحساس والتفكير يحتوي على " ٣٠ " مليار خلية عصبية، وما بين " ١٥٠ إلى ٣٠٠ " مليار خلية دبقية استنادية تشكل سداً مارداً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة، وكمية الدم التي يحتاجها الدماغ يومياً لا تقل عن "١٠٠٠" لتر، ويتغذى الدماغ على الجلوكوز أو حمض اللبن، وإن انقطاع الدم عن الدماغ مدة (٣-٥) دقائق يؤدي إلى تخريب دائم غير قابل للتراجع في أنسجته، ويلاحظ أن خلايا الدماغ لا تتجدد على عكس بعض خلايا الجسم، فسبحان من خلقه بقدرته وسواه وأبدعه (٣).

---

(١) في ظلال القرآن – ج٢ص١٠٩٧ .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب - ج٢ص٨٠٧ .
(٣) انظر: تأملات في العلم والإيمان – نجيب غالب وأحمد سليمان – ص١٥١ .

المطلب الثالث: نعمة الهداية إلى الحق.

قررنا فيما سبق أن الله تعالى أكرم الإنسان بالعقل والروح، ووهبه تلك الحياة الروحية التي يستطيع من خلالها أن يصبح أشرف المخلوقات على وجه الأرض، وأن يستحق أن يكون في موقع الخلافة التي أعده الله لها ليعمر من خلالها الأرض، ولقد ظهر أن الله أتم عليه النعمة العظمى بأن أرسل له الرسل، وبذلك يستطيع العيش في أمن وطمأنينة، على هدى ونور وبصيرة من ربه تبارك وتعالى، بعيداً عن الأهواء البشرية، متصلاً بخالقه – عن طريق الرسل – ومحققاً للعبودية الحقة لمولاه وخالقه دون سواه.

ومن رحمة الله تعالى وعنايته بالإنسان أن منحه المنهج الصحيح ليستقيم في حياته، وليحيا على هدى من ربه، ولذلك كان الناس بحاجة إلى من يبلغهم دين الله وشريعته، فكانت الرسالات السماوية من خلال قادة للبشرية، يتصفون بالكمالات الإنسانية، ويكونون الأسوة الحسنة لجميع الناس.

والهداية مطلب كل مؤمن بالله، بل ورغبة كل إنسان صاحب عقل سليم، وتفكير صحيح، وضمير حر، ولذلك كان دعاء المؤمنين لأنفسهم دوماً بالهداية، بل والإلحاح في طلبها، وربما وصل الأمر لسبع عشرة مرةً، ولقد سجل ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾ (١).

ومعنى " اهدنا " أي دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإله جنته، وهذا الطريق هو معرفة الحق الذي أنزله الله، ليعمل به في الأرض، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط.

فالهداية إلى الصراط، تعني لزوم دين الإسلام، والتمسك به، والعمل بما يقتضيه، وترك ما سواه.

والهداية في الصراط، تشمل الهداية في جميع شعائر الإسلام، وتفاصيله وأحكامه علماً وعملاً، وهذا الدعاء، من أجمع الأدعية، وأحسنها، وأنفعها للعبد، ولذلك لا عجب أن نجد الإسلام يفرضه علينا في كل ركعة (٢).

وقول العبد لربه " اهدنا " دلالة على الرغبة من المربوب للرب، والهداية هي الإرشاد والدلالة إلى مسالك الجنان، والطرق المفضية إليها وإلى الرضوان، والمقصود منه لمن حصلت له الهداية طلب التثبيت والدوام، ولمن لم تحصل له طلب الإرشاد إليها، والوصول إلى طريقها (٣).

---

(١) الفاتحة ، (٦) .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج١ص٢٩ .

(٣) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج١ص٧٣-٧٤ .

وإذا كان الإنسان يطلب لنفسه الهداية الحقيقية، ويسعى للوصول إليها، فإنه ينبغي أن يطلبها من مظانها التي توجد فيها، ومن أهم هذه المظان القرآن الكريم، وهدي الرسول الأمين، انظر قوله تعالى في حق القرآن العظيم والرسول الكريم: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) وقد سبق هذه الآية الامتنان من الله على عباده، بأن أتاهم نوراً وكتاباً مبيناً، ثم قال: " يهدي به ". قيل: هو راجع إلى الكتاب، أو إليه وإلى النور، لكونهما كالشيء الواحد لا فرق بينهما، لأنهما يؤديان ذات الدور من الهداية، فيوصلان إلى طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام، المنزهة عن كل آفة، وقيل المراد بسبل السلام، الإسلام، ويخرجهم إلى الطريق المنشود الذي يتوصلون به إلى الحق الذي لا عوج فيه ولا مخافة (٢).

والله سبحانه إذا أراد الهداية لعبد من عباده أنار بصيرته وشرح صدره وأيقظ ضميره، ودله على الحق والخير، انظر لقول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ... ﴾ (٣).

" والهدى في الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه، وشرح الصدر هو تسهيل الإيمان وتحبيبه، وإعداد القلب لقبوله وتحصيله.. وقد شبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول، بالشرح والتوسيع، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالجرم المشروح، والصدر عبارة عن القلب وهو المقصود " (٤).

ولا بد لمن أراد الهداية أن يسعى لها، لأن الهداية تتطلب الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (٥). قال الزمخشري: " يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب.. وقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح " (٦).

ولقد بين لنا الحق سبحانه في كتابه أن الهداية إنما ينتفع بها صاحبها، والضلال كذلك لا يضر إلا صاحبه، وبين لنا أن اتباع الهدى الذي مصدره الحق سبحانه ينجي صاحبه من الضلال، والغواية، والشقاء، قال تعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. ﴾ (٧) وقال أيضاً: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (٨).

---

(١) المائدة ، (١٦) .
(٢) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٢ص٣٣ .
(٣) الأنعام، (١٢٥) .
(٤) المحرر الوجيز – ابن عطية - ج٢ص٣٤٣ .
(٥) يونس ، (٩) .
(٦) الكشاف – ج٢ص٣١٩ .
(٧) الإسراء ، (١٥) .
(٨) طه ، (١٢٣) .

قال الرازي في آية الإسراء:" يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، ولا يتعدى منه إلى غيره.. والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر وأنه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً " (١).

وقال السعدي في تفسير الآية من سورة طه: " وأنهم وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه، واتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هُدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة " (٢).

إن الدين يحرر الإنسان من العبودية لكل شيء غير الله، إنه اتصال مستمر بين العبد وربه، ليستمد منه أسباب البقاء، وأسباب التوفيق والفلاح.
والهداية مِنَّةٌ عظيمة من الله تبارك وتعالى يعطيها عباده المؤمنين الصالحين الذين أقبلوا على الله يطلبون منه الهداية، ولا يملك أحداً هداية أحد ما لم يأذن الله بهدايته.
قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (٣). ومن أقبل على مولاه هداه وثبته على طريق الهداية، ومن أعرض عنه فإنه لا يهديه ولا يثبته.

" إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر منةٍ في الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً للعبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق، والصحة، والحياة، والمتاع. إنها المنة التي تجعل لوجود الإنسان حقيقةً مميزة، وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً، وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين يستقر في قلبه هو سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطه هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حين يلقى الله " (٤).

فإذا اهتدى العبد نال ما عند الله في الدنيا، وما أعده في الآخرة، عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه– قال: مر النبي $ برجل يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة قال: " **يا ابن آدم أتدري ما تمام النعمة** "؟ **قال: دعوةٌ دعوت بها أرجو بها الخير، قال:** " **فإن تمام النعمة فوزٌ من النار ودخول الجنة** " (٥).
نسأل الله أن يهدينا ويهدي بنا، ويجعلنا سبباً لمن اهتدى، وينعم علينا بالهداية والاستقامة.

(١) التفسير الكبير – ج٢٠ص١٣٧ .
(٢) تفسير الكريم الرحمن – ج٣ص٢٥٧ .
(٣) القصص ، (٥٦) .
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب - ج٦ص٣٣٥١ .
(٥) مسند الإمام أحمد – (ج١٦/ص١٦٨) – رقم(٢١٩١٦) – قال حمزة الزين: إسناده حسن.
وسنن الترمذي – كتاب الدعوات (٤٥) – باب (٩٤) – ص(٨٠٠) – رقم(٣٥٢٧).

المبحث الثالث: نعمٌ خاصة .

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نعمة الأمن .

المطلب الثاني: نعمة المال والزوجة والولد .

المطلب الثالث: نعمة العافية والصحة .

المبحث: نعم خاصة .

إن النعم التي سبقت الإشارة إليها إنما هي نعم هامةٌ لبني البشر تعم الجميع، فهي غالباً لا تخص أفراداً دون الآخرين، فالشمس والقمر، والليل والنهار، والأرض والجبال والبحار، نعمٌ عامةٌ لكل بني البشر، ولو أنها منعت لتعذرت حياة الناس على وجه الأرض.

وهناك نعمٌ خاصة أعطاها الحق سبحانه لكثير من الخلق، ومنعها عن كثير منهم على حسب ما تقتضيه حكمته في ذلك، فالناس يختلفون في هذه النعم الخاصة، وسأقتصر على ذكر بعضها وإن كان كثير من الخلق يشترك فيها كالصحة والعافية، والمال، ووفرة المتاع، والزوجة، والولد، والأمن، وذهاب الخوف، وغيرها، وسأبدأ بآخرها مستعيناً بالله .

المطلب الأول: نعمة الأمن.

الأمن نعمة عظيمةٌ من نعم الله، يمتن الله بها على عباده، بحيث يشعر الإنسان في وجودها بلذة الدنيا، وطيب متاعها، لأن الخائف لا يذوق طعم النعمة لا في مال، ولا في صحة، ولهذا كان الأمن نعمةً، وكان الخوف بلاءً عظيماً. والأمن يعني طمأنينة النفس، وسكينتها، وزوال الخوف، والإنسان لا يشعر بحقيقة الأمن إلا عندما يخاف، ويشتد خوفه، وكلما زاد ذلك الشعور، زادت حاجته للأمن.

وإبراهيم عليه السلام عندما شعر بقيمة الأمن، دعا ربه أن يجعل البلد التي ترك فيها ابنه وزوجته آمناً مطمئناً . قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً ... ﴾ (١).

فاستجاب الله لنبيه، وجعل تلك البلدة آمنةً، وامتن على قريش بهذه النعمة التي كفروها بعدم إيمانهم بمحمد $ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... ﴾ (٢).

إلا أن قريشاً لما كفرت تلك النعمة أبدلها الله مكانها الخوف، وذهاب الأمن، بذلك الكفر وزالت عنهم بركة تلك الدعوة الكريمة من إبراهيم عليه السلام.

قال أبو السعود: " بلداً آمناً، ذا أمنٍ، كعيشةٍ راضيةٍ، أو آمناً أهله.. أي: اجعل هذا الوادي من البلاد الآمنة، وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة " (٣).

ولقد دعا عليه السلام بالأمن لذريته وزوجه، وغيرهم ممن سكن تلك البقعة، وكذلك برغد العيش، وهو إنما سأل ربه أن يجعلها آمنةً من القحط، والجدب، والغارات، وسفك الدماء، ولقد صارت بدعوته حرماً أمناً، كما صارت المدينة بدعوة نبينا $ حرماً آمناً (٤).

---

(١) البقرة ، (١٢٦) .
(٢) العنكبوت ، (٦٧) .
(٣) إرشاد العقل السليم – ج١ص١٨٨ .
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١ص٥٢٧ .

والأمن نعمة لا تتحقق إلا في ضوء الإيمان كما سنرى، وهي كذلك نعمة متحققة في الآخرة لمن آمن، واعتقد العقيدة الحق، ولم يشرك أو يكفر بربه وخالقه، قال تعالى شأنه: ﴿ **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ...** ﴾ (١).

والمراد بالفريقين هنا فريق الموحدين، وفريق المشركين، وتقدير الكلام إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار، فأخبروني أي هذين الفريقين أحق بالأمن؟ والظاهر أنه كلام إبراهيم عليه السلام، والمُستفهم هنا عالمٌ بمن هو الآمِن، لكنه أبرز ذلك في صورة من لا يعلم، وقد أجاب عن الإستفهام، بأن الفريق الذي هو أحق بالأمن، هم الذين آمنوا وليس غيرهم، وقيل الكلام هنا لله سبحانه وتعالى، واللبس: الخلط، والمعنى لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وهو تبكيت لهم لعلمهم بمن يستحق الأمن (٢).

والأمن كان استحقاقاً يوم القيامة لمن آمنوا بالله، وعرفوه بالأدلة الساطعة، ولم يشركوا معه الأوثان، وقد جاء في الحديث: " **لما نزلت هذه الآية " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: (يا بُني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)** " (٣). وقد بين النبي ﷺ، أن الظلم هنا هو الشرك، وليس المعاصي كما فهم أصحابه، لأن الشرك أعظم الظلم (٤).

ولقد امتن الله سبحانه على أهل مكة، وعبَّدهم لنفسه بالأمر، لأنه المستحق لهذه العبادة بوصفه رباً للبيت، أطعمهم من الجوع، وآمنهم من الخوف. قال تعالى: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ...** ﴾ (٥).

وقد أمنهم الله من خوف شديد كانوا فيه، فقد كان العرب يغير بعضهم على بعض، ويسبي بعضهم بعضاً، فأمِنت قريش من كل ذلك، ولم تعد تخاف لوجود الحرم بينهم (٦).

وقد بين الحق سبحانه أن الكفران والتكذيب بمحمد ﷺ، هو سبب من أسباب انقلاب النعمة إلى نقمة، وتحول العافية إلى بؤس وجوع، وتحول الأمن والسلم إلى خوف ورعب.

---

(١) الأنعام ، (٨١ ، ٨٢) .
(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان التوحيدي – ج٤ص١٧٥ .
والتحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٤ص٣٣٢.
(٣) صحيح البخاري – كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (٨٨) – باب ما جاء في المتأولين (٩) – ص(١٣٢٤) رقم(٦٩٣٧).
(٤) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٢ص١٣٩ .
(٥) قريش ، (٤) .
(٦) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١٥ص٣٩٩ .

قال تعالى في حديثه عن تلك القرية وهي مكة، وهي التي ضرب بها المثل في الآية: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ خَوْفٍ...﴾ (١).

والمقصود بأن الله أذاقها أي القرية، أي: أذاق أهلها لباس الجوع والخوف، وقد سماها لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون، وسوء الحال ما هو كاللباس الذي لا يفارق صاحبه، ويلازمه ملازمةً طويلةً، بسبب تكذيبهم برسالة محمد ﷺ (٢).

وهؤلاء لما كفروا بنعمة الله العظمى وهي بعثته ﷺ، وبالغوا في إيذائه، لا جرم أن يسلط عليهم البلاء، ويعذبهم بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجيف، وعاشوا في أجواء الخوف والذعر، والآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فبطروا النعمة فبدل الله حالهم، بعد أن كانوا في أمنٍ من الغارات والقتل (٣).

ولما كان استتباب الأمن هو ثمرة الإيمان والعمل الصالح، فقد وعد الله عباده الصالحين وعلى رأسهم نبيه ﷺ أن يجعل أمته خلفاء في الأرض، وأئمةً للناس، كما وعدهم سبحانه وتعالى أن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، إن هم حققوا الشرط الوارد في الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤).
ولقد تحقق هذا الوعد من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، فلم ينتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه، حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر، وسائر جزيرة العرب، وقد أظهر الله نبيه وأيده فوضع المسلمون السلاح، وأمِنوا على أنفسهم، وأعراضهم، وفي هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله ﷺ، لأن الله عز وجل أنجز ذلك الوعد، وهذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كله تحت لواء الإسلام، وحقيقة الحال أن المسلمين كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهاية الأمن والعز (٥).

وقد جاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يومٌ نأمن فيه، ونضع السلاح ؟ فقال ﷺ: " **لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس عليه حديدة. ثم قال $:والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت**

---

(١) النحل ، (١١٢) .
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٥٣٨ .
(٣) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٦٣ .
(٤) النور ، (٥٥) .
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٦ص٥٧٦-٥٧٧ .

لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " (١).

والمطلوب من المؤمنين حين الاستخلاف أن يملؤا الأرض إصلاحاً، كما ملئت فساداً، والمقصود بالتبديل هنا أن يجعل الله تعالى من بعد الخوف المستمر من الكفار والمشركين . أمناً دائماً مستقراً، وكان التنكير لبيان عظيم الأمن، ولإظهار أن هذا الأمن مستقر ثابت، ولكن الشرط أيضاً واضح تمام الوضوح، وأن هذا التبديل يستلزم عبادته سبحانه وعدم الإشراك به في عبادة أو طاعة أو عمل (٢).

ولهذا لا عجب أن نجد النبي ﷺ يعتبر توفر الأمن والطعام والمعافاة في البدن من أعظم نعم الله على الإنسان، وكأنه أُعطي الدنيا بحذافيرها، حيث قال ﷺ: " **من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** " (٣).

المطلب الثاني: نعمة المال والزوجة والولد.

إن هذه النعم الثلاثة تضمنها مطلب واحد، لكون هذه النعم مرتبطةً ببعضها أشد الارتباط، كون سعادة الإنسان في هذه الدنيا لا تكتمل إلا بتوافر هذه النعم الثلاث التي هي مطالب عامة لكل نفس بشرية، مستقيمة وسوية.

والحق أن القرآن الكريم تحدث عن ارتباطها ببعضها في أكثر من موضع، فمنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (٤).

والشهوة نزوع النفس إلى ما تريده، وعبر من المشتهيات بالشهوات مبالغةً في كونها مشتهاة، مرغوباً فيها، أو بياناً لانهماكهم في حبها، والمزين هو الباري عز وجل على قول جمهور المفسرين، لأنه هو الخالق لجميع أفعال العباد، وتقديم النساء على البنين . لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن طريق حضور البنين، ثم ذكر البنين بعد ذلك لأن حبهم فطرة وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء واللفظ يشمل البنات، بطريق التغليب، والقناطير: جمع قنطار وهو المال الكثير، والخيل المسومة: المُعَلمة أو المرعية، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، والحرث: الزرع، وهي كلها من جنس الأموال وما يتمتع به (٥).

---

(١) البخاري– كتاب الإكراه(٨٩)– باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر(١)– ص(١٣٢٥)- رقم(٦٩٤٣).
(٢) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج١٠ص٥٢٢١ .
(٣) سنن الترمذي – كتاب الزهد عن رسول الله(٣٤) – باب في التوكل على الله(٣٣) – ص(٥٢٩) – رقم(٢٣٤٦).
وقال حسن غريب. وسنن ابن ماجة – كتاب الزهد(٣٧) – باب القناعة (٩) – ص(٦٨٩) – رقم(٤١١٤).
(٤) آل عمران ، (١٤) .
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج١ص٣٣٧ . والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٣٠٧ .

وهذه الأشياء الثلاثة لا يحبها المسلم لذاتها، بل يحبها لما تؤدي إليه من منافع مشروعة تنسجم مع ما أحله الله لعباده، وما أذن به شرعه، فالزواج من النساء إذا كان وفق ما شرعه المولى، وقُصد به الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا ما رغب فيه الشرع وندب إليه، وحب البنين إذا لم يكن للتفاخر والتباهي وكان لتكثير نسل أمة محمد ﷺ فهو أمر محمود، والمال إذا كان للنفقة، وصلة الأرحام، ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوحٌ ومحمودٌ في دين الله سبحانه (١).

وقد قال الله سبحانه أيضاً: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٢). قال الماوردي: " لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوةً ودفعاً فصارا زينة الحياة الدنيا " (٣).

وحب المال والبنين والاغتباط بهما، والسرور بحصولهما أمر درج العرب عليه، واشتهر بينهم (٤).

والمال نعمةٌ من نعم الله، به يقيم الإنسان حياته، وأمور معيشته، ويوسع الإنسان على نفسه وأهله، ليقضي لهم حاجاتهم ويعيش معهم عيشة رغيدة. والفقير الذي لا مال له يعيش حياته في كد وشقاء وتعب، وإحساسه بالحاجة الشديدة للمال مما يجعله يقضي وقتاً طويلاً، ويبذل جهداً كبيراً في سبيل تحصيله، والمال خير معين للإنسان لتحصيل كمالات الحياة وضروراتها، وهو كما قلنا زينة الحياة الدنيا، ونجد أن القرآن قد بين مكانة المال عند الإنسان، فقال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ (٥).

والمعنى تحبون المال حباً كثيراً يمس قلوبكم، وتقدمونه على كثير من الأشياء غيره لشدة حبكم له (٦).

أقول: والإسلام جعل المال أحد الضرورات، التي جاء الإسلام بتشريعات للحفاظ عليها، لأن المال من الوسائل التي لا تتم الحياة إلا به، ولذلك حرم كسبه إلا من حلال، وحرم إنفاقه إلا في الحلال المباح.

" المال والبنون زينةٌ للحياة، والإسلام لا ينهي عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود، ولا يزيد. إنهما زينة، ولكنهما ليسا قيمة " (٧).

وقد قال ﷺ لعمرو بن العاص: " **نعم المال الصالح للمرء الصالح** " (٨) وهذا الحديث يظهر قيمة المال الحلال للمسلم.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ص١١-١٢ .
(٢) الكهف ، (٤٦) .
(٣) النكت والعيون – ج٣ص٣١٠ .
(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٣٣٢ . وفتح البيان – القنوجي – ج٨ص٥٩ .
(٥) الفجر ، (٢٠) .
(٦) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٥ص٥٥٢ .
(٧) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٢٧٢ .
(٨) مسند الإمام أحمد – (ج١٣/ص٤٨٧) – رقم(١٧٦٩٢). قال حمزة الزين: إسناده صحيح.

ولمكانة المال من النفس البشرية، ولمعرفة الإسلام بمدى حب الإنسان للمال، وتفانيه في تحصيله حرم أكل أموال الناس بالباطل، فقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ (١).
والمال الحرام الذي يؤكل بالباطل يمنع من قبول الدعاء، والاستجابة من الله لصاحبه .

وإن من نعم الله الكبيرة على العبد المسلم الزوجة الصالحة، التي تكون سبباً في سعادة الزوج، وسبباً في إنجاب الذرية الصالحة المؤمنة، وإن كثيراً من الناس تحصل لهم نعمة الزواج، ولكن ليس كل هؤلاء تحصل لهم نعمة الزوجة المؤمنة الصالحة، التي تدخل السرور على نفس زوجها، وأهل بيتها وتكون سبباً في سعادتهم واستقرارهم، والله جل شأنه يمتن على عباده في مواضع عديدة من كتابه بهذه النعمة، نعمة الزوجة التي يتحقق بها السكن، والطمأنينة، وتظهر في وجودها معاني الرأفة والرحمة.
قال جل شأنه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢).

وانظر إلى جمال التعبير في قوله تعالى: " لتسكنوا إليها " أي لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، فإن المجالسة من دوام المؤانسة، وإن الإنسان ليجد بين الزوجين من التراحم والتواصل والأنس، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جل وعلا، والغريب أن هذه المودة والرحمة توجد مع غير سابق معرفة، ولا رابطةٍ مهيأةٍ للتعاطف (٣).

وانظر إلى قوله تعالى وهو يحدثنا عن نعمة الأزواج وما ينتج عن تلك النعمة الهامة من بنين وأحفاد تدخل السرور إلى نفس الزوجين، وتضمن استمرار النسل لكليهما، فقد قال تعالى: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ... ﴾ (٤).

وجعل هنا بمعنى خلق، والمعنى خلق لكم من جنسكم ونوعكم، وعلى شاكلة خِلقتكم أزواجاً. وزوج الرجل هي ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها في الوجود فآدم خلقت حواء من ضلعه كما هو معلوم. وأما قوله في الثانية جل شأنه: " وجعل لكم من أزواجكم بنين". فظاهرٌ في تعديد النعمة في الأبناء، ووجود الأبناء يكون منهما معاً، ولكنه لما كان خلق المولود فيها، وانفصاله عنها أضيف إليها، ولذلك يتبعها في الرق والحرية (٥).

---

(١) النساء ، (٢٩) .
(٢) الروم ، (٢١) .
(٣) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٢٠١ .
(٤) النحل ، (٧٢) .
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٤٩١-٤٩٢ .

والله سبحانه لما ذكر الخلق والرزق في الآية السابقة لهذه الآية أتبعهما بحصول اللذة والمتعة من خلال الأنس بالجنس من الأزواج والأولاد وغيرهما مما يلزم العباد لتقوم به مصالحهم.
والغرض من الأزواج حتى تتوالدون بها، ويكون السكون إليها سبباً لبقاء نوعكم، ثم جعل من الأزواج البنين وقدمهم للشرف، ثم عطف عليهم الحفدة أي من البنات، والبنين، وأولادهم، ومن الأصهار، والأختان وغير ذلك (١).

" وهذه نعمة اختص بها الإنسان إذ ألهمه الله جَعْل قرين له، وجبله على نظام محبةٍ، وغيرةٍ لا يسمحان له بإهمال زوجه كما تهمل العجماوات إناثها.. وجعل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجة، نعمة أخرى، لأن بها تحقق كونهم أبناءه بالنسبة للذكر ودوام اتصالهم به بالنِسبة.. وجملة " ورزقكم من الطيبات " معطوفة على ما قبلها.. لأن المال والعائلة لا يروق أحدهما بدون الآخر " (٢).
قال سيد قطب: " وضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين " (٣).

وانظر إلى قوله تعالى في وصف الأزواج: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٤).
" فهذه الآية شبهت كلاً من الزوجين باللباس، لأن كلاً منهما يستر الآخر، فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من غايات الأذى، وللتجميل والزينة فكل من الزوجين لصاحبه كذلك، يحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر له راحته " (٥).

ولذلك لا عجب أن نجد أن المولى سبحانه وتعالى يمتن على المؤمنين بأن يدخل زوجاتهم معهم الجنة يوم القيامة . قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٦).
وأزواجكم بمعنى نساؤكم المؤمنات الصالحات، والحبور هو السرور، والمعنى تسرون أنتم وأزواجكم بعد دخولكم الجنة سروراً عظيماً، يظهر أثره على وجوهكم (٧).

وتأمل أيضاً في ذات السياق قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (٨).

---

(١) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٤ص٢٩١ .
(٢) التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢١٨-٢١٩ .
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢١٨٣ .
(٤) البقرة ، (١٨٧) .
(٥) روح الدين الإسلامي – عفيف طبارة – ص٣٦٢ .
(٦) الزخرف ، (٧٠) .
(٧) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٥٧٣ .
(٨) الرعد ، (٢٣) .

ومعنى هذه الآية أن الله يتم نعمته غداً عليهم بأن يجمع شملهم مع أقربائهم في الجنة، وأحبابهم من الأقارب آباءً أو أزواجاً أو ذريات، وإن كان ذلك كله برحمة الله، والملائكة يدخلون عليهم بالتحف والهدايا من عند الله تكرمةً لهم وقرة عين لهم بذلك (١).

قال سيد قطب: " في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان، وفي جو التمتع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم " (٢).

وإن من دعاء المؤمنين دوماً أن يلحق الله بهم زوجاتهم، وأن يقر أعينهم بوجود أزواجهم والأبناء كذلك في حالٍ من الطاعة ولزوم الصلاح، ليدخل الجنة هؤلاء المؤمنين بمعية أحبابهم. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (٣).

وقرة العين هي أن يصادف فؤادك ما تحب كما قال الزجاج، وقد ورد في قرة العين معانٍ ثلاث الأول: بَردُ دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، والثاني: نومها، لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن، والثالث: حصول الرضا. وقد قال ابن عباس: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل، فيطمع أن يحِلوا معه في الجنة، فيتم السرور، وتقر عينه بذلك (٤).

ومع هذا كله أقول: إن الزوجات والأولاد يكونون نعمة على الإنسان إذا كانوا له عوناً على دينه، وطاعة خالقه، وكانوا صالحين أتقياء، أما إذا لم يكونوا كذلك، فإنهم قد يكونون نقمةً عليه لا نعمة له. لأن من الأموال والأزواج والأولاد ما هو فتنةً للمرء عن دينه، وصداً له عن سبيل الصلاح والاستقامة.

المطلب الثالث: نعمة العافية والصحة.

الصحة نعمةٌ عظيمة من نعم الله على المرء، وإن كثيراً من الناس لطول إلفهم للصحة والعافية لا يعرفون قدر هذه النعمة، وإن نظرةً واحدةً فاحصة لأهل الابتلاء والأمراض والأوجاع كفيلةٌ بأن يعرف من كان له قلب قيمة هذه النعمة، وعِظم قدرها ويحس بها، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى الذين ابتلوا بالأمراض والأوجاع.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٢٨١ .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٠٥٨ .
(٣) الفرقان ، (٧٤) .
(٤) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٩ص٣٥٥ .

والإنسان المريض أو المصاب في بدنه، هو إنسان ضعيف لا يستطيع القيام بأمور الحياة على الوجه المطلوب، أما الإنسان القوي فإنه يقوم بمهامه خير قيام، ولهذا امتدح الله تعالى، ورسوله ﷺ القوة، قال تعالى على لسان ابنة شعيب: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (١).
والمعنى: إن خير من استعملت على عملك القوي على العمل الصعب والشاق، والذي يؤدي الأمانة، وإنما سمته قوياً لرفعه الحجر على رأس البئر، وقيل: لأنه استقى بدلو لا يُقلّها إلا العدد الكثير من الرجال، وقد سألها أبوها عن علمها بقوته فقالت له: إنه قد رفع الصخرة التي لا يستطيع رفعها العشرة من الرجال، ولذلك اعتبرها بعض أصحاب النبي ﷺ من أفرس الناس لأنها أدركت أمانة موسى وقوته ومدى العافية التي يتمتع بها عليه السلام (٢).

وقد قال ﷺ: " **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير...**" (٣).
فالصحة والقوة نعمة عظيمة من نعم الله تعالى يجب على الإنسان أن يشكرها .
وإن الإنسان لو أصيب بأدنى مرض وخارت قواه، فإنه لا يجد طعم الحياة بل قد يتمنى البعض الموت هرباً من آلام المرض، وكذلك فإننا لو نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن الله سبحانه قد اصطفى بعض عباده المقربين وحباهم بالعلم والقوة الجسمانية، وبيّن أن تلك الصفات من أهم الصفات التي يحتاج إليها القادة والملوك، فقال جل شأنه متحدثاً عن نعمته على طالوت ﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ..﴾ (٤).

وقد بيّن الحق سبحانه في هذه الآية أنه اختار واصطفى هذا العبد الصالح ووهبه الملك، ثم ذكر في الآية مزيتين لهذا العبد هما أنفع مما ذكروا عندما قالوا " ولم يؤت سعة من المال " وهما العلم المبسوط، فقد كان أعلم بني إسرائيل بالحرب، والديانات السماوية، وكان طويلاً عظيم الرأس والمنكبين ذا قوة بدنية هائلة، والبسطة: السعة والامتداد. (٥)

وقد قال النسفي: " والمَلِك لا بد أن يكون من أهل العلم، فإن الجاهل لا ينتفع به، وأن يكون جسيماً لأنه أعظم في النفوس وأكثر تأثيراً في القلوب " (٦).

---

(١) القصص ، (٢٦) .
(٢) انظر: زاد المسير – ابن الجوزي – ج٦ص٩٥ .
وتفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٦ص٨٥ .
(٣) صحيح مسلم – كتاب القدر(٤٦) – باب الأمر بالقوة وترك العجز والإستعانة بالله(٨) – ص(١٣١١) – رقم(٦٦٦٩).
(٤) البقرة ، (٢٤٧) .
(٥) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج١ص٥٧٧ .
(٦) تفسير النسفي – ج١ص١٢٥ .

وقد خص الله هذا العبد بما هو أنفع للناس، وأصلح لأحوالهم، والعمدة في اختيار الرجال وفور العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وليُحسن إدارته لشؤونهم، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقارعة الأعداء، والثبات عند الشدائد (١).

وعندما ابتلى الله تعالى أيوب – عليه السلام – بالمرض صبر صبراً عظيماً، ثم امتن الله عليه بالصحة والعافية والشفاء مما كان يعانيه من المرض والهم، وطول البلاء، والسقم. قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ (٢).

واللام هنا في الآية في كلمة " الضر " للجنس تعم الضر في البدن، والأهل، والمال، ولم تعين الآية نوع الضر الذي أصابه وقد اختلف فيه المفسرون على سبعة عشر قولاً ولعل أمثلها: أنه نهض ليصلي فلم يقدر على النهوض بسبب المرض الشديد حتى قيل أن الدود قد عبث بجسده فقال: " مسني الضر " إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه، متلذذاً بمناجاة خالقه (٣).

وقد كانت نتيجة هذا التوجه السليم الذي توجه فيه أيوب لربه بهذه الثقة، وبذلك الأدب الجم أن كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، ونهاية البلاء " فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضر " فرفع عنه الضر فإذا هو موفور الصحة والعافية، رحمةً من ربه، لأن كل نعمة هي رحمة من الله ومِنَّةً (٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: " **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ** " (٥).

وقد أخرج ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه يرفعه: " **رؤوس النعم ثلاث: فأولها: نعمة الإسلام، التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها** " (٦).

فحذار أن يُبلي الإنسان جسده فيما لا فائدة فيه، وفيما يبعده عن خالقه ومولاه، من ترك للطاعة وفعل للمعصية، لأن الإنسان سيسأل عن نعمة الصحة والعافية، قبل أن تزول قدماه يوم القيامة.

---

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٢٦١ .
(٢) الأنبياء ، (٨٣، ٨٤) .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٦ص٣١٠ .
(٤) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٣٩٢ .
(٥) صحيح البخاري – كتاب الرقاق (٨١)- باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة(١) – ص(١٢٣٢) – رقم(٦٤١٢).
(٦) حلية الأولياء – أبو نعيم الأصفهاني – (ج٤/ص٦٨). وكتاب الشكر – ابن أبي الدنيا – ص(١٧٠) – رقم(١٦٩).

الفصل الثالث

من أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة

وفيه مبحثان: -

المبحث الأول: أسباب حصول النعم في الدنيا.

ومنها:

أولاً: شكر النعمة.

ثانياً: ذكر النعمة.

ثالثاً: الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

رابعاً: التسبيح والإستغفار من الذنوب.

خامساً: عدم مظاهرة الظالمين.

المبحث الثاني: أسباب حصول النعم في الآخرة.

ومنها:

أولاً: الإيمان والتقوى.

ثانياً: الإيمان وعمل الصالحات.

ثالثاً: العبودية الخالصة.

المبحث الأول: أسباب دنيوية .

ومنها:

أولاً: شكر النعمة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الشكر لغة واصطلاحاً وبيان منزلته .

المطلب الثاني: الشكر صفة الله وصفة أنبيائه وعباده الصالحين .

المطلب الثالث: الأمر بالشكر وجزاء الشاكرين .

المطلب الرابع: الشكر مؤذن بزيادة النعم ودوامها .

المطلب الخامس: النعمة مدعاةٌ للشكر والشاكرون قلة .

الفصل الثالث

من أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة

المقدمة:

بعد أن عرَّفنا النعمة، وذكرنا خصائصها، وأهم معانيها، ووجوهها في لغة العرب، وبعد أن تطرقنا إلى أهم نعم البارئ المنعم على عباده في الكون والحياة والنفس، لا بد لنا من الحديث عن أسباب تحصيل النعم، ودوامها في الدنيا والآخرة.

وذلك لأن كل مخلوق يرغب في تحصيل النعم، ويريد لهذه النعم أن تستمر وتزيد، ولا تنقطع أو تتوقف، بل هو دائم البحث عن أسباب تحصيلها وزيادتها ودوامها، ويفر من أسباب زوالها وانقطاعها. والذي خلق النعمة وأنعم بها على عباده، خلق وهيأ من الأسباب ما يبقيها ويحفظها للخلق تكرماً وتفضلاً، وكذلك من نعمته أن ألهم عباده معرفة هذه الأسباب، ودلَّهم عليها، وبينها لهم لكي يأخذوا بها فتدوم نعمه عليهم بسببها، وتكون سبباً في تحصيل هذه النعم وزيادتها ونمائها واستمرارها، فله واسع الحمد والشكر على ذلك.

وفي هذا الفصل سيبين الباحث أهم أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة مع أدلتها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً والله الموفق .

المبحث الأول: أسباب دنيوية.

اختار الباحث أن يبدأ حديثه حول أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا، وذلك لأهمية تلك الأسباب حيث استفاضت آيات القرآن الكريم في الحديث عنها، وكونها سننٌ ثابتة لتحصيل النعم ودوامها، وثباتها، بل وزيادتها. وسيكون لنا وقفة مع هذه الأسباب، وسنبدأ بها من حيث الأهمية والأثر، وسيكون بعض الاستطراد في السبب الأول نظراً لأهميته، وكثرة حديث القرآن الكريم عنها.

أولاً: شكر النعمة.

المطلب الأول: تعريف الشكر لغةً واصطلاحاً وبيان منزلته .

أولاً: تعريف الشكر لغةً: -

الشكر: عرفان النعمة وإظهارها والثناء بها على مستحقها، ومن الله الشكر معناه: الرضا والثواب، وهو مقلوب عن الكشر بمعنى: الكشف، ويضاده: الكفر وهو نسيان النعمة وسترها، ودابةٌ شكور: مُظهرةٌ بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل: أصله عينٌ شكرى، أي ممتلئة، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المُنعِم، وقد يراد بالشكر الثناء فقط على من أولاك معروفاً.

قال ابن القيم: " أصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً، يقال: شكرت الدابة تشكر شكراً .. إذا ظهر عليها أثر العلف، دابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف " .(١) .(٢)

ومما سبق يتضح أن الشكر في اللغة معناه: " **الامتلاء من ذكر المنعم والثناء عليه** " .

ثانياً: تعريف الشكر اصطلاحاً .

هناك أقوال كثيرة في تعريف الشكر، أشهرها للغزالي وابن القيم، وسآتي على ذكر معظمها.

فذكر ابن القيم أن من أهل العلم من عرفه بأنه: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع .وقيل: هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه وإظهاره . وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه . وقيل: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقيل: الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة له .

وقال الجنيد(٣): الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة. وقال الشبلي(٤): الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وهذا القول يحتمل معنيين: الأول: أن يفنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة، والثاني: أن لا تحجبه رؤية نعمةٍ ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها . والله يحب من عبده أن يشهد له بنعمه، ويعترف له بها، ويثني عليه بها، ويحبه عليها . وقيل: شكر النعمة إظهارها ونشرها.

وعرفه ابن القيم بأنه: " اسم لمعرفة النعمة، لأنها السبيل إلى معرفة المنعم " .(٥) فمعرفة النعمة ركن من أركان الشكر، يستحيل الشكر بدونه.

واختلاف العلماء في تعريف الشكر، لأن كلاً منهم نظر إلى جزئية من التعريف، أو نظر إلى وسيلةٍ من وسائل الشكر.

وقد ذكر الغزالي تعريفاً مطولاً للشكر فقال: " اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من علمٍ وحالٍ وعملٍ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فهو: معرفة النعمة من المنعم، والحال: هو الفرح الحاصل بإنعامه .

---

(١) مدارج السالكين – ج٢ص٢٥٤ .

(٢) انظر هذه الخلاصة من: المفردات – الأصفهاني – ص٢٦٥ . معجم مقاييس اللغة – ابن فارس – ج٣ص٢٠٧-٢٠٨ المعجم الوسيط – إبراهيم أنيس وآخرون – ج١ص٤٩٠ .

(٣) محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز - أبو القاسم – صوفي من علماء الدين ، ويعتبر شيخ مذهب التصوف، لأنه ضبط قواعده بالكتاب والسنة، وهو أول من تكلم في التوحيد ببغداد.ت، ٢٩٧هـ. انظر: الأعلام – الزركلي – ج٢ص١٤١.

(٤) محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي – أبو عبد الله – من فقهاء الحنفية، ولد بدمشق وكان أبوه قيم " الشبلية " رحل إلى القاهرة، وتولى قضاء طرابلس حتى توفي بها سنة ٧٦٩هـ. انظر: الأعلام – الزركلي – ج١ص٢٢٤.

(٥) مدارج السالكين – ج٢ص٢٥٧ .

والعمل: هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان ".(١)
قال الراغب الأصفهاني: " الشكر: تصور النعمة وإظهارها .. والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة، وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها، قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً... ﴾(٢) .. وذكر " اعملوا " ولم يقل: اشكروا لينبه التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح ". (٣)

وقد نبه الغزالي إلى بعض أسباب الاختلاف في تعريف الشكر، فرأى أن من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، فقد نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب ومن قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فقد نظر إلى مجرد عمل اللسان . ومن قال: إن شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً، فقد أشار إلى معنى من معاني الشكر وهو الافتقار إلى المنعم، ومن قال: إن الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، فقد أشار إلى حال من أحوال القلب على وجه الخصوص. لأجل كل ذلك لم نجد أحدهم عرف الشكر بما عرفه به الآخر. (٤)
ويرى الباحث: أن أقوال هؤلاء تعرب عن حالهم الراهنة التي غلبت عليهم، فلذلك تختلف تعريفاتهم ولا تتفق، وأن ما يجمع هذه الأقوال جميعاً القول بأن الشكر هو: " **ظهور أثر نعمة المنعم على لسان العبد ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهادةً ورضىً ومحبةً وإخلاصاً، وعلى جوارحه انقياداً للأمر، وتركاً للنهي** ". والله أعلم .

ثالثاً: منزلة الشكر:

الشكر من أعلى مراتب الدين، وأسمى درجات الإيمان، ومن دلائل محبة العبد الصادقة لمولاه . ولذلك لا عجب أن نجد القرآن الكريم اهتم اهتماماً كبيراً بالحديث عن الشكر، وأفرد له مواضع عديدة بين ثنايا الكتاب العزيز، تارة ببيان منزلته متضمناً الحديث عن حب الله للشاكرين ورضاه عنهم، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ... ﴾(٥) وأخرى بالأمر بالشكر كما في قوله: ﴿ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٦). وثالثةً ببيان الجزاء لمن شكر، وكذلك إظهار أن فائدة الشكر عائدةً على الشاكرين.

---

(١) إحياء علوم الدين – ج٤ص٢٨ .
(٢) سبأ ، (١٣) .
(٣) المفردات في غريب القرآن – ص٢٦٥ .
(٤) انظر: هذه الخلاصة: من مدارج السالكين – ابن القيم – ج٢ص٢٥٣-٢٥٧ ،
إحياء علوم الدين – الغزالي – ج٤ص٢٥-٢٨ .
(٥) الزمر ، (٧) .
(٦) البقرة ، (١٧٢) .

مثل قوله تعالى: ﴿ ... وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾(١) وقوله جل شأنه: ﴿ ... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(٢) وهناك الكثير من الآيات مما سيأتي الحديث عنه في سياق هذا المبحث إن شاء الله .

وقد قرن الله تعالى الصبر بالشكر نظراً لأهميته، وإرشاداً للعلاقة الحميمة بينهما حيث قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٣) والصبر والشكر يستغرقان حياة المؤمن كلها، ولذلك كان الربط بينهما، لأنه إما أن يكون المؤمن في سعة عيش فيشكر، أو في ضيق فيصبر، وقد قال $: " **عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** " .(٤)

ومرتبة الشكر من أعلى مراتب الدين وأرفعها، وهي فوق منزلة " الرضى " وزيادة، فالرضى مندرجٌ في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه . وقد جعل الله الشكر سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وقد اشتق لأصحابه اسماً من اسمه، فإنه سبحانه هو " الشكور " وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وأهله هم القليل من عباده، مما يدل على أن أهل الشكر هم خواصه، فعن النبي ﷺ: " **أنه قام حتى تورمت قدماه . فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً** ". (٥)

ومنزلة الشكر تتطلب من العبد ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قبولها، ثم الثناء بها، والمقصود بمعرفتها: إحضارها في الذهن ومشاهدتها وتمييزها، والعلم بأنها من النعم . وأما قبولها: فهو تلقيها من المنعم، بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بثمن دفعه، بل يرى نفسه فيها كالطفيلي، وهذا هو قبولها حقيقةً .

أما الثناء بها: أي الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة، وهو نوعان: عام، وخاص . فالعام: وصفه سبحانه بالجود والكرم، والبر والإحسان، والسخاء والعطاء . والخاص: التحدث بنعمته، والإقرار بوصولها من جهته، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(٦)

---

(١) آل عمران ، (١٤٥) .
(٢) إبراهيم ، (٧) .
(٣) إبراهيم ، (٥) .
(٤) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق(٥٣) – باب المؤمن أمره كله خير(١٣) – ص(١٤٦٦) – رقم(٧٣٩٤).
(٥) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن(٦٥) – باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك(٢) – ص(٩٥٠) – رقم(٤٨٣٦).
(٦) الضحى ، (١١) .

ويا عجباً! أي مقام أرفع من مقام " الشكر " الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان (١).

" وشكر النعمة والمكافأة على المعروف من أركان العمران، وترك الشكر والمكافأة مفسدة لا تضاهيها مفسدة، إذ هي مدعاة ترك المعروف، كما أن الشكر مدعاة المزيد، ولذلك أوجب الله تعالى علينا شكره، وجعل ذلك في مصلحتنا ومنفعتنا، لأن كفران النعمة بإهمالها أو عدم استعمالها فيما خُلقت لأجله، أو عدم ملاحظة أنها من فضله وكرمه تعالى، ذلك من أسباب الشقاء والبلاء ".(٢)
وقد بين تعالى أن منزلة الشكر إنما يصل إليها المهتدون من عباده، الذين اجتنبوا كفر نعمته، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾(٣)
فالشكر مكانته عظيمةٌ وأثره كبير في الحياة الإنسانية، إذ أنه مرهون به استمرار تدفق النعم وحفظها من الزوال، وبه ينال العبد رضا ربه خالقه، ومحبته ورعايته، ويصبح من خاصة عباده وأوليائه الفائزين بالجنة، دار الشاكرين، ومستقر الحامدين .

المطلب الثاني: الشكر اسم الله وصفته وصفة أنبيائه وعباده الصالحين .
أولاً: الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى سمى بهما نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه . والشكر في حق الله سبحانه . إنما يُعني به إنعامه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة واستقاموا عليه من الطريقة، فهو سبحانه يثني عليهم ويديم نعمه عليهم ويزيدها (٤).

واسم الشاكر ورد في القرآن الكريم مرتين، وهو اسم فاعل يدل على ثبوت الوصف في صاحبه ابتداءً، فالله سبحانه – تنسب إليه صفة الشكر المطلق، فهذا وصف ذات، فهو شاكر قبل أن يخلق الخلق، وشاكر بعد أن خلقهم، وشاكر حتى لو لم يوجد من يشكره، قال تعالى في محكم التنزيل: وقال: ﴿ **مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً** ﴾(٥). **وقال:** ﴿ **وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٦). وفي الآيتين تشير دلالة البناء في الاسم إلى أن هذا الإله صفته أنه شاكر، فهو إذن بناءٌ يشير إلى ثبوت الوصف لله، وأما شكور فقد ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وشكور فعول، بناء للمبالغة، وأهل اللغة يرون أن بناء فعول يشير إلى: كل من دام منه الفعل واستمر (٧).

---

(١) انظر: مدارج السالكين – ابن القيم – ج٢ص٢٥٢-٢٥٩.
(٢) تفسير المنار – رشيد رضا – ج٢ص٤٧.
(٣) الإنسان ، (٣) .
(٤) المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٢٦٦ .
(٥) النساء ، (١٤٧).
(٦) البقرة ، (١٥٨)
(٧) انظر: معاني الأبنية في اللغة العربية – فاضل السامرائي – ص١١٤ .

ويتضح من السياق الذي ورد فيه الاسم، أن هذا الاسم صفة فعل، فالله تعالى شاكر في ذاته، شكور في أفعاله. والشكر في حق الله يكون بجزائه الكثير لهم على العمل القليل اليسير والشكر في حقه: الثناء على عباده . فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل، ويشكر على الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بالمدح والثناء بين ملائكته، فإذا فات العبد شيءٌ يرجوه أعطاه بالشكر ما هو أفضل منه، وضاعف له الأجر والعطاء.(١)

ومما يُستأنس به فيما ذهب الباحث إليه قوله تعالى:﴿..اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٢) فلم يقل المولى عز وجل: وقليل من عبادي الشاكر، ذلك لأن الشكر قد يقع من العباد، ولكن قلة منهم الذي يديم الشكر، ويستمر عليه حتى يصبح حالاً له .

ثانياً: الشكر صفة أنبيائه الكرام عليهم السلام، ولقد مر معنا في الآية الأخيرة تنبيه قرآني على أن توفية شكر الله أمر صعبٌ لا يبلغه أحد، وكذلك لا ينطبق وصف الشكر على كثير من العباد، ولذلك لم يثن المولى سبحانه بهذا الوصف إلا على اثنين من أنبيائه الكرام، وهما إبراهيم، ونوحٌ عليهما السلام فقد قال في حق إبراهيم: ﴿ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣). وقال سبحانه في حق نوح: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾(٤). وهذا يدل على قلة الشاكرين وندرتهم، وقلة من يداوم على الشكر (٥).

قال الفخر الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: " شاكراً لأنعمه "، " فإن قيل: لفظ الأنعم جمع قلة، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلمَّ قال: " شاكراً لأنعمه "؟ قلنا – والكلام للرازي – المراد أنه كان شاكراً لجميع نعم الله إن كانت قليلة، فكيف الكثيرة ". (٦)

ومن صور شكره–عليه السلام– أنه قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء ﴾(٧) قال البيضاوي: " أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد . قَيَّد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه ". (٨)

---

(١) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين – الزرعي – ص٢٤٠ .
(٢) سبأ ، (١٣) .
(٣) النحل ، (١٢١) .
(٤) الإسراء ، (٣) .
(٥) المفردات – الأصفهاني – ص٢٦٥ .
(٦) التفسير الكبير – ج٢٠ص١٠٨.
(٧) إبراهيم ، (٣٩).
(٨) أنوار التنزيل – ج١ص٥٢١.

ولقد أنعم الله تعالى على عبده ونبيه نوح ومن معه بالنجاة من الغرق، ولما وقع الطوفان، وأغـرق الله الكافرين ونجى المؤمنين طلب الله من نوح أن يحمده على النجاة، ففعل نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿ .. فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١) وبقي نوح دائم الشكر لنعمة الله عليه، ولهـذا سماه القرآن عبداً شكوراً، وقد نقل ابن كثير عن بعض السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه، وشرابه، ولباسه، وشأنه كله، ولهذا سُمِّي عبداً شكوراً. (٢)

قال الشوكاني عند تفسيره لآية الإسراء: " وصفه الله بكثرة الشكر، وجعله كالعلة لما قبله إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه ". (٣)

" والتقدير كأنه قال: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي، لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، وإنما يكون العبد شكوراً لو كان موحداً، لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله، وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام ". (٤)

ثالثاً: الشكر صفة أولياء الله المخلصين الصالحين الذين عرفوا حق الله فأدوا شكر نعمه، ولذلك كانوا هم المنتفعون بآيات الله في الكون والأنفس، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (٥). قال ابن عطية: " جاء بصفة عباده الذين هم أهل التذكر والشكور " (٦).

ولقد بين جل شأنه أن هؤلاء العباد الشاكرين هم الذين يرضى صنيعهم. قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(٧) يرضاه أي يحبه ويختاره، ويثني عليهم به، والشكر الحقيقي يستلزم الإيمان (٨).

وشكر العباد يكون على المطعم والمشرب والملبس والقوت وهو شكر العامة، أما شكر الخاصة: فعلى التوحيد والإيمان، وقوت القلوب، وهؤلاء عرفوا النعمة، فأحبوا المنعم، وكانت محبتهم مستلزمةً للشكر، وكل ولي تقي أقر بالله رباً، وأفرده بالخلق والإحسان، فإنه يضيف نعمته إليه، لكن شأن هؤلاء في تمام حقيقة الشكر، أنهم يستعينون بنعمه على مرضاته (٩).

---

(١) المؤمنون ، (٢٨) .
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم – ج٥ص٢٧٣ .
(٣) فتح القدير – ج٣ص٢٦٢ .
(٤) التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٢٠ص١٢٤ .
(٥) الفرقان ، (٦٢) .
(٦) المحرر الوجيز – ج٤ص٢١٨ .
(٧) الزمر ، (٧).
(٨) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ص٥٢١.
(٩) انظر: مدارج السالكين – ابن القيم – ج٢ص٢٥٧-٢٦٤.

المطلب الثالث: الأمر بالشكر وجزاء الشاكرين .

سبق التأكيد فيما سبق على أهمية الشكر، وعلى عظم منزلته، ومنزلة الشاكرين عند مولاهم سبحانه وتعالى، وأن حال المؤمن مداره على الصبر والشكر، الصبر على البلاء، والشكر عند النعماء . ولأن النعمة لا يصح أن تقابل إلا بالشكر، والثناء على الله باللسان والقلب والجوارح، كان الأمر من الله سبحانه لعباده بأن يشكروه على تلك النعم، لأنه المستحق وحده لذلك . لأجل ذلك نجد أن آيات القرآن الكريم تتنوع فيها خطاب الأمر بالشكر والحث عليه، واستنهاض الهمم لتقوم بشكر المنعم سبحانه، فنجد الأمر بالشكر الصريح تارةً، وتارةً نجد الحض عليه باستخدام " لولا "، وكذلك الترغيب فيه باستخدام "لعل" تارةً أخرى، إلى غير ذلك من أساليب القرآن التي أمرت بالشكر وحضت عليه. وسيورد الباحث بعض الأمثلة على ذلك لبيان أهمية الشكر وقيمته، ثم سيتحدث عن جزاء الشاكرين وعاقبتهم فيما يلي.

أولاً: الأمر بالشكر والحض عليه: لنتأمل مثلاً قوله تعالى:﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(١) نجد الأمر مباشرة بالشكر في هذه الآية، ونجد فيها التلازم بين الذكر والشكر، وكذلك فإن مع هذا الأمر الصريح بأن نشكر نعمة الله، هناك نهي واضحٌ عن الكفر بنعمة الله سبحانه.

قال أبو زهرة: " اذكروني في كل حياتكم، وفي قلوبكم أذكركم بالنعم والغفران، اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة.. وإن أعلى درجات الذكر شكر الله تعالى، ولذا قال تعالى بعد الأمر بالذكر: " واشكروا لي ولا تكفرون " وهنا نجد الشكر تعدى باللام .. وإن ذلك هو الأفصح ".(٢)

وفي هذه الآية يأمر الله عباده بالشكر على النعم، وذلك بالثناء عليه سبحانه، وبذكر إحسانه إلينا، وشكر العبد نطقٌ باللسان فهو مأمور بأن يشكر ويثني بلسانه، وإقرارٌ بالقلب فهو مطالب بأن يقر ويعترف بقلبه، بأن كل نعمةٍ منه سبحانه، وأنه صاحب الفضل، ثم هو مطالب بأداء حق المنعم بجوارحه .(٣)

ونظراً لأهمية الشكر وعلو منزلة الشاكرين، فقد أكد القرآن مرةً أخرى في نفس السورة على الأمر بالشكر، فقال تعالى:﴿ .. كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾. (٤)

" صرح سبحانه بالشكر آمراً أمر إيجاب: " واشكروا لله " أي وخصوا شكركم بالمنعم الذي لا نعمة إلا منه، ولما كان الشكر لا يصح إلا بالتوحيد علقه باختصاصهم إياه بالعبادة .. فإن اختصاصه بذلك سبب للشكر " (٥).

---

(١) البقرة ، (١٥٢) .
(٢) زهرة التفاسير – ج١ص٤٦٤-٤٦٥ .
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١ص٥٧٣-٥٧٤ .
(٤) البقرة ، (١٧٢) .
(٥) نظم الدرر – البقاعي – ج١ص٣١٥ .

وفي هذه الآية أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتحروا الأكل من طيبات الرزق، بأن يقوموا بحقوق النعم، وأن يشكروا المنعم على ما رزقهم، إن كانوا يعبدونه ويقرون أنه تعالى مُولي النعم، فإن عبادته لا تتم إلا بالشكر له (١). فلا يصح أن يشكر غيره لأنه المستحق لذلك. ولقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: " **قال الله عز وجل: إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري** " (٢).

وبتأمل قول الحق:﴿..وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(٣) فإننا نجد الحض عليه بأسلوب آخر، باستخدام حرف الترجي "لعل"، ومثلها قوله تعالى:﴿..كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(٤)

قال الشوكاني: " لعلكم تشكرون، أي إرادة أن تشكروا هذه النعم التي أنعم بها عليكم " (٥).
قلت: إن أي نعمةٍ لا ينتفع بها صاحبها إلا إذا شعر بعظمة المنعم واستحقاقه للشكر، واستجاب لأمره بالشكر والثناء، فشكره سبحانه واعترف بفضله ومَنِّه ونسب كل نعمةٍ إليه سبحانه .
وقد اعتمد القرآن أيضاً أسلوب الحض على الشكر بالإنكار والتوبيخ، قال تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦).

وها هنا إظهار لامتنان الله على خلقه بإباحته لهم الأكل من الثمرات، ثم إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم الكبيرة المُنعَم بها عليهم، والمعنى في الاستفهام الإنكاري أيتنعمون بها، ولا يشكرونها !(٧).
ومرةً أخرى يأمر بالشكر بأسلوب آخر فيه حث وحض عليه باستخدام " لولا " كما في قوله تعالى في سياق الحديث عن نعمة الماء: ﴿ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٨).
إن نعمة عذوبة الماء وعدم ملوحته، لِتستسيغه النفس البشرية نعمة تستحق الشكر والمعنى: فهلاَّ تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم الماء عذباً فراتاً تشربون منه وتنتفعون (٩).
وإن تنوع الأساليب في الأمر بالشكر، ليدل دلالةً واضحة على أهميته في كونه من أهم أسباب استمرار النعم ودوامها بل وزيادتها، وهذا ما سيتضح لاحقاً .

---

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص١٩٠ .
(٢) مسند الشاميين للطبراني–(ج٢/ص٩٣)– رقم(٩٧٥). ضعفه الألباني. انظر: الضعيفة- (ج٥/ص٣٩٣). رقم(٢٣٧١).
(٣) الأنفال ، (٢٦) .
(٤) الحج ، (٣٦).
(٥) فتح القدير – ج٢ص٣٨٢.
(٦) يس ، (٣٥).
(٧) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٣٤٦.
(٨) الواقعة ، (٧٠).
(٩) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٥ص١٨٩.

ثانياً: بيان جزاء الشاكرين .

وفي نظير هذا الأمر بالشكر والحض عليه، نجد القرآن الكريم قد أفاض في الحديث عن جزاء الشاكرين وما أعد الله لهم في الآخرة، بل وفي الدنيا أيضاً، فإن جزاء الشكر عظيمٌ وكبير، وإن منفعة الشكر لتعود على صاحبها فقط، وفائدة الشكر أول ما تطال الشاكر الحامد لربه .

قال تعالى: ﴿ .. وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١). وقال سبحانه في كتابه: ﴿ .. وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(٢). والآية الأولى وإن نزلت في الحديث عن الجهاد، لكن حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة، وهي نص على أن الله سبحانه يجزي بنفسه الشاكرين، والمراد بالشاكرين جنسهم، فهم داخلون فيها دخولاً أولياً، ولم يفصح عن الجزاء، لتعظيمه، وليذهب العقل في تخيله كل مذهب (٣).

أما في الآية الثانية فالوعد عظيم بالجزاء، وقد صُدِّر الوعد بالسين وهي قرينة التفسير بما يستقبل أي: لا يتأخر جزاء الله إياهم عنهم، والشاكرون هم الذين صبروا على دينهم، وصدقوا الله فيما وعدوه وثبتوا، وشكروا نعمة الله عليهم بالإسلام، والشاكرون لفظ عامٌ يندرج فيه كل شاكرٍ فعلاً وقولاً، وظاهر هذا الجزاء أنه في الآخرة، وقيل في الدنيا بالرزق والتمكين في الأرض (٤).

وقد بيّن القرآن الكريم أن الشكر سببٌ في رفع العذاب والألم عن الناس حين يشكرون خالقهم على نعمه، وحين يحققون الإيمان به سبحانه، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ (٥).

" وهذا استفهام معناه النفي، أي: ما يعذبكم إن شكرتم وآمنتم، والمعنى أنه لا منفعة له في ذلك، ولا حاجة، لأن العذاب إنما يكون لشيء يعود نفعه، أو يندفع ضره عن المعذب، فمن شكره وآمن به لا يعذبه .. بل يثيبه ويوفيه أجره " (٦).

فالله تعالى لا يعذب عباده إن شكروا نعمه التي أنعم بها عليهم، وهذا جزاءٌ عظيم منه سبحانه بأن لا يعذب المؤمنين الشاكرين، وذلك حين يؤدي بهم التفكير في أحوال النعم إلى معرفة مسديها، فيذعنون له، ويهرعون إلى طاعته، ولما كان الشكر هو الحامل على الإيمان قدمه عليه. (٧)

---

(١) آل عمران ، (١٤٥) .

(٢) آل عمران ، (١٤٤) .

(٣) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٣٧٦ .

(٤) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص٧٥ .

(٥) النساء ، (١٤٧) .

(٦) البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص٣٩٧ . " بتصرف " .

(٧) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٢ص٣٤١ .

وقد أوضح القرآن الكريم أن شكر الشاكرين إنما يعود نفعه وفائدته عليهم بالدرجة الأولى، وأن كفرهم بالنعمة لا يعود ضرره إلا عليهم أيضاً، وأنه سبحانه لا ينفعه شكر شاكر، ولا يضره جحود جاحد، قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ .. قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١). " (فإنما يشكر لنفسه) فإن نفعه لها، وأما الله تعالى فهو أعلى من أن يكون له في شيء نفع، أو عليه فيه ضر " (٢).

ولأن منفعة الشكر عائدة على نفس الشاكر، كما تقرر الآية السابقة والتالية، فإن الشكر يستجلب به صاحبه المزيد من نعم الله المنعم المتفضل، قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه وينصحه:
﴿ .. أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٣).

ومن يشكر خالقه، ويجدد شكره عند كل نعمة، ويتعاهد نفسه بالشكر لله على كل حال، وفي كل حين، فإنما يقع جزاء الشكر على نفسه، وينفعها به، فإن الله يزيده من فضله، فهو سبحانه شكور مجيد (٤).

يقول سيد قطب: " هذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداءً بذلك الرجل الحكيم، وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه آخر، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو، والله غني عنه . فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه .. فأحمق الحمقى هو من يخالف الحكمة، ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد " (٥).

ومما سبق نعلم أن شكر الله سبحانه هو مظنة الزيادة من نعمه، وأن زيادة النعم ودوامها مرهون بالشكر ودوامه، ومواظبة العبد عليه تحقق له منفعة ذلك في الدنيا والآخرة، وشكر العبد على هذا إحسان منه إلى نفسه، وليس مكافئٌ لخالقه والمنعم عليه بحال من الأحوال.

المطلب الرابع: الشكر مؤذن بزيادة النعم ودوامها .

أمر الله سبحانه بالشكر وحض عباده عليه، وأخبر أنه هو من يجازي عليه بنفسه سبحانه، وبيّن كما رأينا أن شكر الشاكر يعود عليه، ومع ذلك كله فإن المولى سبحانه أخبر عباده أن الشكر سبب لتوالي النعم واتصالها بالعبد، والزيادة له منها فوق ذلك. والمعنى أن الله سبحانه جعل الشكر سبباً للمزيد، أي أنه جعله حارساً أميناً وحافظاً قوياً لنعمته جل شأنه، يصونها من الزوال، ويحفظها من الضياع، ويحرسها من التلف.

---

(١) النمل ، (٤٠) .
(٢) نظم الدرر – البقاعي – ج٥ص٤٢٧ .
(٣) لقمان ، (١٢) .
(٤) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٦ص١٣ .
(٥) في ظلال القرآن – ج٥ص٢٧٨٧ .

وإن شكر المولى سبحانه سبب في تمام النعمة على الخلق وخصوصاً المؤمنين. قال تعالى منبهاً على ذلك: ﴿ .. وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

وهذه الآية جاءت في سياق نعمة الله في تشريعه للتيمم إذا تعذر الوضوء، وأتبع ذلك ببيان إرادته بتطهير عباده ورفع الحرج والمشقة عليهم، ثم بيّن لهم أن هذا التسهيل لتكون حال المؤمنين حال الشكر في مقابل هذه النعم التامة، إذ أنه بالشكر تدوم هذه النعم، وتتم على العباد، فيستمر التيسير عليهم، وتتم النعمة في هذا الدين وما فيه من رخص، وتطهير، وتكفير للذنوب، ورفع للحرج (٢).

ثم لنتأمل هذه الآية البالغة الدلالة، والكبيرة الأهمية في هذا السياق الذي نحن بصدده. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٣). وهذه الآية نصٌ في أن الشكر سبب للمزيد من النعم، والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم، لأزيدنكم من فضلي، وقيل: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي (٤).

قال أبو زهرة عند تفسيره للآية: " وكل نعمةٍ لها شكرها، فإن شكر زادها الله تعالى، .. " لئن شكرتم لأزيدنكم " هذا شرط مؤكد بالقسم، والجواب " لأزيدنكم " جواب القسم ودل على جواب الشرط، واللام موطئة للقسم، وكان الجواب مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة .. والمعنى إن شكرتم أُجرتم لا محالة، وزادكم الله نعمة، وإن كفرتم منعتم وعوقبتم .. وإن هذا يدل على أن الطاعة تعود عائدتها على من قام بها، لأن شكر المنعم، وشكر النعمة يزيدها " (٥).

والآية الكريمة جاءت في سياق تذكير بني إسرائيل بنعمة الله عليهم على لسان موسى في أن أنجاهم وأعتقهم من العبودية لفرعون وقومه، ثم أخبرهم بما يكون سبباً للاستزادة من النعمة، ومعنى " تأذن " أي أذن إيذاناً بليغاً لا تبقى معه شبهة، وأعلم إعلاماً بليغاً لما في صيغة التفعل من التكلف "لئن شكرتم" يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وقابلتم ذلك بالإيمان والطاعة " لأزيدنكم " نعمة إلى نعمة ما دام شكركم قائماً، وإن عصيتم وكفرتم سأعذبكم على ذلك عذاباً شديداً (٦).

---

(١) المائدة ، (٦) .

(٢) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٢ص٤٠٤ .
البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ص٤٥٤ .
أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٢٥٧ .

(٣) إبراهيم ، (٧) .

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٣١٠ .

(٥) زهرة التفاسير – ج٨ص٣٩٩٤-٣٩٩٥ .

(٦) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص٤٢-٤٣ .

قال الغزالي في الإحياء: " وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ " (١).

قلت: هذه الآية فيها جزاء مترتب على فعل الشرط، فكلما كان الشكر حاضراً ومستمراً، كانت الزيادة حاضرةٌ ومستمرةٌ بلا انقطاع، وكانت النعم تتوالى آناء الليل وأطراف النهار. إذن هناك ارتباط وثيق الصلة بين الشكر وبين دوام النعمة، فهو من أهم أسباب دوامها، وزيادتها بدون شك.

" ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر. نقف نحن أمام هذه الحقيقة، تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق. فلا بد أن يتحقق على أية حال .. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب.
إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة السليمة، هذه واحدة .. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق .. وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله، إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله، وتستقيم بشكر الخير وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم، فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما يُنفق أو يضيع منها. فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد " (٢).

والله تعالى قد ربط أمر طلب الرزق وتحصيله بالشكر والعبادة، لأن طلب الرزق بدون بذل الأسباب والتي من أهمها الشكر لا تستقيم معه الفطرة السليمة، فبالشكر يستجلب الرزق قال تعالى: ﴿ .. فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣).
لا تطلبوا الرزق من غيره فهو الرزاق المتين، واشكروه على نعمه ورزقه، لتحافظوا عليها، واعبدوه وحده متوسلين إلى ما تطلبونه، ومقيدين له بالشكر، لأن الشكر سبب في حصول الإنعام بالرزق وسبب في دوامه وزيادته (٤).

---

(١) إحياء علوم الدين – ج٤ص٢٤ .
(٢) في ظل القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٠٨٨-٢٠٨٩ .
(٣) العنكبوت ، (١٧) .
(٤) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص١٧٤ .

المطلب الخامس: النعمة مدعاةٌ للشكر والشاكرون قلة.

سبق الحديث عن مكانة الشكر ومنزلته، وكونه مما أمر الله به عباده، ووعد عليه بالجزاء الحسن، وهو بلا شك من أهم أسباب تحصيل النعم وزيادتها، وبيَّنا أن المواظبة عليه والاستمرار به من أهم أسباب دوام النعم واستمراريتها، ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن أن نعمة الله على عباده مدعاةٌ للشكر، ولذلك نجد آيات كثيرة وردت في سياق الحديث عن النعمة كانت الفاصلة فيها " لعلكم تشكرون " أي أن هذه النعم التي وهبتها لكم، وأعطيتكم إياها هي مظنة الشكر منكم لمن وهبها وأعطاها، لأن الفطر السليمة، والنفوس المستقيمة، جبلت على مقابلة الإحسان بالإحسان، والاعتراف بالجميل لمن أسدى المعروف، والإقرار بالفضل والإحسان، والشكر لمن أنعم وتفضل، أما إذا انتكست تلك الفطرة فإنها تقابل الإحسان بالإساءة والجميل بالإنكار، والمعروف بالجحود، فلا عجب أن نجد القرآن يستحث العباد على شكر المنعم، ويطلب من المنعمين الاعتراف بالنعمة ومُنعمها، ويبين أن هذا الشكر عائد على المخلوق لا على الخالق.

وفيما يلي نماذج لآيات وردت في سياق النعمة فاصلتها كانت " لعلكم تشكرون ". قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(١) وسياق الآية سياق نعم كثيرة ومتعددة يضمنها البحر بين جوانبه من اللحم الطري، إلى الحلية التي تُلبس، إلى جري السفن تشق البحر، إلى ابتغاء الرزق بركوبها، ثم كان التعقيب بأن كل هذه النعم مظنة أن تعرفوا نعم الله فتقوموا بحقها، وتخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الإنعام . وحقها إضافةً إلى الشكر، الإيمان والطاعة لموليها ومسديها (٢).

- وكذلك لنتأمل قوله تعالى في سياق النعمة أيضاً: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(٣) والسكن من نعم الله الكبيرة في الليل، وابتغاء الفضل يكون في النهار وقوله: " لعلكم تشكرون " أي لكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها، وتحمدوه على ما أولاكم. (٤)
- وكذلك يقول جل شأنه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(٥)

---

(١) النحل ، (١٤) .

(٢) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٥٤٠ .
والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١١١ .

(٣) القصص ، (٧٣) .

(٤) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص١٩٩ .

(٥) الروم ، (٤٦) .

والآية تتحدث عن نعمة الله في الرياح التي تثير السحاب، وتساعد في جريان الفلك، وتصلح الهواء ثم قال: " ولعلكم تشكرون " أي مظنة أن تعرفوا نعم الله الجليلة عليكم فتقومون بشكرها (١).

والإنسان إذا أراد أن يحقق الشكر لله سبحانه على نعمه فإن سبيل ذلك والموصل إليه هو التقوى، وإذا تحقق الإنسان بالتقوى أو صلته إلى مقام الشكر وهو من أعلى المقامات الموصلة إلى رضا المولى عز وجل .. والدليل على أن التقوى توصل إلى الشكر قوله تعالى: ﴿ .. فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢). والشكر ذروة المقامات، قليلٌ أهله، ومن هؤلاء القلة رسولنا ﷺ الذي اختار لنفسه مقام الشكر، وبقي لربه عبداً شكوراً حتى لقي وجهه الكريم، والمطلوب من الإنسان في مقابل نعم الله أن يشكره بأن يسخر كل شيءٍ أعطاه الله إياه فيما يحبه الله ويرضاه، تاركاً حرامه، مقيماً لفرائضه وواجباته، على حالة قلبيةٍ مستقيمة هي حالة الشكر لله عز وجل، إذ أن نعمه السابغة مدعاةٌ للشكر من العبد للمنعم جل شأنه (٣).

وعلى الرغم من كل هذه الآيات التي تحث على الشكر وتحض عليه، وتبين أن النعمة مدعاةٌ للشكر، إلا أنه كما اتضح معنا فإن الشاكرين قلة، والمداومين على الشكر أقل وأقل من هذه القلة، وهذا ما وضحه القرآن وكشف عنه في مواضع كثيرة، وقد بدأت ملامح القلة تظهر منذ بداية قصة آدم حين تعهد الشيطان بذلك، قال تعالى: ﴿ .. فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾. (٤)

والمراد: لأقعدن لعبادك على طريق الحق، وسبيل النجاة والسعادة، ولآتينهم من الجهات الأربع اليمين، والشمال، والأمام، والخلف، ولا تجد أكثرهم شاكرين لنعمتك، ولا معترفين بفضلك، ولا مطيعين لأوامرك، وقد وافق هذا الوعيد منه الواقع، وأصاب ما هو حاصل (٥).

- ومن الآيات كذلك التي تحدثت عن قلة الشاكرين تعالى: ﴿ .. إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ (٦). " إن الله سبحانه صاحب فضل على الناس، بإمهالهم والإنعام عليهم بالعقل، وهدايتهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، " ولكن أكثرهم لا يشكرون " تلك النعم الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ". (٧)

---

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٢١١ .
(٢) آل عمران ، (١٢٣) .
(٣) انظر: تربيتنا الروحية – سعيد حوى – ص٢٨ .
(٤) الأعراف ، (١٧) .
(٥) انظر: التفسير المنير – وهبة الزحيلي – ج٨ص١٥٦ .
(٦) يونس ، (٦٠) .
(٧) المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٢ص٤٨١ .

- ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١).
والتنكير في هذه الآية في قوله " قليلاً " للتقليل، و " ما " لتأكيد القلة، والمعنى: شكراً قليلاً، وهو كناية عن عدم الشكر، فما أقل الشاكرين منهم لله على نعمه العظيمة والتي منها، السمع والبصر والأفئدة! ولقد عرَّفهم سبحانه كثرة نعمه ثم أخبرهم بالحقيقة الساطعة، وهي أنهم لا يشكرون هذه النعم إلا شكراً قليلاً، وقيل أن المعنى: لا تشكرون نِعمهُ البتة (٢).

قلت: إن نعم الله سبحانه مع كثرتها، لم تجد من يشكرها إلا القليل، وهذا معناه أم من يداوم على الشكر أقل أيضاً من هذا القليل، وهذا يبين طبيعة هذا المخلوق وهو الإنسان حين يبتعد عن المنهج الصحيح، ويؤثر كفر النعمة على شكرها، فإنه حينئذٍ ينزل بهذا الجحود النكران إلى أسفل سافلين، وتنسلخ أيضاً فطرته السليمة والسوية، ليكون عند خالقه أكثر ضلالاً، وأشر من الأنعام التي تحسن إلى من يحسن إليها، وتعطيه كل منفعةٍ ممكنةٍ نظير إحسانه ورعايته.

---

(١) المؤمنون ، (٧٨) .
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٦ص٤٤٩ .
تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٥ص٢٨٢ .
التفسير المنير – وهبة الزحيلي – ج١٨ص٨٢،٨٣ .

ثانياً: ذكر النعمة.

ثالثاً: الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

رابعاً: التسبيح والاستغفار من الذنوب.

خامساً: عدم مظاهرة الظالمين.

ثانياً: ذكر النعمة.

إن المقصود بذكر النعمة ليس مجرد الذكر، بل المراد بذلك أموراً عدة منها على سبيل المثال: معرفة النعمة، وإظهارها بحيث تظهر على صاحبها، وكذلك التحدث بهذه النعمة فإن التحدث بها شكرٌ لها، هذا فيما يتعلق بجانب النعمة. أما ما يتعلق بالمنعم فإن ذكر النعمة يعني أولاً الاعتراف بأن كل نعمةٍ منه سبحانه، وتحتم نسبتها إليه وحده دون سواه، وأن يفرح بالمنعم لا بالنعمة، وأن يثني على المنعم جل شأنه ويحمده عليها، والأمر الأخير هو أن يقبل النعمة ويرضى بها، لأن الرضى بها وقبولها معناه الرضا عن المنعم المتفضل جل شأنه.

ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن ذكر النعمة في آياته البينات، وسنعرض لبعض تلك الآيات التي جاء سياق الحديث فيها آمراً بتذكر النعمة ملمحاً أحياناً إلى كون التذكر من أسباب تحصيل النعم، ومصرحاً أحياناً أخرى، وسأذكر بعضاً من تلك الآيات فيما يأتي على سبيل المثال لا الحصر.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١). وهذه الآية نداءٌ من المولى سبحانه إلى بني إسرائيل أن يا أبناء النبي الصالح يعقوب اذكروا ما أنعمت به عليكم، من نعم جليلة لا تعد ولا تحصى عبر تاريخ طويل ممتد من النعم السابغة عليكم وعلى آبائكم، وهي دعوة إلى الوفاء بحق هذه النعم، والمراد بالذكر هنا: هو التفكر في هذه النعم والقيام بحقها وقيل المعنى: اذكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاءً بذكر النعمة، وقيل: أراد بالذكر ذكر القلب بالتفكر وهو المطلوب، أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت ولا تناسوها، بل اذكروها معترفين بها وبمن أسداها إليكم (٢).

---

(١) البقرة ، (٤٠)

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١ص٣٠٧ .

المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٧٥ .

أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٥٧ .

ونلاحظ هنا أنه سبحانه ربط بني إسرائيل بذكر النعمة، وأسقطه عن أمة محمد ﷺ ودعاهم إلى ذكره مباشرةً فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ﴾ (١).، ليكون نظر بني إسرائيل من النعمة إلى المنعم، ونظر أمة محمد ﷺ من المنعم إلى النعمة وهو الأولى والأجدر بأمة سيد الخلق ﷺ . وهذه فائدة يحسن ذكرها.

- ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ .. وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً.. ﴾ (٢). والخطاب في هذه الآية عامٌ لكل المؤمنين في كل الأجيال والعصور، والنعمة التي يذكرنا الله بها، والتي يجب استحضارها والتفكير فيها لكي تدوم وتستمر، هي نعمة الهداية، والتأليف القلبي، وهي من أعظم النعم، وهي نعمة متى تفكر بها الناس، وحمدوا الله عليها، وقاموا بحقها، ترتب على أثرها فيض من النعم الأخرى، ولذلك قال تعالى: " فأصبحتم بنعمته إخواناً " فالنعمة الثانية امتدادٌ للنعمة الأولى وأثرٌ لها، فذكر النعمة من ثمراته تتابع النعم كما يتضح (٣).
- ومن الآيات التي جاء الأمر فيها بتذكر النعمة قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴾ (٤). والتذكير بالنعمة هنا يقصد منه الحث على الشكر والوفاء بحق النعمة، والمراد من النعمة جنسها، لا نعمةً معينة بل المقصود نعمة الإسلام وما تبعها من عز وتمكين في الأرض، وذهابٍ للجاهلية، وصلاح لأحوال الأمة. والأمر بتذكر نعمة الإسلام، والنعم الأخرى حتى يذكر المؤمنون المنعم، ويرغبوا في شكره، ويعترفوا له بالفضل والمنة وحده، وهذا هو معنى الذكر الحقيقي الذي يكون بالنظر إلى المنعم لا إلى النعمة، فإن النعمة مسخرةٌ من الله تعالى للإنسان، ولا يتم الشكر إلا بعد معرفة أن النعم جميعاً منه تبارك وتعالى (٥).

قال الغزالي: " ... فإذن لا تَشكرِ النعمة إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك شيء من هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم " (٦).

- ومن تلك الآيات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم.. ﴾ (٧). خطاب لكل مؤمن وكافر يذكرهم بنعمه، وهو ليس أمراً بذكر اللسان فقط، بل وبالقلب والجوارح بحفظ النعمة من الجحود والنكران، والقيام بحقها من الآداء والشكر والعرفان، فإن الكل مغمورٌ في نعمة الله (٨).

---

(١) البقرة ، (١٥٢) .

(٢) آل عمران ، (١٠٣) .

(٣) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٣ص١٣٤١.

(٤) المائدة ، (٧) .

(٥) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٤ص١٣٢-١٣٣. وأنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٢٥٧ .

(٦) إحياء علوم الدين – ج٤ص٧٦ .

(٧) فاطر ، (٣)

(٨) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٧ص٢٨٦.

ومعنى هذا الذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها، وطلب المزيد منها، ... والمراد ذكرها باللسان وبالقلب، أي لا تنسوها، والنعمة هنا بمعنى الإنعام ... وقيل إنها بمعنى المُنعم به، ثم نبه على رأس النعم وهو توحيد المنعم بقوله: " هل من خالق غير الله يرزقكم " من زائدة مؤكدة أي لا خالق إلا الله سبحانه، وهو استفهام تقرير وإنكار وتوبيخ (١).

- ومن الآيات المهمة قوله تعالى:﴿.. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ .. ﴾ (٢).
والمعنى أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها، مقرين بمن أسداها، حامدين له بألسنتكم وقد قال مقاتل: ذكر النعمة هو أن تقول الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه (٣).
- وأخيراً من تلك الآيات التي تذكر فيها النعمة بنسبتها للمنعم المتفضل، قوله جل شأنه على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ .. وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ.. ﴾ (٤).
في هذه الآية الكريمة بعد أن أخبرهم سليمان عليه السلام بنعم الله عليه، وعددها من تعليم لمنطق الطير، ومن الملك التام، والتمكين العظيم، ومن فهم لغة الدواب والهوام كالنمل، طلب من الله سبحانه معترفاً بنعم الله عليه أن يلهمه شكر نعمه التي أنعم بها عليه، وأن يقوم بحقها بعد أن نسبها له سبحانه مقراً بها وقابلاً لها، وراضياً عمن أسداها، وأن يوزعه كذلك شكر نعمته على والديه بالإسلام له (٥).

قلت: ولا عجب أن نجد سيد الخلق عليه الصلاة والسلام يذكر نعمة ربه كل صباح ومساءً مقراً بها معترفاً بوصولها إليه، ناسباً لها للمنعم المتفضل وحده لا شريك له، حامداً إياه عليها مثنياً بها عليه، شاكراً لها بقلبه ولسانه، وأعمال جوارحه. قال ﷺ:" **من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم** "(٦).

فمن تمام الذكر والشكر أن يثني العبد على المنعم بما عرف من النعم، ويثني عليه ثناءً عاماً بما لم يعرف، فبهذا يكون العبد ذاكراً لنعمة ربه معترفاً بها . شاعراً بالعجز عن القيام بشكرها استعظاماً لها. وينبغي لمن أراد أن يذكر نعمة ربه ويشكرها أن تظهر عليه النعمة بقصد شكرها والثناء على من أولاه إياها، لا بقصد الإسراف والرياء، فإنها أمورٌ منهي عنها. قال تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(٧).

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن – القنوجي – ج١١ص٢٢٠ .
(٢) الزخرف ، (١٣) .
(٣) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٥٥٤-٥٥٥ . وفتح البيان – القنوجي – ج١٢ص٣٣٢ .
(٤) النمل ، (١٩).
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٦ص٥٧.
(٦) الحديث سبق تخريجه ، انظر: ص٣٤.
(٧) الضحى ، (١١).

ثالثاً: الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

تُعد هذه الأمور الثلاثة من أهم أسباب تحصيل النعم، واستمرارها، وزيادتها بلا شك حيث إن الإيمان بالله تعالى وتقواه، وخشيته، ثم إتْباع ذلك بالعمل الصالح مما يقرب العبد من الله سبحانه، وينال به رضاه، ويستجلب به نعمه الظاهرة والباطنة. والقرآن الكريم تحدث عن هذه الحقيقة، وأفاض في الحديث عنها بين سوره الكريمة وآياته المحكمة، وإذا تأملنا مثلاً دعاء إبراهيم عليه السلام، وهو يدعو الله لذريته وزوجه وأهل البلد الحرام بالرزق الوفير من الثمرات، نجد أنه ربط رزق الثمرات بالإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ .. وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. ﴾ (١).

والرزق هو الإعطاء والتمكين، ومِن هنا للبعضية، أي ارزقهم بعض الثمرات، فكان الطلب قانعاً غير مسرَفٍ فيه، وقد أعطاه الله الثمرات في حدائق الطائف وغيرها، وأعطاهم ثمرات التجارة، وذلك استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام، وهذا الأمر مرتبط بإيمان أهل ذلك البلد فكلما كان الإيمان حاضراً، كان الرزق من الثمرات حاصلاً لمن آمن، بشتى أنواع الثمرات. وقد خص إبراهيم خليل الله عليه السلام المؤمنين من ذريته بهذا الدعاء، وقوله تعالى: " من آمن " بدل اشتمال، وقيل بدل بعض من كل من أهله وهو الأظهر هنا، وفي إجابة الدعاء تكريم للمؤمنين، وإظهار لشرف الإيمان (٢).

وعند تأملنا كتاب الله تعالى نجد أن القرآن الكريم يخبرنا أيضاً أن نعمة الله ورزقه تُمنع عن أناس، ويحرمون بركة الرزق، بسبب عدم الإيمان، وعدم التقوى والخوف من الله، مثال ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم..﴾ (٣).

والآية الثانية وإن كانت لا تنص صراحةً على الإيمان والتقوى، لكن ذلك يفهم منها ضمناً، إذ أن إقامة التوراة والإنجيل يقصد بها العمل بما في تلك الكتب التي بأيديهم من غير تحريف ولا تبديل، إذ أن ذلك يقودهم إلى إتباع الحق والإيمان بمحمد ﷺ، وما أنزل عليه من الوحي فإن كتبهم ناطقةٌ بتصديقه والأمر بإتباعه، والمراد بقوله: " لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم " كنايةٌ عن كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، وقيل: المعنى لأكلوا من غير كدٍ ولا تعبٍ ولا عناءٍ من بركات الأرض، وخيرات السماء (٤).

---

(١) البقرة ، (١٢٦) .

(٢) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج١ص٤٠١-٤٠٢ . التفسير المنير – الزحيلي – ج١ص٣٠٥ .
أيسر التفاسير – أبو بكر الجزائري – ج١ص١١٢.

(٣) المائدة ، (٦٥-٦٦).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٣ص٩٠. والتفسير المنير – الزحيلي – ج٦ص٢٥٤.

قال ابن جرير: " ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ، فإن قال قائل: وكيف يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد ﷺ، مع اختلاف هذه الكتب ونسخ بعضها بعضاً؟ .

قيل: إنها وإن كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متفقة في الأمر بالإيمان برسل الله، والتصديق بما جاءت به من عند الله، وأما معنى قوله: " لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم "، فإنه يعني: لأنزل الله عليهم من السماء قطرها، فأنبتت لهم به الأرض حبها ونباتها، وأخرجت ثمارها. (١)

والإيمان والتقوى لا تحققان للعبد حصول النعمة ودوامها فقط، بل حصول البركة والنماء لهذه النعمة، وهذا ما قرره القرآن الكريم حين تحدث عن أهل القرى فقال تعالى: ﴿ .. وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٢). وفي هذه الآية لما بين تعالى سبب أخذ أهل القرى بغتةً، بين ما كان يجب عليهم فعله لِيَحْدُثَ لهم أمراً أفضل من الذي حدث لهم، فلو أن أهل هذه القرى المعذبة والمهلكة آمنوا بما أتاهم به رسلهم، واتقوا الله وخافوا منه، وجعلوا بينهم وبين سخطه وقايةً بطاعته، فاستمروا على إيمانهم "لفتحنا عليهم بركات" أي خيرات ثابتة لا يقدر أحدٌ على إزالتها . (٣)

وفي هذه الآية إخبار عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، وبيان بأن عدم الإيمان والابتعاد عن التقوى، كانا سبباً في حصول العذاب وتحول النعمة، ولو أنهم آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به، واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، واعتبروا بما جرى عليهم من الابتلاء، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح، ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر . لفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، ولوسّع الله عليهم الخير، ويسَره لهم من كل جانب. (٤)

والمعنى في الآية: لو حصل إيمانهم فيما مضى قبل نزول العذاب، وكانت تقواهم حاضرة، والتقوى معناها: وقوفهم عند حدوده لفتحت عليهم البركات، وتعدية فعل الفتح إلى البركات استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، والبركات: جمع بركة، والمقصود من الجمع تعددها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة، والبركة هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة، وهو أحسن أحوال النعمة.

---

(١) جامع البيان – ج٤ص٦٤٤ . " بتصرف " .

(٢) الأعراف ، (٩٥ ، ٩٦) .

(٣) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٧٤ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٣ص٢٦٤ . إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص٢٧٧-٢٧٨ .

وقوله: " من السماء والأرض " مراد به حقيقته، لأن ما يناله الناس من الخيرات الدنيوية، لا يعدو أن يكون خارجاً من الأرض، وهي معظم المنافع التي أودعها الله في الأرض، أو من السماء مثل ماء المطر، وشعاع الشمس، والنجوم والرياح الصالحة وغير ذلك (١).

وقد حدثنا القرآن الكريم عن رجال كانوا يخافون من الله ويتقونه، فكان ذلك سبباً في الإنعام عليهم بنعم متعددة، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ .. ﴾ (٢).
وصف الله تعالى الرجلين بأنهما ممن يخاف الله ويراقبه في أمره ونهيه دون الخوف من العدو، وقد أنعم الله عليهما بسبب ذلك بالتثبيت، ورباطة الجأش، والثقة بنصره ووعد، وأنعم عليهما بالتوفيق، والطاعة لنبيه موسى عليه السلام، وقيل: أنعم عليهما بالخوف منه سبحانه دون سواه (٣).

وبين القرآن الكريم أن الإيمان وتفويض الأمر إلى الله سبحانه، والاعتماد عليه وحده، والثقة بنصره وتأييده من أسباب حصول النعمة للعبد ودوامها، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤). وهذه الآيات لها سبب نزول، وهو أن نعيم بن مسعود طلب منه أبو سفيان أن يثبط المسلمين ويخذلهم عن لقاء المشركين مقابل عشرة من الإبل، فأتى المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فوالله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج، فقال النبي ﷺ ومن معه وهم سبعون من الرجال " حسبنا الله ونعم الوكيل " ثم خرجوا للقاء المشركين فنزلت الآيات (٥).
ولقد كان أثر ذلك الترهيب على المسلمين، أمرين واضحين تحدثت عنهما الآيات:
الأول: زيادة الإيمان بقوة اليقين، وعدم تضعضع الثقة في الله تعالى.
الثاني: تفويض الأمر إلى الله تعالى حيث قالوا: " حسبنا الله ونعم الوكيل " أي: كافينا ما يهمنا من أمر الجموع، ونعم الوكيل الذي نفوض إليه أمورنا فيتولانا وينصرنا.
ولما فوضوا أمورهم إلى الله، واتكلوا عليه عادوا بأربعة جزاءات: النعمة من الله، إذ خذل أعداءهم، وألقى الرعب في قلوبهم.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٥ص٢١-٢٢ .
(٢) المائدة ، (٢٣) .
(٣) انظر: جامع البيان – الطبري – ج٤ص٥١٧-٥١٩ . وإرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص٢٦-٢٧ .
(٤) آل عمران ، (١٧٣ ، ١٧٤) .
(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٣٩٢ .

وثانيها: الفضل من الله، وقد فسر كثيرون الفضل بأنه فضل مالي، لأن المسلمين لما لم يجدوا قتالاً اتجروا وربحوا في بدر، والثالث، أنهم عادوا سالمين فلم تنزل بهم جراح فعادوا فرحين مستبشرين، والرابع: أنهم اتبعوا رضوان الله، وساروا في طريقه، وحسبهم أن يكونوا في عمل فيه رضوان الله الذي هو أكبر النعم لينالوا حظي الدنيا والآخرة، وإن هذه النعم التي نالوها هي من فضل الله تعالى(١).

وإن الواجب يحتم على المؤمن الذي يخاف من الله ويتقيه أن يتبع ذلك بالعمل الصالح، لينعم بنعم الله تعالى عليه، إذ أن العمل الصالح من أسباب تحصيل النعمة ودوامها، وهذا ما فهمه سليمان عليه السلام الذي آتاه الله سبحانه نعماً كثيرة لا تعد ولا تحصى: ﴿ ..وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢).

لما رأى سليمان عليه السلام نعم الله تترى عليه أراد أن يستزيد من هذه النعم بأداء حقها، فدعا أن يلهمه الله سبحانه شكر نعمه، وأن يوفقه لعمل الصالح من الأعمال الذي يرضى الله به عنه، ثم أن يدخله الله في زمرة الصالحين، فهي الغاية التي يتعلق بها الطلب، لأن الصلاح طريق إلى الجنة (٣).

قال سيد قطب: " ... فالعمل الصالح هو كذلك فضلٌ من الله يوفق إليه من يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين بربه ليلهمه شكر نعمته، يستعين بربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه.
وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمةٌ أخرى من الله " (٤) قلت: يستدر نعم الله بكل هذا، رغم ما هو فيه من النعم.

رابعاً: التسبيح والاستغفار من الذنوب .

أ- التسبيح:

يُعَدُّ التسبيح وهو تنزيه الله تعالى وتعظيمه، من أهم أسباب جلب النعم، ودفع النقم عن العبد. وإذا وفق العبد للتسبيح فقد فتح لنفسه باباً من أبواب الرحمة الواسعة، ونافذة تطل من خلالها نعم الله عليه، وقد بين القرآن الكريم ذلك عندما تحدث عن التسبيح فذكر أنه جالبٌ لنعمة الله، ودافعٌ لنقمته عن العبد، كما في قصة يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ (٥).

---

(١) انظر: زهرة التفاسير – أبو زهرة – ج٣ص١٥١٠ – ١٥١٣ .
التفسير المنير – الزحيلي – ج٤ص١٦٦-١٦٧ .
(٢) النمل ، (١٩) .
(٣) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج١٠ص٢٨ .
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٢٦٣٧ .
(٥) القلم ، (٤٩) .

والنعمة التي حصلت له هنا الاجتباء، وجعلُه من الصالحين، ولكن هذه الآية لم تذكر سبباً لهذه النعمة، إلا أن هناك آية أخرى ذكرت سبب هذه النعمة، وهو أنه كان من المسبحين لربه، الذاكرين له، والمنزهين له سبحانه، فبسبب التسبيح حصلت له هذه النعمة الكبرى، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (١).

قال الزمخشري: " من المسبحين، من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: هو قوله في بطن الحوت: ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢). ، وقيل: من المصلين .. وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته " (٣).

ثم بعد ذلك أنعم الله عليه بالنعم المذكورة في الآيات الكريمة، من إخراجه من ظلمات البحر، وظلمات بطن الحوت إلى العراء، ثم أنبت الله عليه شجرة اليقطين، وذلك أمر معجز لأن هذا الشجر ليس له ساق، وهو طارد للهوام والحشرات، وقد أنبته الله لأجل يونس بعد التسبيح ولم يكن قد نبت هذا الشجر من قبل. لكنها نعمة أخرى حصلت له بسبب التسبيح (٤).

وقد بين القرآن الكريم أن التسبيح أمر واجب عند حصول النعمة، ولطلب المزيد من النعم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾(٥)، " هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر، قال مقاتل والكلبي: هو أن يقول الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه، " وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا " أي ذلل لنا هذا المركب " (٦). وهذا التسبيح من أسباب استمرار النعمة، لأنه يتضمن معنى الاعتراف بالمنعم وشكره.

وذكر النعمة لا يراد به اللسان فقط بل بالقلب والوجدان، فإنه تنبيه للراكب لما ينبغي أن يقوله، فيبدأ بعد الركوب بتسبيح الله. لأن تسبيحه سبحانه من أسباب تحصيل النعم ودوامها (٧).

" وتحقيق القول في موجب التسبيح، أن الدابة التي يركبها الإنسان، لا بد وأن تكون أكثر قوةً من الإنسان بكثير، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجه يحصل معه الانتفاع بها " (٨).

---

(١) الصافات ، (١٤٣ – ١٤٦) .
(٢) الأنبياء ، (٨٧) .
(٣) الكشاف – ج٤ص٥٩ .
(٤) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج٢٦-١٤٤-١٤٥ .
(٥) الزخرف ، (١٣).
(٦) فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص٦٥١. " بتصرف ".
(٧) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٥ص٤٨.
(٨) التفسير الكبير – الرازي – ج٢٧ص١٧١. " بتصرف ".

ب- الاستغفار من الذنوب:

والاستغفار هو طلب المغفرة والعفو والصفح ممن يقدر عليه، وهو الله سبحانه جل شأنه، وهو من أسباب تحصيل النعم وزيادتها ودوامها، بل هو من أهم أسباب الرزق، وحصول البركة فيه والآيات الشاهدة على ذلك كثيرةٌ في القرآن الكريم حيث أمر الله سبحانه بالاستغفار في مواضع عديدة، وبين لنا علاقة ذلك بالنعمة والرزق، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً.. ﴾ (١).

ومعنى الآية استغفروا ربكم: أي اطلبوا مغفرته، ثم توبوا إليه واندموا على ما سلف منكم من معاصٍ يمتعكم متاعاً حسناً، ووصف المتاع بالحسن، إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه، ولما يعود عليه من المتع والنعم التي يحصل السرور بها (٢).

قال الشوكاني: " قدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلةً إليها، وقيل: إن التوبة من متممات الاستغفار... " يمتعكم متاعاً حسناً " وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك، فمعنى الآية: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من سعة الرزق، ورغد العيش " (٣).

والآية الكريمة فيها دلالةً واضحةً على أن المقبل على عبادة الله المشتغل بها يبقى في الدنيا منعماً، منتظم الحال، مرفه البال، وكان ابتهاجه بالنعمة، وسروره بها أتم من غيره، لأنه أَمِنَ من تغير مطلوبه، وزوال محبوبه (٤).

والقرآن الكريم يؤكد في ذات السورة على هذا المعنى ويرسخه في ضمير المسلم، قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام وهو ينصح قومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ (٥).

أمرهم الله سبحانه مرةً أخرى أن يستغفروا ربهم ثم يعودوا إليه تائبين منيبين وكأنه يقول لهم: إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم، ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم، وقوله: " يرسل السماء عليكم مدراراً " إشارةٌ إلى تكثير النعم، لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله " ويزدكم قوةً إلى قوتكم " إشارةٌ إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة (٦).

---

(١) هود ، (٣) .

(٢) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ص١٤٩ .

(٣) فتح القدير – ج٢ص٦٠٦-٦٠٧ .

(٤) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٧ص١٤٦ .

(٥) هود ، (٥٢) .

(٦) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٨ص١٠ .

وفي هذه الآية الكريمة يأمر نبي الله هود عليه السلام قومه بلغة الناصح أن يطلبوا المغفرة من الله تعالى من كل الذنوب التي فعلوها، بسبب إحسانه إليهم الموجب للاستغفار، ثم يطالبهم أن يتوسلوا لذلك بالتوبة، وأخبرهم أن نعم الله ستصل إليهم في حال فعلوا ذلك، فإن السماء سوف ترسل عليهم قطرها المنهمر الهاطل بالمطر الغزير المتتابع، وستتضاعف قوتهم، وأموالهم وأولادهم، وستترى نعم الله عليهم إن هم فعلوا ما يطلب منهم (١).

" أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه " (٢). وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: " **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب** " (٣).

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة مرةً أخرى، ولكن هذه المرة على لسان نبي كريم آخر وهو نوح عليه السلام وهو أيضاً يذكر قومه ويسدي لهم النصح. ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (٤). وفي هذه الآية الكريمة يأمر نوح عليه السلام قومه بالاستغفار، والإنابة، وطلب الصفح من الله عما هم فيه من الكفر والشرك، ثم يقرر حقيقةً مهمة، وهي أنه سبحانه كان غفاراً دائماً وليس الآن فقط لمن استغفره، وقد وعدهم إن فعلوا ذلك بخمسة منافع. أولها: أن ينزل المطر عليهم بالغيث والرحمة، والمدرار الكثير الدرور، وثانيها: أنه يمدهم بالأموال، وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل، وثالثها: البنين الذين تميل إليهم النفس مع الأموال، ورابعها: الجنات وهي البساتين والحدائق الغناء، وخامسها: الأنهار المتدفقة بالماء العذب (٥).

وختاماً أقول: إن التسبيح والاستغفار كلاهما من أهم صور الذكر وأركانه الذي تنال به رحمة الله وكرامته في الدنيا والآخرة، فالواجب على المسلم ألا يدعهما بحال ، إذا ما أراد أن يعيش آمناً مطمئناً منعماً، لأنه بذكره تعالى تطمئن القلوب، وبذكره ينعم تعالى على الذاكرين الشاكرين من عباده.

---

(١) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٥٤٢ . إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٣ص٤٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير - ج٤ص١٩٣ .
(٣) سنن أبي داوود – كتاب الصلاة(٢) – باب في الإستغفار(٣٦١) – ص(٢٣٣) – رقم(١٥١٨).
وسنن ابن ماجة – كتاب الأدب(٣٣) – باب الإستغفار(٥٧) – ص(٦٢٩) – رقم(٣٨١٩).
ضعفه الألباني. انظر: السلسلة الضعيفة – (ج٢/ص١٤٢). رقم(٧٠٥).
(٤) نوح ، (١٠-١٢).
(٥) انظر: التفسير الكير – الرازي – ج٣٠ص١٢٣.

خامساً: عدم مظاهرة الظالمين.

إن من أهم أسباب تحصيل النعم ودوامها، عدم الوقوف إلى جانب الظلم والظالمين ومظاهرتهم، ليس ذلك فحسب، بل والبراءة منهم ومن ظلمهم ومما يعملون، والوقوف دوماً إلى جانب الحق وأهله ومناصرته بالنفس والمال والأتباع.

وإن الوقوف إلى جانب الظالمين، والشد من أرزهم، ومعاونتهم على ظلمهم وإفسادهم، يجرؤهم ذلك على الحق وأهله، ويغريهم بالتمادي في الظلم والجور والعدوان، مما يعود بأسوأ الأثر على المجتمع هذا من جانب، ومن جانب آخر يكون ذلك سبباً في تبدل نعمة الله عمن يقف إلى جانبهم إلى نقمة، وفي تحول عافيته وآمنه إلى مرض وخوف وفقر.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى ذلك في معرض حديثه عن النعمة، كاشفاً النقاب عن أن من أسباب دوام النعمة، وتحصيلها ابتداءً، واستمرارها على العبد، عدم مظاهرة الظالمين والمجرمين ومعاونتهم على ظلمهم، وألمح أن تلك المظاهرة من أسباب رفع النعمة عن المتنعمين، وحلول النقمة محلها، ومحق البركة من تلك النعمة التي تصل أولئك المظاهرين، ومن تلك الآيات الكريمة التي أشارت إلى هذا المعنى بصورة ضمنية، قول الحق سبحانه على لسان موسى عليه السلام مناجياً ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١). والباء هنا للقسم، أي: أقسم بإنعامك عليّ لن أقف إلى جانب الظالمين والمجرمين، وقيل: في الإنعام المراد به المغفرة، وقيل: المراد به ما أتاه الله من الحكم والمعرفة والتوحيد، وجملة " فلن أكون ظهيراً " كالتفسير للجواب، وهو تعهد يقطع على النفس ألا تظاهر مجرماً، ويجوز أن تكون الباء هنا سببية متعلقة بمحذوف أي: اعصمني بسبب ما أنعمت به عليّ، ويكون قوله: " فلن أكون ظهيراً " مترتباً عليه، وهذا توصل إلى إنعامه سبحانه بإنعامه (٢).

وهذا الخطاب استعطافٌ من موسى عليه السلام لربه، واستجلاب لرحمته، كأنه يقول له: ربِ اعصمني، وبحق ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون للمجرمين مظاهراً ونصيراً، وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون، وتكثير سواد أتباعه، حيث كان يسمى موسى " ابن فرعون " بسبب ملازمته له في دخوله وخروجه، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لا يحل، وفي هذا استدرارٌ لنعمة الله بنعمة الله وطلب لدوامها وزيادتها بسبب عدم المظاهرة (٣).

---

(١) القصص ، (١٧).

(٢) لنظر: فتح البيان – القنوجي – ج١٠ص١٠٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٧ص٢٣٤.

ومن يعرف ويقدر نعمة ربه، ويرغب في دوامها وزيادتها فإنه يلزم نفسه بألا تقف في صف الظالمين أو يناصرهم، فإن مّنْ أنعم الله عليه ينبغي له في مقابل ذلك الإنعام أن يستعين به في نصرة الحق وأهله، وعدم الوقوف إلى جانب الظلم وأهله.

" هو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً أو معيناً. وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها. حتى لو كانت اندفاعاً تحت تأثير الغيظ، ومرارة الظلم والبغي. ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه، ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل إياها " (١).

وأقول: إن أخذ العهد على النفس بعدم كظاهرة الظالمين من موجبات رحمة الله بالعبد، ومن أسباب تواصل نعم الله عليه تحصيلاً وزيادةً، وكأن موسى عليه السلام أراد بهذا العهد أو القسم الذي قطعه على نفسه أن يستدر نعم الله عليه لتزداد، وقد كان له ما تمنى، فاتصلت نعمة الله به وازدادت تلك النعمة حتى وصلت إليه نعمة النبوة والاصطفاء من الله ليبلغ رسالته إلى الناس.

وقد يسأل سائل فيقول: إننا نرى بالمشاهدة أن كثيراً من أعوان الظلمة وأتباعهم والمظاهرين لهم يتنعمون مع أولئك الظالمين بأنواع النعم، ولم نر تلك النعم تتحول عنهم... فكيف يكون ذلك؟

والجواب: إنه وإن حدث ذلك لبعضهم فإنه نوع من الاستدراج لهم والإملاء، حتى إذا كان الوقت المحتوم تحول ذلك كله إلى نقمةٍ عليهم، وهم في الأصل لا يحسون بتلك النعم ولا يجدون أثرها، ولا ينالون ما فيها من البركة، وسرعان ما تكون تلك النعم وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة، في الدنيا بذهاب أصل النعمة أو بمحق بركتها، أو بتحول العافية المترتبة عليها. أما في الآخرة بالعذاب في نار جهنم ومس حرها، وخير دليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ..﴾ (٢).

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات على الحق والاستقامة وعدم مظاهرة الظالمين ومداهنتهم والركون إليهم، والميل إلى ظلمهم، والاستعانة بهم لأن ذلك يعني الرضا بأعمالهم، وهم إن فعلوا ذلك كانت نعمة التأييد والنصر من الله لهم، وإن خالفوا ذلك لحقت بهم الهزيمة، وتحولت عنهم العافية، وصاروا إلى النار، وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي خاصةٌ بالمشركين أو عامة، فقيل إنها خاصةٌ بالمشركين وأنهم هم الذين ظلموا، وقيل إنها عامة في الظَّلَمَة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (٣).

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٦ص٢٦٨٢ .

(٢) هود ، (١١٣) .

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٤ص٢٠٦ .
فتح البيان – القنوجي – ج٦ص٢٦٣ .

المبحث الثاني: أسباب أخروية .

ومنها:

أولاً: الإيمان والتقوى .

ثانياً: الإيمان وعمل الصالحات .

ثالثاً: العبودية الخالصة لله .

المبحث الثالث: أسباب أخروية.

مما لاشك فيه أن التصديق بوجود الجنة والنار من الأشياء الأساسية التي ترتكز عليها عقيدة كل مسلم يؤمن بالله، فلا يتحقق إيمان العبد إلا إذا آمن أن هناك جنةً وناراً في الآخرة، فيجازى المحسن بإحسانه فيدخل الجنة برحمة ربه، والمسيء بإساءته فيدخل النار إن لم يتغمده الله برحمته، ولما كانت النار محط خوف وحذر العباد، وكانوا يفزعون منها ويهربون من الوقوع فيها بالتوبة والإنابة إلى خالقهم، كانت الجنة محط آمالهم، ومنتهى رغباتهم، ومقصود سعيهم، ومن رحمة الله بعباده وسابغ إنعامه عليهم أن جعل هناك أسباباً لدخولها ومكن عباده من هذه الأسباب ويسرها لهم، وبينها ووضحها أجلى بيانٍ وأوضحه ليعملوا بها فيدخلوا الجنة برحمة ربهم، وهذا ما تطرقت إليه آيات كثيرة في كتاب الحق سبحانه وتعالى، حيث عرضت هذه الآيات لأهم هذه الأسباب والتي سيعرض الباحث بعضها على سبيل البيان والإيضاح، ومن أشهر هذه الأسباب تقوى الله سبحانه والخوف منه، وكذلك الإيمان والعمل الصالح، وإخلاص العبادة والدين له وحده سبحانه.

أولاً: الإيمان والتقوى.

قرن القرآن الكريم كثيراً في آياته بين الإيمان والتقوى، ووضح أنهما من أسباب نيل السعادة في الآخرة، وأنهما مجتمعين أو مفترقين من أهم الأسباب التي تدخل العبد الجنة، ويفوز فيها برضى مولاه وخالقه، فنجد الحق سبحانه في معرض حديثه عن متاع الدنيا وزينتها وما فيها من النعم واللذات أراد أن يلفت انتباه عباده إلى ما هو خير من هذا المتاع، موضحاً كيفية الحصول عليه من خلال التقوى، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.. * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١). والله تعالى يقرر في هذه الآية الكريمة أن ثوابه خير من مستلذات الدنيا، ومما زين للناس، إن للذين اتقوا ثواباً مضموناً عند ربهم، هو جنات تجري من تحت ظلال أشجارها الأنهار، يتمتعون بالحياة الطيبة فيها لا يساورهم خوفٌ من زوال نعيمها إذ كتب لهم الخلود فيها، وأزواج طاهرة نقية من كل ما يشين نساء الدنيا، وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله، وأوسطها الجنة ونعيمها، والله مطلعٌ على أحوال عباده، لا يخفى عليه شيء، بصير بأحوال الذين اتقوا، فلذلك أعد لهم تلك الجنات، وقد أبهم سبحانه الخير في الآية، لتفخيم شأنه، والتشويق إليه، فهو أفضل من نعم الدنيا ومستلذاتها، لأن نعمها مشوبةٌ بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونعم الآخرة خالية من المضار، وباقية بلا نهاية (٢).

---

(١) آل عمران ، (١٤-١٥) .

(٢) انظر: المنتخب في التفسير – مجموعة من العلماء – ص٧٢ . أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص١٥١-١٥٢ . المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٣٠٧ .

وأما مناسبة الآية بما قبلها فالآية تفضيل وتفصيل، فهي تبين ما هو أفضل من زخارف الدنيا وزينتها التي جرى تعدادها في الآية السابقة، وهي تفصيل لقوله تعالى: " والله عنده حسن المآب ". وقوله تعالى: " قل أؤنبئكم " استفهام تقريري لاجتذاب الأنظار وتشويق النفوس إلى الجواب، ثم أجاب عن الاستفهام: للمتقين جنات وهي في الآية مبتدأ، وخبره المقدم: للذين اتقوا. تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وزوجات طاهرات من النقائص والفواحش والشوائب، وقد اشتملت الآية على نوعين من الجزاء للمتقين: جزاءٌ مادي وهو الجنة والأزواج المطهرة، وجزاءٌ روحي وهو الرضوان الذي لا يشوبه شيء، وهو أعظم وأكبر من كل نعمة ولذة مادية (١).

وقد بين الحق تبارك وتعالى أن الإيمان والتقوى من أسباب دخول الجنة ونعيمها وأن من امتنع عنهما منع من دخول الجنة ونعيمها. وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك صراحةً موضحاً أن أهل الكتاب لو آمنوا واتقوا لأدخلهم الله جنات النعيم، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٢).

والمعنى المراد من الآية: لو أن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى آمنوا بالله ورسوله، وبما جاء به رسوله $ كونه مصدقاً لما بين أيديهم، واتقوا الله فيما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفر الله عنهم سيئاتهم التي اقترفوها، حتى لو كانت في غاية العظم ونهاية الكثرة، ولم يؤاخذهم بها، ولأدخلهم مع ذلك كله جنات النعيم، وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم، وكثرة معاصيهم، وأن الإسلام يجبّ ما قبله من السيئات مهما كانت، والمعنى لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود (٣).

وقد بين القرآن الكريم في معرض حديثه عن ثمرات الإحسان وأجر المحسنين أن ما ينتظرهم في الآخرة خير من هذه الثمرات، ثم بين صفة هؤلاء المحسنين وكشف النقاب عنها فقال تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٤).

فبعد أن ذكر القرآن في الآية السابقة أن الله لا يضيع أجر المحسنين العاجل في الدنيا، أوضح أن الأجر الذي أعده الله لهم في الآخرة هو النعيم المقيم الذي لا نفاد له، وقد نبه تعالى على أن المراد بالإحسان الإيمان والثبات على التقوى، المستفاد من الجمع بين صيغتي الماضي والمضارع المستمر (٥).

---

(١) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج٣ص١٧١-١٧٢ .
(٢) المائدة ، (٦٥) .
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص٦٧ . أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٢٧٥ .
التفسير المنير – الزحيلي – ج٦ص٢٥٣ .
(٤) يوسف ، (٥٧) .
(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٢ص٦٠٨ .

وقد أخبرنا القرآن أن الذين يرثون الجنة هم الأتقياء، ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ (١). فالأتقياء هم الموعودون بهذا الميراث يتمتعون به كما يتمتع الوارث بمال المورث، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك، حيث أنها لا تعقب بفسخ ولا إبطال، وقد قيل أن المتقون يرثون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادة في حسرة الكفار (٢). وكذلك أخبر القرآن أن من يخشى الله ويتقه ويستحضر عظمته، فأولئك هم الفائزون برضى الله ومحبته، ونعيم الجنة، والفائزون بالخير المطلق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٣).

وهؤلاء المتقون الذين تحدث القرآن عنهم مطولاً، بين القرآن بعض ما أعده الله لهم في الجنة من أصناف النعيم الذي ينتظرهم، قال تعالى: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (٤). وهذه الغرف المحكمة البناء هي القصور الشاهقة ذات الطبقات المزخرفة العالية، وهذه العلالي وإن كان بعضها فوق بعض لكنها قوية ومتينة، تجري الأنهار من تحتها من غير تفاوت بين العلو والسفل، وهذه الأنهار العذبة تعطي الجنة كمال الرونق والبهجة ليكتمل حسن الجزاء (٥). قال ﷺ: " **إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين** " (٦).

وهؤلاء الأتقياء يساقون يوم القيامة إلى الجنة زمراً مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيقت مراكبهم، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، " زمراً " متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل والدرجة، وعند مجيئهم تفتح لهم أبواب الجنة فيرون ما ينتظرهم من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧). وفيه دليل على أن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم (٨).

---

(١) مريم ، (٦٣) .

(٢) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص٣١١ .

(٣) النور ، (٥٢) .

(٤) الزمر ، (٢٠) .

(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٤٤٧ . التفسير المنير – الزحيلي – ج٢٣ص٢٦٩ .

(٦) صحيح البخاري – كتاب الرقاق(٨١) – باب صفة الجنة والنار(٥١) – ص(١٢٥٤) – رقم(٦٥٥٥).

وصحيح مسلم واللفظ له– كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها(٥١)– باب ترائي أهل الجنة-ص(١٣٩١)– رقم(٧٠٣٨).

(٧) الزمر ، (٧٣) .

(٨) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٤ص٤٦٧.

ثانياً: الإيمان وعمل الصالحات .

الإيمان بالله تعالى له أثر كبيرٌ على حياة الإنسان، لا سيما إذا اقترن هذا الإيمان بعمل الصالحات، وأثر الإيمان والعمل الصالح يتعدى الحياة الدنيا، ليصل إلى الآخرة، حيث يكون سبباً مهماً من أسباب دخول الجنة، وتحصيل نعيمها، بل والخلود فيه أبداً، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم كثيراً حينما أخبرنا بأحوال هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وبأن البشرى تلازمهم كلما فتحوا أعينهم على آيات الكتاب العزيز لتخبر عن سعادتهم وعن النعيم الذي ينتظرهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١). وفي هذه الآية يأمر الحق تبارك وتعالى نبيه بأن يبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بأن لهم حدائق وبساتين في جنان الخلد، ودار النعيم المقيم، تجري من تحت قصورها ومساكنها الأنهار، والبشارة هي الخبر السار، الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، وعطف العمل الصالح كالبناء عليه، ونعيم الجنة غير محدود ورزقها لا ينقطع، وإنما أراد الله أن يقرب لعقولنا ما أعد فيها بهذه الآية وغيرها (٢).

وهذه البشرى التي ذكرت في الآية الكريمة فصلتها الآية تفصيلاً رائعاً، فهي جنات وليست جنةً واحدة متفاوتة حسب تفاوت الأعمال، جاء في الحديث الشريف: " **في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام** " (٣).

وهذه الجنات تجري من تحتها انهار مختلفة الطعم واللون، فمنها أنهار اللبن، ومنها أنهار العسل، وأخرى بالخمر المليء باللذة التي لا تُذهب العقل، ويؤتون فيها بثمار متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفة في الطعم، ولهم في الجنة أزواج مطهرة من الحور العين، ليس بهن دنس ولا حيض ولا غير ذلك، وهم مع هذه النعم خالدون في تلك الجنة أبداً، يعيشون مع أزواجهم دون زوال أو انقطاع (٤).

والجنة هي كل بستان ذي شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظلل ما تحته ويستره، ولذلك سميت الجنة بالجنة، وهي سبع درجات، جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليّون، والأزواج المطهرة في الجنة مطهرات من كل قذرٍ حسي ومعنوي (٥).

---

(١) البقرة ، (٢٥) .

(٢) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٥٥ . التفسير المنير – الزحيلي – ج١ص١٠٧ .

(٣) سنن الترمذي– كتاب صفة الجنة عن رسول الله(٣٧)– باب ما جاء في صفة درجات الجنة(٤)– ص(٥٦٩)– رقم (٢٥٢٩). وقال: حسن صحيح- وسنن ابن ماجة– كتاب الزهد(٣٧)– باب صفة الجنة(٣٩)-ص(٧١٨)- رقم(٤٣٣١).

(٤) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ص٥٦ . أنوار التنزيل – البيضاوي – ج١ص٤١ .

(٥) انظر: صفوة البيان – حسنين مخلوف – ص١٠ .

وعوضاً عن الآيات التي حملت البشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فإن القرآن الكريم بين أن هؤلاء أيضاً لهم حسن المآب والمرجع، الذي فيه ما تتمناه نفوسهم، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (١). الذين آمنوا وعملوا الصالحات مبتدأ خبره جملة " طوبى لهم "، وجاز الابتداء بطوبى لأنها علم لشيء بعينه، وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء كسلام عليك، وتأويلها الحال المستطابة، قال قتادة: طوبى لك أي: أصبت خيراً، وقال ابن عباس: فرح وقرة عين، وقيل: غبطةٌ لهم، وقيل: حسنى لهم، وقيل: هي شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنة، وقيل: خير لهم، وقيل: كرامة لهم، وهذه الأقوال في معظمها شيء واحد لا منافاة بينها ولا فرق، ويرجح القول بأنها شجرة في الجنة، ما روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً " **طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها** " (٢).

والمعنى المراد أن المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات، وأحسنوا في الدنيا لهم طيب العيش، وحسن المرجع والمقر وهي الجنة (٣).

ومن الآيات التي تحدثت عن حال الذين يعملون الصالحات، قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾(٤).

وهذه الآية الكريمة تتحدث عن أولئك الذين تداركوا أنفسهم بالتوبة، وصدقوا في إيمانهم وعملوا الصالحات، فإن الله يدخلهم الجنة، ويوفيهم أجورهم، وهذه الجنات هي دار الخلود التي وعد الرحمن بها عباده المؤمنين بالغيب، فهم داخلوها لا محالة بمقتضى وعد الله، لأن وعده لا يتخلف، وتلك الجنات لا يسمع فيها إلا الخير والأمن، ورزقهم فيها واسع ومكفول دائماً. (٥)

والتوبة هنا هي التي تنشئ الإيمان والعمل الصالح، فلا يلقى أصحابها " غياً " إنما يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً، يدخلون الجنة للإقامة فيها، الجنة التي وعد الرحمن عباده بها، فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها، ثم يرسم القرآن صورةً للجنة ومن فيها، فلا فضول في الحديث، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي. صوت السلام، والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب، أو كد(٦).

---

(١) الرعد ، (٢٩) .

(٢) صحيح ابن حبان- (ج١٦/ص٤٢٩)- رقم(٧٤١٣). قال الألباني: صحيح لغيره، انظر: الصحيحة (ج٤/ص٦٣٩) - رقم(١٩٨٥).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٤ص٢٦٢. فتح البيان – القنوجي – ج٧ص٥٥ . المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري– ج٣ص٢٧ .

(٤) مريم ، (٦٠ ، ٦١) .

(٥) انظر: المنتخب في التفسير – مجموعة من العلماء – ص٤٥٠.

(٦) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢٣١٤-٢٣١٥.

يتأكد هذا الوعد بالجنة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مرةً أخرى في سورة لقمان في قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

قال ابن كثير: " هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله، " لهم جنات النعيم " أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب. والنساء والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً، وقوله تعالى: " وعد الله حقاً " أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله، لا يخلف الميعاد " (٢).

ونحن نرى أن الإيمان هنا اقترن بالعمل الصالح، لأن الإيمان ليس بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل والذي حكم ووعد بالجنة لهم هو العزيز الحكيم، و " لهم جنات النعيم " أي لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة، وقوله: " وعد الله حقاً " مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره، لأن قوله لهم جنات وعد وليس كل وعد حقاً (٣).

ثالثاً: العبودية الخالصة لله.

تقدم القول أن الإيمان والعمل الصالح من أهم أسباب تحصيل النعيم المقيم والخلود فيه، ولكن هذا الإيمان والعمل الصالح يجب أن يكون مقروناً بالإخلاص للمولى المنعم سبحانه وتعالى، ونقصد بالإخلاص، إخلاص الدين والتوجه له جل شأنه بعيداً عن الشرك والرياء لأنهما من موجبات إحباط العمل الموصل إلى دخول النار، ونظراً لأهمية الإخلاص في القول والعمل، وكون العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً، كان لا بد لنا من الحديث عن الإخلاص في العبادة والتي توصل صاحبها إلى رضوان المولى تعالى، وإلى جنته ومستقر رحمته، وتكون سبباً في قبول العمل، والجزاء الحسن عليه في الآخرة، وهذا ما أكده القرآن الكريم في آيات متعددة، وفي مرات متكررة منبهاً إلى هذه الحقيقة الهامة قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٤).

وفي هذه الآية كما هو واضح يخبر الحق سبحانه أن من كان يرجو لقاء ربه، والرجاء: توقع حصول الخير في المستقبل، وهذا الرجاء هو شأن المؤمنين، فهم الذين يصدقون ويوقنون بلقاء الله تعالى في الآخرة، وهم الذين يشفقون من عذابه، ويرجون رحمته، ويأملون في جنته، وفي النعيم المقيم الذي أعده لعباده الصالحين، الذي لا نهاية له ولا زوال، ويحسنون الظن والرجاء فيه جل شأنه.

---

(١) لقمان ، (٨ ، ٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم – ج٦ص١٤٦ .

(٣) انظر: في رحاب التفسير – عبد الحميد كشك – ج٥ص٣٩٦٤ . أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص٢٢٧ .

(٤) الكهف ، (١١٠) .

تُبين الآية الكريمة شرط حصول هذا الرجاء في دخول الجنة، بأنه العمل الصالح الذي لا شرك فيه، ولا رياء، ولا نفاق معه لأحد (١).

قال الزمخشري: " فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول .. فلا يشرك بالعبادة معه غيره ولا يرائي بعمله، ولا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط معه غيره " (٢).

وأقول: إن من يجمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وهو الفائز حتماً في دنياه وآخرته، وهو الذي استحق أن تناله نعمة ربه ومولاه فيُدخل في نعيم الجنة.

والله سبحانه قد وعد المخلصين من عباده الذين أخلصوا دينهم له وعملوا الصالحات غير مشركين معه غيره بالأجر العظيم والجزاء الكريم قال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣).
وهذه الآية أيضاً فيها وعدٌ لمن تاب من القبيح من الأعمال، وأصلح عمله طالباً مرضاة ربه، وهذا الطلب كان خالصاً له تعالى، ولا يمتزج به أي غرض آخر، عند ذلك يكون الجزاء بأن يدخل من فعل ذلك في زمرة المؤمنين، والله تعالى سوف يؤتي المؤمنين أجراً عظيماً (٤).

وأخبر تعالى أن من تاب وأصلح واعتصم سوف يكون مع المؤمنين في رحمة الله وفي منازل الجنة، ثم وعد المؤمنين بالأجر العظيم في الآخرة، وقد نكَّرَه ولم يعرفه ليعظم في النفوس ويكبر (٥).

والإخلاص يتطلب من المؤمن إصلاح الظاهر والباطن وهو ما أوضحته الآية الكريمة، والدين المقصود هو الإسلام، والمراد أن يقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأن يسلموا من الرياء والنفاق، والأجر العظيم الذي تحدثت عنه الآية لا يعلم كنهه إلا الله، وتأمل كيف أن الله خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع كونهما داخلان في قوله " وأصلحوا " لأن الاعتصام والإخلاص، من جملة الإصلاح لشدة الحاجة إليهما، ولأن الإخلاص ينافي النفاق والرياء كل المنافاة فلا بد من ذكره والإتيان عليه، ولذلك عقب على وجوده بتحصيل الأجر العظيم الذي يلقاه المؤمنون عند ربهم في الجنة (٦).

---

(١) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ص٥٤٧ . فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٤٠٠ .
(٢) الكشاف – ج٢ص٧٢١ . " بتصرف " .
(٣) النساء ، (١٤٦) .
(٤) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١١ص٧٠ .
(٥) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج١ص٧٠٧ . المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٢ص١٢٨ .
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج١ص٤٣٢ .

وقد فصل القرآن الكريم ذكر بعض أنواع الثواب الذي ينتظر المؤمنين المخلصين في الآخرة، وبين ما ينتظرهم في الجنة. قال تعالى في معرض حديثه عن المكذبين بالرسل، وعن العذاب الذي ينتظرهم. بعد أن استثنى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (١).

وهذا الاستثناء منقطع أي أن المخلصين هم الناجون من هذا العذاب، ثم شرع يبين ما أعده لهم في الجنة، والله تعالى وصف رزقهم بأنه معلوم، واختلف في كونه معلوم فقيل: هو معلوم الوقت أي بكرةً وعشياً، وقيل: معلوم الصفة من طيب الطعم، والرائحة، وحسن المنظر، وقيل: معلوم دوامه وعدم زواله، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً، بين هذا الرزق فقال: " فواكه " وهي تؤكل لأجل التلذذ وليس للحاجة، ثم بين أن ذلك الأكل حاصل مع التكريم والإعزاز، وأما قوله: " في جنات النعيم على سرر متقابلين " فهي ليست جنة، وإنما جنات، ولا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب، ثم بعد الحديث عن صفة المأكل والمسكن ذكر صفة الشراب، وهي الكأس المعين، وهي الخمر الصافية التي تخرج من العيون كما يخرج الماء، وصفة الخمر أنها بيضاء، مع ما فيها من اللذة (٢).

وقد خص الله سبحانه عباده المخلصين بهذا الجزاء لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته ودار كرامته وهي الجنة، وقوله تعالى: " في جنات النعيم " أي: الجنات التي، النعيم وصفها، والسرور نعتها، فيها السُرر التي يتقابل عليها المؤمنون، فلا ينظرون إلى بعضهم إلا مواجهةً، وليس بالقفا، وفيها خمر لا تغتال العقول فتذهب بها، ولا يصيبهم من شربها صداع أو مرض، ولا ينزفون أي لا يسكرون، وفيها قاصرات الطرف من الحور العين والأزواج الحسان، اللواتي قصرهن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم، وهن أصحاب العيون الواسعة، وقيل: الشديدات بياض العين، كأنهن بيض النعام تُكِنّه النعامة بريشها، فلونه أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء، وقيل: المكنون المحفوظ والمصون عن الكسر، فهن عذارى كاللؤلؤ المصون أن تمسه الأيدي (٣).

قلت: كل هذا وأمثاله من أصناف النعيم المقيم، جعله الله، ووعد به عباده المخلصين له، الذين لم يراقبوا غيره، ولم يريدوا بأعمالهم سوى وجهه الكريم، فاستحقوا بهذا الإخلاص في الأعمال والعبادة الأجر العظيم، والثواب الكبير، الذي فصلته هذه الآيات الكريمة، وغيرها من الآيات في ذات السياق.

---

(١) الصافات ، (٤٠-٤٩) .

(٢) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج٢٦ص١١٩ .

(٣) انظر: فتح القدير – الشوكاني- ج٤ص٤٦٩-٤٧٠ . تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٤ص٢٥٨ .

الفصل الرابع

من أسباب زوال النعمة وضياعها

أولاً: كفر النعمة وجحودها .

ثانياً: تغيير الأنفس .

ثالثاً: التكذيب بالرسل .

رابعاً: الفرح والفخر والبطر .

خامساً: ظلم الإنسان .

سادساً: إستعمال النعمة في الصد والإضلال عن سبيل الله .

أولاً: كفر النعمة وجحودها .

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الكفر والجحود وحقيقته .

المطلب الثاني: كفر إنكار وجحود النعمة .

المطلب الثالث: كفر الاستكبار والإعراض عن النعمة .

المطلب الرابع: تبديل النعمة بالكفر .

الفصل الرابع

من أسباب زوال النعمة وضياعها

المقدمة:

سبق أن تحدثنا في الفصل السابق عن أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة، وأهم العوامل التي تؤثر في زيادتها واتصالها بالعبد، وبيَّنا أن الله سبحانه قد هيأ تلك الأسباب لعباده، وكشف لهم عنها في كتابه العزيز، وألهمهم معرفتها، مما يمكنهم من الحفاظ على النعم من الزوال والضياع.

وفي هذا الفصل الذي نحن بصدده، والذي يُعدُّ متمماً ومكملاً للفصل السابق، سنبين أهم أسباب زوال النعمة وضياعها، كما ذكرها القرآن الكريم بين ثنايا سوره وآياته، وإن من نعمة الله علينا أن أوضح لنا هذه الأسباب، وكشف لنا النقاب عنها لننتبه إليها، ونحذر منها، ولا نقع فيها، فتزول عنا نعمه، وتتحول عنا عافيته.

وهذه الأسباب منها ما يؤدي إلى زوال النعمة مباشرة عن العبد، وحلول النقمة مكانها، ومنها ما يؤثر جزئياً في بقاء النعمة على حالها، فيضعف أثرها على العبد، وتتحول عنه شيئاً فشيئاً. خصوصاً إذا أضيفت هذه الأسباب وغيرها إلى بعضها البعض، وتظافرت مجتمعةً لتؤدي إلى زوال النعمة وضياعها، ومحق البركة منها، وسيعرض الباحث من خلال المبحثين التاليين إلى أهم هذه الأسباب، وإلى جانب من الآيات التي تطرقت إليها مع ذكر أقوال أهل التفسير فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أولاً: كفر النعمة وجحودها.

لا شك أن كفر النعمة وجحودها من أهم أسباب زوالها، وانقطاعها، وضياعها من بين يدي العبد، وذلك أن كفر النعمة وجحودها يعني أول ما يعني الكفر بالمنعم الذي أنعم بها، وإنكار فضله ومَنِّه، ثم يعني بعد ذلك عدم الاعتراف بالنعمة، وعدم نسبتها إلى المنعم الحقيقي، وكذلك فإن كفر النعمة وجحودها يعني عدم شكر من أسداها وأولاها، وفي ترك الشكر جحود كبير لحق المنعم جل شأنه، وظلم لهذا الحق، وظلم للنفس، إذا إن الفطرة السوية مجبولةٌ على الإحسان لمن أحسن إليها، وأسدى إليها الجميل، وفي هذا المبحث سيتطرق الباحث لتعريف الكفر والجحود، ولبيان حقيقته. وسيتبعه حديث عن الآيات التي تطرقت إلى الإنكار والجحود، ثم بيانٌ لكفر الإستكبار والإعراض عن النعمة والمنعم، كما أوضحها القرآن الكريم، ثم سيتبعه حديث عن سبب مهم جداً من أسباب زوال النعمة وهو تبديلها بالكفر والجحود، بدل ما كان يلزم من الإعتراف، والإقرار، والتصديق، والشكر، والثناء على المنعم، وغير ذلك مما تستوجبه الفطرة السليمة، والعقل الفطن، والمشاعر النبيلة تجاه الخالق المنعم المتفضل جل شأنه، وتعالت حكمته، وعظمت رحمته.

المطلب الأول: تعريف الكفر والجحود وحقيقته.

أولاً: تعريف الكفر لغةً وشرعاً:

الكفر لغةً: ستر الشيء وتغطيته، يقال لمن غطى درعه بثوبه: قد كفر درعه، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر في الأرض، وكذلك يوصف به البحر، والوادي العظيم، والنهر الكبير، والسحاب المظلم.

وكفر النعمة، وكفرانها: سترها بترك آداء شكرها، وعدم نسبتها إلى من أولاها وأسداها، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر. ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ .. ﴾(١)

والكافر على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها. وعني بالكافر: الساتر للحق، المغطي لما أُمر بإظهاره وكشفه وبيانه من الحق.

والكفور: المبالغ في كفران النعمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾(٢) وهذا تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة، وقلة ما يقوم بأداء الشكر، ولذلك قال الحق:﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾(٣) وقال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾(٤) وفيه تنبيه على أنه عرَّفه الطريقين فمن سالك سبيل الشكر، ومن سالك سبيل الكفر (٥).

الكفر شرعاً: هو ضد الإيمان والتسليم، وهو تغطية الحق وكتمانه، وإظهار ما يخالفه، وقيل الكفر: عدم الإيمان عما من شأنه الإيمان به. والكفر ملةٌ واحدةٌ لأن شريعة محمد ﷺ: هي الحق بلا شك، والناس بالنسبة إليها فرقتان، فرقةٌ تقر بها وهم المؤمنون قاطبةً، وفرقةٌ تنكر بأجمعهم وهم الكفار كافة. وقيل: الكفر: هو جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة، أو جميعها، وهو في الدين أكثر استعمالاً وشيوعاً من غيره، ولذلك يقال كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر، ويقال كافرٌ لمن ستر الحق ولم يظهره، وجحد حق الله بالعبادة، والوحدانية، ويقال كفر فلان إذا اعتقد الكفر، ويقال

---

(١) البقرة ، (٤١) .

(٢) الزخرف ، (١٥) .

(٣) عبس ، (١٧) .

(٤) الإنسان ، (٣) .

(٥) انظر: هذه الخلاصة في:

معجم مقاييس اللغة – ابن فارس – ص٩٣١ .

والمفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٤٣٣-٤٣٥ .

والكليات – الكفوي – ص٧٦٣ .

ذلك إذا أظهر الكفر وإن لم يعتقد، ولذلك قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. ﴾(١)

والكفران: تغطية نعم الله وفضله بالجحود، وهو في جحود النعمة وإنكارها أكثر استعمالاً. (٢)

ومما سبق لا يجد الباحث كبير فرق بين التعاريف السابقة إذ أنها تدور في فلك واحد، ويمكن أن ندخلها في بعضها بالقول إن الكفر: **هو عدم الإيمان بالحق، وتغطيته، وستره، مما ينتج عنه جحود الخالق، وإنكار وحدانيته وفضله على الخلق.**

ثانياً: تعريف الجحود لغةً وشرعاً:

الجحود لغةً: الجيم والحاء والدال، أصل يدل على قلة الخير، يقال عام جحدٌ، قليل المطر، ورجل جحد فقير، والجحد من كل شيء القلة، وأَجْحَدَ الرجل وجَحِدَ إذ قل ماله وذهب. وأرض جحدة قليلة النبت والخير. (٣)

الجحود شرعاً: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه، يقال جحد جحوداً وجحداً إذ نفى ما يُقر به قلبه ويُثبته، أو أثبت ما هو منفي في القلب، أو فعل ما يخالفه في الواقع، وعلى هذا يكون الجحود ضد الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد بأنه صحيح، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴾(٤) (٥). والمعنى أنهم أنكروا هذه الآيات في ظاهر أمرهم، وكانت نفوسهم مستيقنة بها، رغم تكذيبهم لدلالتها على صدق النبوة، وقد علموا أنها حق من عند الله، ولكن جحدوا، وعاندوا، وكابروا عن إتباع الحق، لاستعلائهم بالباطل مع وجود اليقين الملزم للتصديق. (٦)

وجحود النعمة يكون مثلاً بأن ينكر نعمة الله رغم علمه بأنها من الله، أو يفعل فعل المنكر لنعمة الله فلا يشكرها فيكون جحوداً لها.

ثالثاً: حقيقة كفران النعمة وجحودها:

إن لكفران النعمة وجحودها حقيقة تتضح وتتجلى من خلال كيفيات، وصور متعددة. ينبغي على المسلم أن يلاحظها، ليقف على هذه الحقيقة حتى لا يقع في الجحود والكفران، ومن أهم الصور التي توضح حقيقة الكفران والجحود ما يلي:-

---

(١) النحل ، (١٠٦) .
(٢) انظر: هذه الخلاصة في: معجم مقاييس اللغة – ابن فارس – ص٩٣١ .
والمفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – ص٤٣٣ . والكليات – الكفوي – ص٧٦٣ .
(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة – ابن فارس – ص٢٠٢ . والمفردات – الأصفهاني – ص٨٨٥ .
(٤) النمل ، (١٤) .
(٥) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص٨٨٥ ، ومعجم مقاييس اللغة – ابن فارس – ص٢٠٢ .
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٦ص٥٦ ، والمنتخب في التفسير – مجموعة من العلماء – ص٥٦٤ .

١ - نسبة النعمة لغير واهبها:

فالنعم كلها من الله وحده، فهو سبحانه مصدر كل نعمة على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ... ﴾(١) وكل نعمة اتصلت بالعبد سواءً كانت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فهي من الله تعالى، ولا يعني هذا أن ننفي النعمة الواصلة عن طريق العباد، فقد يكون العبد منعماً على غيره، كنعمة الوالد على ولده، ونعمة المحسن إلى المحسن إليه ... وشكر المُنعِم من العباد واجب، ولا يعارض ذلك شريعة الله، ولكن مع الشعور بأن الله هو مصدر النعمة، فهو الذي ألهمهم هذا الإحسان، فزرع في قلوبهم الرحمة والرأفة وحب الخير ... فمن شُكر النعمة أن تنسب النعمة إلى مصدرها، ومن أولاها وأسداها، ومن جحود النعمة أن تنسب النعمة لغير واهبها، فمن آتاه الله نعمةً فعليه أن ينسب هذه النعمة إلى الله لا إلى نفسه، وإن كان هناك أسباب للرزق، لكن الرازق والواهب الحقيقي هو الله تعالى، قال جل شأنه: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) والآية تبين أن هناك نوعاً من البشر عند مس الضر يلجأ لجوءاً صادقاً لربه، ثم إذا أعطاه مولاه، وتفضل عليه بنعمةٍ، قال حين ذلك: ما أوتيت هذه النعم إلا لعلم مني بوجوه كسبها، وقيل: على خيرٍ عندي، وقيل: على علم من الله بفضلي، وفات هذا الإنسان أن الأمر ليس كما قال، بل هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه اختبار له ليتبين له الطائع من العاصي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنها اختبار وفتنة. (٣)

وقد ينسب إيتاء النعمة إلى جهده الشخصي، وينسى المنعم الحقيقي. وهذا قارون، يعطيه الله من الأموال الشيء الكثير، ولكنه يطغى ويتكبر، وينسب إيتاء المال لنفسه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ...﴾(٤)، ولكن المال العظيم جعله يطغى، وينسب هذه النعم والكنوز لنفسه، وينسى المنعم الحقيقي: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي...﴾(٥)، والمعنى: ما أوتيت هذا المال الذي ذكرتموه إلا في حال تمكني من علم راسخ وكلمة " عندي " تأكيدٌ لتمكنه من العلم وشهرته، فنسي فضل الله عليه، وتجاهل أن الله أهلك مِنْ قبله مَنْ هو أكثر قدرةً على كسب المال، وخبرةً بوجوه الاستثمار.(٦)

وهذا قمة الجحود أن تنسب نعمة الله التي وهبها لك لنفسك، وجهدك، وعلمك.

---

(١) النحل ، (٥٣).

(٢) الزمر ، (٤٩).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٨ص٢٢٦. والمنتخب في التفسير – مجموعة من العلماء – ص٦٩٠.

(٤) القصص ، (٧٦).

(٥) القصص ، (٧٨).

(٦) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٠ص١٨١.

قال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: " إنما أوتيته على علم ": ".. قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم، أو صنعةٍ، أو حيلةٍ يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان، غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق " (١).

ويدخل في هذا الجانب كفران النعم وإنكار حصولها، فجحود المنعم هو أن ينكر كل نعمة منه، أو ينكر أن الله مصدر هذه النعمة وواهبها، سواءً كان المنعم هو الله تعالى مباشرةً، أو بواسطة العباد.

٢ - أن لا يقبل نعمة الله ويعلن رفضها:

إن رفض نعمة الله التي يهبها للعبد، تبين حقيقة جحود هذا العبد لنعمة الله، فبدلاً من أن يقبل هذه النعمة ويشكر الله عليها، فإنه يرفض هذه النعمة رفضاً تاماً، أو أنه يريد غيرها، وبنو إسرائيل شر مثال على ذلك، فلقد أعطاهم الله نعماً عظيمة ومتعددة، ومنَّ عليهم في شرابهم ففجر لهم اثنتي عشرة عيناً، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، لكنهم ملوا هذه النعمة، وأعلنوا رفضهم لها، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ... ﴾ (٢).

" لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً ... ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من اجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا الصحراء ... لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة ... ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية ... إنهم يريدون الأطعمة المُنوَّعة التي ألفوها في مصر. يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء .. وما إليها " (٣).

وقوم سبأ منحهم الله الكثير من النعم فقد جعل أراضيهم جنات، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ... ﴾. (٤) والمعنى أينما يسير الرجل يجد عن يمينه جنة، وعن شماله جنة، ثم إنه تعالى جعل بين قراهم وبين القرى التي بارك فيها قرى ظاهرة.

---

(١) في ظلال القرآن – ج٥ص٣٠٥٧.
(٢) البقرة ، (٦١).
(٣) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج١ص٧٤.
(٤) سبأ ، (١٥).

بحيث يأمن المسافر في سفره، ولا يجد ما يجده المسافر في الصحراء من الخوف، قال تعالى: ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾. (١)

هذه هي منن الله عليهم ونعمه، فكيف قابلوها ؟ لقد كان حالهم كحال بني إسرائيل، فقد تكبروا وتجبروا، ورفضوا تلك النعم، وبطروا تلك المعيشة الرغيدة، فقد طلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بحجة أن شهوتهم للثمار أفضل كلما بعدت المسافة، ونسوا نعمة المتفضل المنعم عليهم، قال تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾. (٢)

قال أبو السعود: " بطروا النعمة، وسئموا العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المنّ والسلوى، قالوا: لو كان جني جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه.."(٣)

٣ - بطر نعمة الله وعدم القيام بحقها:

إن بطر النعمة يعني الزهو بها والتعاظم على الآخرين بحصولها، وسوء استخدامها، وعدم القيام بحقها من الشكر، وصرفها فيما جعلت من أجله. قال الراغب: " البطر دهشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها في غير وجهتها ". (٤)

وهذا كله يمثل حقيقة جحود النعمة، والتكبر بالنعمة على الخلق والبطر يؤدي بالإنسان إلى الهلاك.

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ... ﴾. (٥)

وإن الأموال والأولاد نعمتان من نعم الله تعالى، وحق النعمة أن تقابل بالشكر، لا بالفخر والبطر. ومن الواجب على الإنسان أن يعلم أن نعم الله إنما يعطيها للمؤمنين وللكافرين، حسب مشيئته وحكمته، فقد يوسع على المؤمنين مكافأة لهم على عملهم الصالح، ليزداد بالنعمة صلاحهم، فيغدق عليهم المال، ليمحص إيمانهم، وقد يغدق على الكافرين ليزدادوا إثماً وبغياً، وقد يضيق عليهم عقاباً لهم في الدنيا قبل الآخرة، وليس كل من أفاض الله عليه نعمة هو من المقربين كما يزعم المشركون، وبناءً على ما تقدم فإن الافتخار، والزهو، والبطر بالنعم يعد من وجوه الجحود. إذ تتجسد في هذه الصورة حقيقة الكفران والجحود لنعمة الله.

٤ - نسيان المنعم والنعمة:

وهذه الصورة من أهم الصور التي تظهر فيها حقيقة الجحود، إذ ينبغي للمرء أن يكون دائم الذكر للنعمة، فلا يجوز له تناسيها أو الغفلة عنها.

---

(١) سبأ ، (١٨).

(٢) سبأ ، (١٩).

(٣) إرشاد العقل السليم – ج٤ص١٢٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن – ص٥٠.

(٥) القصص ، (٥٨).

ولعل ذكره للنعمة يعني ذكره للمنعم، وشكره له، وثناؤه عليه، وكذلك ينبغي للمرء ابتداءً ألا يغيب عنه ذكر المنعم المتفضل، فالله وحده هو المنعم. ولكنه لا يتذكر ذلك من تلقاء نفسه، وهذا جحود نسيان لا جحود نكران.. فمن الشكر تذكر النعمة، ومن الجحود نسيانها، ولذلك لا عجب أن نجد القرآن الكريم يكثر من التذكير بنعم الله، كما كان من بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

فنسيان المنعم وعدم تذكره، وجحود نعمته بالنسيان المتعمد يمثل شكلاً من أشكال الكفران والإنكار لفضل المنعم جل شأنه، وهذا ما نبه عليه النبي ﷺ: حين قال: " **قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب، وأما من قال بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب** " (٢).

المطلب الثاني: كفر إنكار وجحود النعمة:

إن من أهم أسباب زوال النعمة وضياعها، كفر إنكارها وجحودها، وذلك أن الإنكار والجحود يؤدي إلى الكفر بالنعمة وبالتالي الكفر بالمنعم الذي أولى تلك النعم وأسداها، ولقد تحدث القرآن عن ذلك مطولاً في ثنايا سوره وآياته الكريمة محذراً من الوقوع في هذا الكفر تارةً، ومنكراً على من وقع فيه تارةً أخرى، وواصفاً لمن وقع في إنكار النعمة بالكفر ثالثةً وهكذا، ولعل تلك المساحة التي أفردها القرآن للحديث عن كفر النعمة وجحودها، يدل دلالةً واضحةً على مدى اهتمام القرآن الكريم بهذا الموضوع، لئلا يقع فيه أحد، ولذلك نجد القرآن الكريم يحدثنا عن ذلك، قال تعالى في سياق الامتنان على عباده وبيان فضله عليهم، إذ فضَّلَ بعضهم على بعض في الرزق: ﴿ وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾. (٣)

وجملة " أفبنعمة الله يجحدون " مفرعة على جملة " والله فضل بعضكم على بعض في الرزق " باعتبار ما تضمنته من الامتنان، أي تفضل الله عليكم جميعاً بالرزق، " أفبنعمة الله يجحدون " استفهاماً مُستَعْمَلاً في التوبيخ، حيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهةً لا حظ لها في الإنعام عليهم، وهذا جحود وكفران بالنعمة، حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه إلى شركائهم، ويجحدوا كونها من عند الله تعالى. (٤)

---

(١) المائدة ، (٢٠).

(٢) صحيح البخاري-كتاب الآذان(١٠) – باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم(١٥٦) – ص(١٧٢) – رقم(٨٤٦).
وصحيح مسلم – كتاب الإيمان(١) – باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء(٣١) – ص(٦١) – رقم(٧١).

(٣) النحل ، (٧١).

(٤) انظر: التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢١٥. والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص١٣٩.

قال صاحب التفسير المنير في قوله: " أفبنعمة الله يجحدون " : " أي أتشركون بالله بعبادتكم الأصنام، فتجحدون بنعمة الله عليكم ؟ لأن من أثبت شريكاً لله، فقد نسب إليه بعض النعم والخيرات، فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى. أو أتجحدون بنعمة الله عليكم بعد تقرير هذه البيانات، وإيضاح هذه الدلالات على وحدانية الله، والتي يفهمها كل عاقل؟! فهذا إنكار على المشركين جحودهم نعم الله عليهم ". (١)

وهم هنا أي هؤلاء الجاحدون لا يقبلون برد جزء من أموالهم على ملك يمينهم من الرقيق، فما بالهم يردون جزءاً من مال الله الذي رزقهم الله إياه على آلهتهم المدعاة؟ فيرضون لله مالاً يرضونه لأنفسهم، حيث يجازون النعمة بالشرك، بدل الشكر والإقرار بنعمة الله، والاعتراف بها، بدل الجحود والإنكار (٢).

وقد عاب القرآن الكريم على أولئك الذين يتمتعون بنعم الله ورزقه، وأنكر عليهم كفرهم بنعم المنعم المتفضل، كما في قوله تعالى في سياق الامتنان وتعداد النعم على الخلق: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣).

فلما ذكر الله الخلق والرزق في الآية السابقة، أتبعهما بذكر ما يتلذذ به من الأُنس بالجنس من الأزواج والأولاد وغيرهما، ولما ذكر ذلك في معرض النعم أتبعه بذكر ما لا يطيب العيش إلا به فقال: " ورزقكم من الطيبات " ثم أنكر بعد ذلك على من أنكر خيره، وعبد غيره، قال معرضاً عن خطابهم منكراً عليهم: " أفبالباطل يؤمنون " أي بالأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فيجعلونها شريكة له في العبادة يؤمنون بها، وينسبون لها ما لم تفعله، فذلك متضمن لكفران النعمة الكائنة منه، ومتضمن نسبتها إلى غيره. (٤)

قال المنصوري: " ورزقكم من الطيبات من اللذائذ أو من الحلالات، " أفبالباطل يؤمنون " الفاء للعطف على مقدر، أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا، فيؤمنون بالباطل ؟ " وبنعمت الله " الفائضة عليهم مما لا تحيط به دائرةُ البيان " هم يكفرون " حيث يضيفونها إلى الأصنام " (٥).

" وضمير الغيبة في قوله تعالى: " هم يكفرون " ضمير فصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة، لأن كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأن الكفران يتعلق بحالات القلب " (٦).

---

(١) التفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص١٨٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٤ص٢١٨٣.
(٣) النحل ، (٧٢).
(٤) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٤ص٢٩١-٢٩٢.
(٥) المقتطف من عيون التفاسير – ج٣ص١٤٠.
(٦) التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢٢٠.

وآيةٌ نقف معها وقفةً، وهي تشبه التي سبقتها، لأنها في ذات السياق، سياق ذكر النعمة والامتنان على العباد، حيث ذكرت من أسكنهم الله البلد الحرام، وجعل لهم الحرم الآمن، لكنهم لم يراعوا هذه النعم، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (١).

حيث يُذكِّر المولى سبحانه هؤلاء بنعمته عليهم، حينما أسكنهم بلدةً آمنة لا يغزوهم فيها أحد، ولا يتجرأ عليهم أحد، مع قلة عددهم، وفي مكان لا زرع فيه، وكان من الواجب عليهم أن يراعوا هذه النعمة العظيمة التي هم من أعظم النعم، لكن هؤلاء الجاحدين كفروا هذه النعمة التي لا يقدر عليها إلا الله بزعمهم أن لله شريكاً، والاستفهام في الآية إنكاري، حيث جعل الله لهم نعمة أمن بلدهم كالشيء المشاهد، فأنكر عليهم عدم رؤيته مع أنه واضح جلي بمجرد النظر إليه (٢).

وإن إعراض هؤلاء الكفار وجحودهم للنعمة ليس سببه الجهل، لأنهم يعلمون أن الله سبحانه هو مصدر كل النعم عليهم، ولكنهم يعملون عمل من ينكرها حيث لم يشكروه عليها، لأن أكثرهم جمد على تقليد الآباء في الكفر والجحود. قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣).
وهذا استئناف بياني لبيان سبب توليهم عن الإسلام، وبيان كيفية حدوث ذلك منهم، والمعنى أنهم يعلمون أن الله هو من أسدى إليهم تلك النعم، فإنهم منتفعون بها، حيث يجدون هذا النفع في خلق نفوسهم، وإكمال عقولهم، وخلق أنواع المنافع التي ينتفعون بها، ومع تحققهم أنها منه سبحانه، ينكرونها بأفعالهم، حيث يرفضون الدخول في الإسلام، أو يجحدون أصلاً نعمة الله عناداً وكفراً، فلم يخصوه سبحانه بالشكر، ولما عبدوا من لم ينعم عليم فكأنهم أنكروها، حيث جحدوا أن تكون تلك النعم من جهة الله تعالى خاصةً، وقد ذكر مجاهد في سبب النزول أن أعرابياً أتى النبي ﷺ: فسأله فقرأ عليه رسول الله " والله جعل لكم من بيوتكم سكناً " فقال الأعرابي: نعم، قال: " وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً " الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ " كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " فولى الأعرابي فنزلت " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها " (٤)

وهذا الجحود الذي حدثتنا عنه الآية الأولى، والكفران الذي حدثتنا عنه الآية الثانية والثالثة، والإنكار الذي حدثتنا عنه الآية الرابعة هي صفة كل إنسان انتكست فطرته، وفقد إيمانه وطمست بصيرته، وقل أدبه، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن طبيعة هذا الإنسان الجَحود، الكفّار، الظالم لنفسه.

---

(١) العنكبوت ، (٦٧) .
(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٧ص١٥٥. والتحرير والتنوير – ابن عاشور – ج١٠ص٣٤.
(٣) النحل ، (٨٣) .
(٤) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٦ص٢٩٦٣. والتحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢٤٢. وتفسير المراغي – المراغي – ج٥ص١٢٣. ومجمع البيان – الطبرسي – ج٤ص١١٠.

الكفار الظلم لنفسه، والإيمان وحده هو الكفيل بأن يعصم الإنسان من هذا الانحدار الأخلاقي، وهذا الظلم الكبير، وهذه الطبيعة الفاسدة، وقد بين القرآن هذه الطبيعة الفاسدة في حديثه عن الإنسان بعد أن تتدفق عليه نعم مولاه وخالقه التي لا تعد ولا تحصى. قال تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١). ولم يُرد المولى سبحانه الإنسان في عمومه، وإنما أراد الأغلب الأعم ممن لم يحصنه الإيمان ضد هذه الطبيعة السيئة، فالإنسان ظلومٌ يظلم النعمة بإغفال شكرها، شديد الكفران لها والجحود بحقها، والمراد بالإنسان هنا الجنس، فلا يراد به الواحد، بل الجمع، أي من توجد فيه هذه الخِلال بالظلم والكفر، يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها (٢).

" وصيغتا المبالغة في " ظلومٌ كفّار " اقتضاها كثرة النعم المفاد من قوله " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذ أعرضوا عن عبادة المنعم، وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئاً، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله (٣).

قال المنصوري في قوله " إن الإنسان لظلومٌ كفار ": " يظلم نفسه بأن يعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلوم في الشدة، يشكو ويجزع، كفارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها .. ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً " (٤).

وكما تحدث القرآن الكريم عن الإنسان الجاحد الكفار لنعم الله عليه، تحدث كذلك عن حال بعض المجتمعات التي كفرت بنعمة الله، واستبدالها بالجحود والنكران، فلقيت المصير السيئ الذي لم تكن تنتظره. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٥). وهذه القرية حالها يصلح لمن أراد أن يعتبر، وخصوصاً أهل مكة، فقد كان أهلها في أمن من العدو، وطمأنينة من ضيق العيش، يأتيهم رزقهم واسعاً من كل مكان هنيئاً سهلاً، فكفر أهلها وجحدوا نعم الله عليهم، ولم يشكروه، فعاقبهم بالمصائب التي أحاطت بهم من كل جانب، فعمهم الله بالجوع بدل الغنى والشبع، وبالخوف بدل الأمن، وبالألم والحزن بدل السرور، وذاقوا مرارة العيش بسبب كفرهم (٦).

---

(١) إبراهيم ، (٣٤).
(٢) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٣ص٢٥٧.
(٣) التحرير والتنوير – ابن عاشور – ج٧ص٢٣٧.
(٤) المقتطف من عيون التفاسير – ج٣ص٥٩.
(٥) النحل ، (١١٢).
(٦) انظر: المنتخب في التفسير – مجموعة من العلماء – ص٤٠٥. والتفسير المنير – الزحيلي – ج١٤ص٢٥١.

والفاء في قوله تعالى " فكفرت بأنعم الله " للترتيب والتعقيب، أي أنها بدل أن تشكر نعمة الله إذ منحها الأمن والعيش الرغيد، وهذا أقصى ما يُطلب لمثل هذه القرية، بدل هذا كفرت، بمعنى أنها رتبت على النعمة الكفر بها، وهذا عكس المنتظر والمتوقع، فكان فيه معنى التوبيخ والتهكم جزاء هذا الكفر والجحود (١).

قال الطبرسي: " سمي أثر الجوع والخوف لباساً لأن أثر الجوع والهزال يظهر على الإنسان كما يظهر اللباس، وقيل: لأنهم شملهم الجوع والخوف كما يشمل اللباس البدن " (٢).

وهكذا فنحن نرى أثر الكفر والجحود بنعمة الله سواءً على الفرد أو المجتمع، لأن من يبدل النعمة بالكفر والمنحة بالجحود يستحق مثل هذا الجزاء المحتوم الذي يأتي جزاءً وفاقاً لمن كان كُفر، وفق سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، حيث إن من غيَّر نعمة الله عليه بالكفر، غيَّر الله عليه بالنقمة، والعذاب، والفقر، والجوع، والخوف.

المطلب الثالث: كفر الاستكبار والإعراض عن النعمة:

إن الإنسان في هذه الدنيا إذا أصابه مكروه من المكاره دعا ربه مستغيثاً به، مقراً بقدرته وقوته على كشف ما أصابه بعد أن كان معرضاً، ثم إذا أعطاه ربه، وحباه بالنعم العظيمة، نسي الضر والألم الذي أصابه، ثم عاد ليعرض عن ربه ويستكبر عن عبادته، بل وفي بعض الأحيان يشرك معه غيره، وهذا شكل من أشكال الكفر والجحود، وهو الاستكبار والإعراض عن المنعم، وعن ذكر النعمة، وهو كفر بحكم ما يؤدي إليه الإعراض عن المنعم المتفضل، وبحكم الإعراض عن النعمة وعن ذكرها، وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (٣).

والمراد بالإنسان هنا جنس الكافر، ويدخل في الضر جميع المكاره في النفس، أو الأهل، أو المال، والإنسان حين حدوث الضر يتوجه إلى ربه متضرعاً مستجيراً، لا يأمل من سواه كشف الضر، مُرجعاً الأمور إليه وحده في إزالة ذلك، ولكنه بعد أن يمنحه ربه من عطاياه ونعمه ويكشف الضر عنه، ينسى ذلك الضر الذي أصابه، وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل في كشف الضر عنه، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يدعو به، ويتضرع به إلى الله، فتركه ولم يعد يدعوه (٤).

---

(١) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٨ص٤٢٨٥.
(٢) مجمع البيان – ج٤ص١٣٢.
(٣) الزمر ، (٨).
(٤) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٧ص٤٠١. والجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٨ص٢٠٢.

وهذا الموقف يكشف عن تناقض في نفس الكافر، وعن نزاع بين داعي الفطرة السوية، السليمة، وبين طبيعة النفس الأمارة بالسوء، والهوى الداعي إلى الجحود والإعراض عن المنعم، والاستكبار عن عبادة من كشف عنه الضر ومنحه من النعم ما لم يكن ينتظر، والتعالي على النعمة وعدم آداء حقها على الوجه الذي يرضي الخالق الواهب جل وعلا (١).

وهذه الطبيعة السيئة للإنسان لا تتفق مع المنطق السليم، ولا مع العدل والقسط الذي أمر الله به، فإن الإنسان مفطورٌ على الإحسان لمن أحسن إليه، وعلى رد الجميل بالمثل، لكنها الفطرة حين تنتكس قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ (٢).

قال ابن عباس: يريد عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه - وهو النعمة الكبرى التي أنعم الله بها – و " نأى بجانبه " أي ترفع عن الانقياد إلى الحق، وقيل: " نأى " تباعد، " وإذا مسه الشر " أي أصابه المكروه " فذو دعاء عريض " كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، وقال ابن عباس: الكافر يعرف ربه في البلاء، ولا يعرفه في الرخاء (٣).

والمعنى: أن الإنسان الذي صفته الكفر والجحود والاستكبار، إذا أنعم عليه مولاه، وأفاض عليه النعم، تولى عن شكره، وبَعُدَ بجانبه عن ذكر المنعم والإيمان به، وعندما يمسه الشر فهو صاحب دعاء كثير.

قال الشوكاني عند تفسيره للآية الكريمة: " والمعنى أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استوى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط " (٤).

والنأي بالجانب أن يلوي عن الشيء عطفه، ويوليه عرض وجهه، فهو تأكيد للإعراض والاستكبار والتولي عن المنعم ونعمته، هو ديدن المتكبرين الجاحدين (٥).

وهذا بخلاف طبيعة المؤمن، فهو إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، والمؤمن وحده الذي يتعامل مع النعمة بشكل سليم، إنه ينظر إلى المنعم مباشـرةً، ولا يعير انتباهاً للنعمة، قال رسول الله ﷺ: " **عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له** " (٦).

---

(١) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – د٢٣ص٢٥٧.
(٢) فصلت ، (٥١).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٨ص٣١٥-٣١٦.
(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٣١٩.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ص١٩٠.
(٦) سبق تخريج الحديث، انظر: ص١٤٧.

وإن القنوط عند البلاء، والإعراض عند النعماء سواءً كانت صحةً أو سعةً، أو رغداً في العيش، طبع من طباع الإنسان، حيث يبعد بنفسه عن المنعم تكبراً وتعاظماً، وعند مس الضر كالمرض والفقر يصبح شديد القنوط من رحمة ربه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً ﴾ (١). قال البقاعي: " وإذا أنعمنا أي بما لنا من العظمة " على الإنسان " أي هذا النوع، بأي نعمة كانت، من إنزال القرآن وغيره " أعرض " أي عن ذكر المنعم، كإعراض هؤلاء عند مجيء هذه النعمة التي لا نعمة مثلها " ونأى " أي تباعد تكبراً " بجانبه " بطراً، وعمي عن الحقائق " وإذا مسه الشر " أي هذا النوع وإن قل " كان يؤوساً " أي شديد اليأس، هَلَعاً، وقِلَّةَ ثِقةٍ بما عنده من رحمة الله، إلا من حفظه الله وشرفه بالإضافة إليه، فليس للشيطان عليه سلطان " (٢).

وهذا نقص كبير في هذا الإنسان إلا من عصمه الله، فإذا أمده الله بنعم شتى من مال وعافية، ورزق ونصر ونال ما يريد من حظوظ الدنيا، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه، وهذا تأكيد للإعراض، وتولية الظهر، والمراد بذلك التكبر والتباعد على المنعم المتفضل، وبئس ذلك الطبع للمتكبرين (٣).

قال سيد قطب: " حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة، حين يترك لنزعاته واندفاعاته، فهو في حال النعمة متبطرٌ معرضٌ لا يشكر ولا يذكر، وهو في حال الشدة يائس من رحمة الله .. والنعمة تُطغي وتُبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، والشدة تُيئس وتُقنط، ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو ويأمل، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل ويستبشر " (٤).

وأقول: هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً، والذين تحدثت عنهم آيات سورة الإسراء، من أهم صفاتهم الإعراض عن المولى المنعم، والكفران بنعمه، والاستكبار عن الإقرار بالنعمة ونسبتها لمن أعطاها، وكذلك شأن الإنسان عموماً النسيان، وكفران النعم إلا من عصمه الله، فتراه إذا كان منعماً مترفاً بعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل، وإذا أصابه شدة من فقر، أو سقم، أو بؤس، أو مكروه يئس وقنط، لأنه لا يثق بفضل الله تعالى، ولا برحمته التي وسعت كل شيء، وهذا يعبر عن إفلاس في جانب العقل والضمير كونهما حثاه على ترك الأولى والأجدر، من الإقرار والاعتراف بالفضل، والشكر، والتواضع للمولى جل شأنه.

---

(١) الإسراء ، (٨٣).
(٢) نظم الدرر – ج٤ص٤١٩. " بتصرف ".
(٣) انظر: التفسير المنير – الزحيلي – ج١٥ص١٥٠.
(٤) في ظلال القرآن – ج٤ص٢٢٤٨.

المطلب الرابع: تبديل النعمة بالكفر:

سبق الحديث أن من أسباب زوال النعمة وضياعها، وتحولها عن العبد، الكفران بها وجحودها، والإعراض عنها، والتكبر عليها وعلى المنعم، ومن جحود النعمة أن يبدلها الإنسان بالكفر، وهو ما يقتضي بالنتيجة أن تزول النعمة، وتتحول إلى نقمة عند استبدالها بالكفر وعدم الشكر مما يهدد بقاء النعمة، ودوامها، وزيادتها. ولقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك مبيناً أن الكفر حين يستبدل بالنعمة فإن العواقب تكون وخيمة على الفرد والأمة. قال تعالى: ﴿ .. **وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (١).

وقد اختلف في المراد بنعمة الله هنا، فالقول الأول: أن نعمة الله آياته ودلائله، وهي من أجلِّ أقسام نعم الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة، والقول الثاني: المراد بنعمة الله ما آتاهم الله من أسباب الصحة والأمن والكفاية، والله تعالى هو الذي أبدل النعمة بالنقمة لما كفروا، ولكن أضاف التبديل إليهم، لأنه سبب من جهتهم، وهو ترك القيام بما وجب عليهم من العمل بتلك الآيات (٢).

ومعنى الآية: يا محمد سل هؤلاء اليهود عن الآيات البينات، والتي هي نعمة عظمى، ومِنَّةٌ كبرى عليهم، وهذه الآيات دالةٌ على صدق نبوة محمد ﷺ، ولكنهم استبدلوا هذه الآيات الدالة على صدقه بالكفر، ونعمة الله لفظ عام يشمل جميع نعمه، وإن كانت الإشارة بنعمة الله إلى محمد ﷺ قوية، ويكون المعنى: ومن يبدل من بني إسرائيل صفة نعمة الله الموجودة عندهم في التوراة فإن الله معاقبه، ثم جاء اللفظ منسحباً على كل مبدل لنعمة الله (٣).

ولقد عرف هؤلاء اليهود هذه الآيات واستيقنوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعم كما هو واجب عليهم، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفراً، فلهذا استحقوا أن يُنزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن مَنْ أنعم الله عليه بنعمة فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة (٤).

وقد حدثنا القرآن الكريم أن من يبدل النعمة بالكفر فإنه يختار له ولقومه العاقبة السيئة، والخاتمة التي لا تؤمن عواقبها، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ (٥).

---

(١) البقرة ، (٢١١).

(٢) انظر: التفسير الكبير – الفخر الرازي – ج٦ص٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج١ص٢٨٤. و فتح القدير – الشوكاني – ج١ص٢٩٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج١ص١٦٧.

(٥) إبراهيم ، (٢٨).

والخطاب في الآية لرسول الله ﷺ، وهو تعجبٌ من حال أولئك الكفار المكذبين لرسوله، وما آل إليه أمرهم حيث استبدلوا نعمة الله عليهم بالكفر بدل أن يشكروها، وبدل أن يقبلوها، وقيل أن النعمة هي محمد ﷺ حين ابتعثه إليهم، وأنعم به عليهم، لكنهم بدلوها بردها، وبالكفر بها، والصد عنها، ولم يشكروا الله على هذه النعمة الكبيرة، وقيل أن النعمة هنا هي الإسلام. وقد أحلوا قومهم وأوصلوهم إلى دار الهلاك، وهي جهنم وبئس المصير، حيث تسببوا بإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم، من حيث يظنون أنهم نفعوهم (١).

قال سيد قطب: " ألم تر إلى هذا الحال العجيب. حال الذين وُهبوا نعمة الله، ممثلة في رسول وفي دعوة إلى الإيمان، وفي قيادةٍ إلى المغفرة، وإلى مصيرٍ في الجنة.. فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله "كفراً "، وبهذا الاستبدال قادوا قومهم إلى جهنم، وأنزلوهم بها، وبئس ما أحلوهم من مستقر " (٢).

وإن الإعراض عن النعمة وإنكارها وعدم شكرها، كفيل بتبديلها إلى نقمة وإلى عذاب، وهذا حال قوم سبأ حينما كفروا النعمة وأعرضوا عن المنعم، فبدلهم الله بها عذاباً، ونكالاً، ودماراً. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (٣).

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه، أعقبه بذكر حال بعض الجاحدين وهم قبيلة سبأ من اليمن الذين أجرى الله سبحانه عليهم نعمه، وصرف عنهم نقمه، فكان لهم وادٍ عظيم يروون به بساتين لهم عن يمين الوادي وشماله، حيث تمتلئ تلك الجنتان العظيمتان بالثمار التي تكفيهم طوال العام، وتحصل لهم بذلك الغبطة والسرور بهذا العيش الرغيد، فأمرهم الله بشكر نعمته عليهم، وهذه النعمة متمثلة إضافةً إلى ما ذُكر بجعل بلدتهم طيبة للعيش والإقامة، ووفّر لهم الأمن من الخوف في تجارتهم حيث تتواصل قرى الشام في طريقهم لتؤنسهم من الوحشة والخوف، ثم وعدهم بالمغفرة، لكنهم قابلوا ذلك بالإعراض عن المنعم، وبطروا النعمة، واستبدلوا الشكر بالكفر، وظلموا أنفسهم بكفرانهم لنعمة الله، فعاقبهم الله، بأن أرسل عليهم نفس ذلك الوادي الخصيب، ولكن بسيل عرم ضرب سدهم، وأتلف جناتهم ومحاصيلهم، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، لما بدلوا تلك النعم بالجحود والإعراض. (٤).

---

(١) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص١٣٦-١٣٧.
وتيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٣ص١٨-١٩.
(٢) في ظلال القرآن – ج٤ص٢١٠٥.
(٣) سبأ ، (١٥ ، ١٦).
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٤ص١٨٣-١٨٤.

ثانياً: تغيير الأنفس .

ثالثاً: التكذيب بالرسل .

رابعاً: الفرح والفخر والبطر .

خامساً: ظلم الإنسان .

سادساً: استعمال النعمة في الصد والإضلال عن سبيل الله .

تبين لنا من السبب السابق أن الكفر، والجحود، والإعراض عن المنعم، وعن النعمة من أهم أسباب زوال النعمة، وانقطاعها، وظهر أن القرآن الكريم قد أسهب في الحديث عن ذلك، لأن الأغلب الأعم في علة انتهاء النعمة وتحولها عن العبد هو الكفر والجحود.

ولأن كل الأسباب الأخرى التي ذكرت والتي سيذكرها الباحث في هذه الورقات مردها غالباً إلى الكفر والجحود أيضاً، أو لأنها في طياتها تحمل معنى الكفر بالنعمة والجحود بها، وبالتالي الكفر بالمنعم والإعراض عنه جل شأنه. إلا أن هذه الأسباب الأخرى وإن كانت لا تنفصل عن معنى الإنكار والجحود، إلا أنها وردت في سياقات أخرى متعددة، كعوامل تتسبب في زوال النعمة مباشرةً، أو تؤثر في بقاءها على العبد كماً وكيفاً، وسيحاول الباحث أن يجلي هذه الأسباب، منبهاً على خطورتها، ومبيناً خطرها على بقاء النعمة ودوامها، لينتبه لها كل ذي لب، فيتجنب الوقوع فيها. مستعيناً بالله سبحانه.

ثانياً: تغيير الأنفس.

يعد تغيير الأنفس اتجاه النعمة، أو اتجاه المنعم من أهم أسباب زوال النعمة، وتحولها، وعدم دوامها، وقد سبق الحديث عن تغيير الأنفس بوصفه سنةً من سنن الله في النعمة وجوداً وعدماً، ونحن هنا بصدد الحديث عن تغيير الأنفس بكونه سبباً من أسباب انعدام النعمة، وزوالها، أو قلتها على العبد.

وإن تغيير ما بالأنفس المقصود به تغير في الدين، أو تغيرٌ اتجاه المنعم المتفضل من حيث ترك شكره وذكره وترك طاعته، أو تغير في النعمة من حيث جحودها، أو عدم الرضا بها، أو منع حق من حقوقها، أو غير ذلك مما لا يليق بالعبد حالة كونه محاطاً بنعم الله، ومحفوفاً بالخير من كل جانب.

وقد ورد في كتاب الله سبحانه آيتان هما نصٌ صريحٌ في هذا الجانب. إحداهما خاصةً بالنعمة، والأخرى عامةً في كل شيء، وسيقف الباحث مع الآيتين الكريمتين بشيء من الإيضاح. قال تعالى: ﴿ .. ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ (١).

وهذه الآية وإن قيل أنها نزلت في قريش، عندما كفرت بمحمد ﷺ، فنقله الله إلى الأنصار لينعم به عليهم، إلا أن ذلك عامٌ في كل نعمة لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن كل من أنعم الله عليه بنعمةٍ، فلم يشكره ولم يذكره، فإن الله يبدل تلك النعمة، ويغير الحال إلى أسوأ حال، وإن من رحمة الله أنه لا يبدأ بتغيير تلك النعمة حتى يكون ذلك منهم، فإن فعلوا غير الله نعمته عليهم بنقمته(٢).

---

(١) الأنفال ، (٥٣).

(٢) بحر العلوم – السمرقندي – ج٢ص٢٢. والجواهر الحسان – الثعالبي – ج٢ص٢٥.

وإن من أنعم الله عليهم بالعقل، والقدرة، والرزق، والهداية، وغير ذلك من النعم، فإن الواجب يقتضي منهم أن يشتغلوا بالعبادة، ويعدلوا عن الكفر والجحود، فإن صرفوا هذه الأمور إلى الكفر والفسق، فقد غيروا نعم الله على أنفسهم، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح بالمحن، حيث لا يبدأ الحق سبحانه أحداً بالعذاب والمضرة، وأن العقوبة لا تكون إلا جزاءً على معاصٍ سلفت، أما التغيير فإنه يكون بإزالة أصل النعمة رأساً، أو تكون قد قللت أو ضعفت، أو ذهب أثر الانتفاع بها (١).

وفي هذه الآية يرشدنا المولى سبحانه إلى أن الأمم لا تسقط من عرش عزها، ولا تبيد ويمحى اسمها إلا بعد تنكرها لتلك السنن البالغة المحكمة التي سنها المولى، فالله لا يغير ما بقوم من عزة، وسعة عيش، وسلطان. حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة. هكذا جعل الله بقاء الأمم في التحلي بالفضائل، وهلاكها ودمارها في التخلي عنها سنةً ثابتةً لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال (٢).

إنها سنة الله ومشيئته في عباده ألا يغير نعمه التي ينعم بها عليهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم وضمائرهم من الأحوال والأخلاق بكفران النعم، وغمط إحسان المنعم، وإهمال أوامره ونواهيه (٣).

وفي الآية الثانية التي ظاهرها العموم في سنة الله في التغيير والتبديل يقول المولى سبحانه: ﴿.. إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ .. ﴾ (٤).

يقول صاحب أيسر التفاسير: " يخبر الله تعالى عن سنة من سننه في خلقه ماضيةً فيهم، وهي أنه تعالى لا يزيل نعمةً أنعم بها على قوم، من عافيةٍ، وأمن، ورخاء بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طهارةٍ وصفاء، بسبب ارتكابهم للذنوب وغشيانهم للمعاصي نتيجة الإعراض عن كتاب الله، وإهمال شرعه، وتعطيل حدوده، والانغماس في الشهوات، والضرب في سبيل الضلالات " (٥).

وهذا هو عدل الله المطلق، وتلك هي سنته الحكيمة في خلقه، ألاّ يغير حال قوم من النعمة والعافية حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة السوية التي فطرهم الله عليها، وليس المراد أنه لا يُنزل بأحدٍ من عباده عقوبةً حتى يتقدم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بفعل ذنوب الغير، حين يصمت الجميع عن تلك الذنوب ولا ينكرون على أصحابها.

---

(١) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٤ص٥٠٢.
(٢) انظر: تفسير المنار – رشيد رضا – ج١٠ص٤٣-٤٤.
(٣) انظر: زبدة التفسير – محمد عمر الأشقر – ص١٨٣.
(٤) الرعد ، (١١).
(٥) أيسر التفاسير – الجزائري – ج٣ص١٤.

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: " **لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب، يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم، إذا كثر الخبث** " (١) ولكن ذلك بسبب ترك الفريضة في إزالة المنكر وتغييره، والله أعلم .(٢)

يقول سيد قطب: " إنه لا يغير نعمةً أو بؤساً، ولا يغير عزاً أو ذلةً، ولا يغير مكانةً أو مهانةً، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم، وأعمالهم، وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم... وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص صريحٌ في هذا لا يحتمل التأويل " (٣).

قلت: وهذه سنة عامةٌ عادلة فحينما يكون التغيير من الناس للأسوأ يكون التغيير عليهم وفق سنة الله بمقتضى هذا السوء، وحينما يكون التغيير للأحسن في داخل النفوس، وفي معترك الصدور يكون التغيير من الله سبحانه للأحسن وفق هذه المشيئة، فعلى الإنسان العاقل أن ينتبه لنفسه وهواها، وألا يحدث تغييراً فيها نحو الأسوأ حتى لا تزول نعمة الله عليه، وتتحول إلى نقمة.

ثالثاً: التكذيب بالرسل.

أرسل الله جل شأنه الرسل والأنبياء هداة للبشرية، ومصلحين لأحوال الإنسانية، مما قد يصيبها من انحرافات بين آونة وأخرى، وأمر الناس باتباع تعاليمهم، والتصديق برسالاتهم، والإيمان بما جاءوا به، لتحصل لهم كرامة الدنيا والآخرة، وحذر العباد من عدم الإيمان بهم، ونبههم إلى خطورة تكذيبهم، وعدم تصديقهم فيما جاءوا به، وبين القرآن الكريم أن الناس إن آمنوا بالرسل، وصدقوا برسالاتهم، واتبعوا تعاليم الآيات التي جاؤا بها، فإن الخير والبركة والنعم والأرزاق ستأتيهم من كل مكان، وإن هم كذبوا بالرسل وبالآيات التي جاءوا بها، فإن العذاب والهلاك والدمار هو ما ينتظرهم، وأوضح القرآن الكريم أنهم في حال التكذيب إما أن يعذبوا مباشرةً، فتزول عنهم النعم، وتحل بهم النقم، وإما أن يُستدرجوا ويُملي لهم من النعم والعطايا لحين أخذهم بغتة، ومصداق ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٤).

---

(١) صحيح البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء(٦٠)- باب قصة يأجوج ومأجوج(٧)- ص(٦٤٠)- رقم(٣٣٤٦).
وصحيح مسلم- كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب اقتراب الفتن(١)- ص(١٤٠٩)- رقم(٢٨٨٠).

(٢) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ص٨٧.

(٣) في ظلال القرآن – ج٤ص٢٠٤٩.

(٤) الأعراف ، (٩٦).

وفي مناسبة الآية بما قبلها، لما بين الحق في الآية السابقة أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بين في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات، وأصناف البركات من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات والثمار، وكثرة الأنعام، وحصول الأمن والسلامة، ولكنهم كذبوا الرسل، ولم يؤمنوا بما جاءوا به، فأخذهم الله بالجدب والقحط ، فتحولت النعمة إلى نقمة بسبب تكذيبهم (١).

وهؤلاء لما كانوا مكذبين بالرسل والآيات، ولم يؤمنوا، ولم يتقوا، تبع ذلك أخذ الله لهم بسوء ما أجرموا، وما فعلوا من القبائح، وانقلبت عنهم العافية والنعمة التي كانت ستصيبهم إلى نقمةٍ جزاءً وفاقاً، وقد قيل أن البركات هي قطر السماء، ونبات الأرض، والأولى حمل الآية إلى ما هو أعم (٢).

ومن الآيات ما تحدث عن التكذيب دون ذكر العقاب المباشر كما ذكر في البداية، وإنما يكون الاستدراج من الله للمكذبين، والإملاء لهم في النعمة والعافية، حتى يؤخذون على حين غرة. وقد صرح القرآن الكريم بذلك، قال تعالى في ذات السورة: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾. (٣)

ومعنى الآية: أن الله سبحانه يتوعد أولئك المكذبين بآياته، وما جاء به رسله بالإستدراج، وهو من الإستفعال، أي الإستنزال درجة بعد أخرى، والمعنى سنسوقهم شيئاً بعد شيء بالنعم والعطايا والإمهال لهم، حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالرسل وما أتوا به. وهذا الإملاء حتى يزدادوا إثماً، فكلما جدد الله نعمه عليهم ازدادوا بطراً، وجددوا معاصيهم بسبب تتابع النعم ظانين أن تواتر النعم مع عدم الشكر أثرةٌ من الله وتقريب، وإنما هي خذلان وإبعاد، ووشوك على الهلاك (٤).

قال الشوكاني: " والمعنى: سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم، وإنسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك .. " وأملي لهم "، أي: أطيل لهم المدة، وأمهلهم، وأؤخر عنهم العقوبة " (٥).

---

(١) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج١٤ص١٥١.
(٢) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٢ص٤٣٢.
وفتح القدير – الشوكاني – ج٢ص٢٩٠.
(٣) الأعراف ، (١٨٢ ، ١٨٣).
(٤) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٢ص١٧٥.
والمحرر الوجيز – ابن عطية – ج٢ص٤٨٢.
(٥) فتح القدير – ج٢ص٣٤٤.

وقد كان القرآن الكريم ينزل مسلياً رسول الله ﷺ، ومهوناً عليه ما يلقاه من التكذيب مبيناً له أن التكذيب أمرٌ واقعٌ في دعوة من سبقه من الأنبياء وأن الله يملي للمكذبين بنعمه استدراجاً لهم، ثم يعاجلهم العذاب فتتحول تلك النعم إلى نقم، وتصبح أثراً بعد عين. قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (١).

والخطاب فيها لرسول الله ﷺ، والمعنى وإن يكذبوك فيما جئت به من التوحيد والرسالة فلا تأس ولا تحزن، فقد كُذب قبلك أنبياءٌ كرام، وكانت سنتي فيهم أني أمليت لهم بمعنى أمددتهم في الزمن، وأرخيت لهم الرسن، حتى إذا بلغوا غاية التكذيب والعناد والظلم، أخذتهم بالعذاب، " فكيف كان نكير " استفهام معناه التقرير والتوبيخ، فقد أبدلتهم بالنعمة نقمة، وبالعمار خراباً (٢).

نقل السمرقندي عن الضحاك أنه قال: " ما عذب الله قوماً قط، وسلبهم النعم، ولا فرق بينهم وبين العافية حتى كذبوا رسلهم، فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل، وسلبهم العز " (٣).

وقد وصف الله سبحانه حال أولئك المكذبين من قريش بأنهم أصحاب تنعم وترفه، ولكن تلك النعم التي كانوا فيها، وتلك الخيرات والأرزاق لم تدفعهم للتصديق والإذعان، ولم تدفعهم للشكر والإيمان بالمنعم، بل إلى مزيد من التكذيب، لكن الوعيد لم يتأخر، والعقاب لم يطول، ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾. (٤) والمراد: دعني وإياهم، وَكِلْ إليَّ أمرهم، فإني أحاسبهم على تكذيبهم حساباً شديداً، وأجازي أرباب التنعم، الذين لم يعملوا بمقتضى تلك النعم، يريد صناديد قريش (٥).

قال صاحب زبدة التفسير: " دعني وإياهم ولا تهتم بهم فإني أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم، " أولي النعمة " أي: أرباب الغنى والسعة والترفه، واللذة في الدنيا، و " مهلهم قليلاً " إلى انقضاء آجالهم، وقيل إلى نزول عقوبة الدنيا بهم " (٦).

---

(١) الحج ، (٤٢ ، ٤٤).
(٢) انظر: الوسيط في التفسير – النيسابوري – ج٣ص٢٧٤.
وأيسر التفاسير – الجزائري – ج٣ص٤٨٢.
(٣) انظر: بحر العلوم – ج٢ص٢٢.
(٤) المزمل ، (١١ ، ١٣).
(٥) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص٥٣٨.
(٦) زبدة التفسير – الأشقر – ص٣٦٣.

وقد بين القرآن الكريم سوء عاقبة المكذبين، وأن من كذب نبياً فقد كذب الجميع، لأنهم جميعاً عليهم السلام أتوا بأصل واحد، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. ﴾ (١).

ومع أن الرسل في الآية يراد بهم نوح عليه السلام إذ أنهم كذبوه، وكذبوا رسالته، فكأنهم كذبوا بالرسل جميعاً، لأنهم كذبوا أصل الرسالة الإلهية، رسالة التوحيد، ولذا كان العقاب بالاستئصال حين أغرقهم، ولم يبق إلا من آمن بنوح، قال الزجاج: من كذب نبياً فقد كذب جميع الأنبياء (٢).

وفي نهاية المطاف أقول: إن التكذيب بأنبياء الله ورسله، وبما أتوا به من وحي، من أهم أسباب هدم النعم وحلول النقم، وإن عاقبة المكذبين هي الخسران دائماً في الدنيا بزوال النعم والأرزاق، أو العذاب الذي يستأصل، ولا يُبقي ولا يذر، وفي الآخرة الحساب الشديد الذي يوجب دخول النار، والخلود فيها.

رابعاً: الفرح والفخر والبطر.

عرض القرآن الكريم على مسامعنا ثلاثة مفاهيم مذمومة تتعلق بالنعمة التي أنعم الله بها على عباده، وهذه المفاهيم المذمومة قوية الصلة ببعضها، ومتداخلة بحيث يكون من الصعب الفصل بينها، وعدها القرآن الكريم من أسباب زوال النعمة، ومن الأمور التي تؤثر في دوامها وبقاءها، وهي الفرح والفخر والبطر بالنعمة، وذلك من خلال آيات كثيرة تحدثت تارةً عن الفرح، وتارةً عن الفخر، وتارةً عن البطر، ولقد جمعت الآيات بين الفرح والفخر باعتبارهما متلازمين، وكذلك فإن كثيراً من العلماء والمفسرين فسروا كِلا الأمرين أي الفرح والفخر بالبطر، ولذلك كان هذا الربط بينها في هذا الجانب، وقد حذرنا القرآن من الوقوع فيها، ونبهنا من خطورة التمادي في طريقها.

والفرح المنهي عنه ليس هو الفرح الطبيعي أو الفطري، والذي يكون بسبب حدوث نعمة، أو اندفاع نقمة. ولكن الفرح المنهي عنه هو البطر والرياء والتعالي، أو ما كان موصلاً إليهم.
ويعرفه الراغب بأنه: " انشراح الصدر بلذةٍ عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية " (٣).

ولم يرخص في الفرح إلا ما كان مقيداً قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ.. ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٥). ولم يَرِدْ في القرآن كله إلا في هذين الموضعين (٦).

---

(١) الفرقان ، (٣٧).
(٢) انظر: زهرة التفاسير – أبو زهرة – ج١٠ص٥٢٨٠. والوسيط في التفسير – النيسابوري – ج٣ص٣٤٠.
(٣) المفردات في غريب القرآن – ص٣٧٥.
(٤) يونس ، (٥٨).
(٥) الروم ، (٤).
(٦) انظر: المفردات – ص٣٧٥.

ويُعرف الراغب الفخر بأنه: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه. والاختيال بها على الآخرين مع ما يرافق ذلك من شعور كالعُجب، والتكبر، والتعالي، والبطر (١).

وعرَّف البطر بأنه: " دهشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها في غير وجهها " (٢). وقد قيل: إن البطر: الطغيان في النعمة وترك شكرها، وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضاه، وقيل: البطر مقابلة النعمة بالتكبر والخيلاء (٣). والحق أنه ليس من فرق بين هذه التعاريف كلها للبطر لأن جميعها متضمنةً لمعاني التكبر والتعالي والطغيان على الآخرين. والله أعلم.

وقد حمل القرآن الكريم لنا أنباءً عن قوم نسوا نعمة الله عليهم، وقست قلوبهم، فلم يشكروا، ولم يتضرعوا لمن أولاهم النعم، وحسبوا أن كثرة النعم عليهم وتتابعها مع عدم الشكر والإيمان بالمنعم أمرٌ يستحقونه عن جدارة، فدفعهم ذلك إلى الفرح بما عندهم بطراً وأشراً، وغرهم ما هم فيه من النعم، فلما كانوا كذلك، وفي غمرة هذا الفرح المذموم وهذا البطر والكبر، جاءهم العذاب بغتةً. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (٤).

والآية تنبهنا إلى ما حدث لهؤلاء عندما تركوا ما كانوا يوعظون به، وتناسوا نعم الله عليهم، ولم يتفكروا عندما أصابتهم البأساء والضراء، حين ذلك استدرجهم الله بفتح أبواب النعم عليهم وأنواع الخيرات والأرزاق، وبدل الله مكان البأساء الرخاء، والسعة، والعيش الحسن، والسلامة في الأبدان، حتى إذا تناهى بهم الفرح والبطر وأعجبوا بذلك، علم أنهم في غاية الغباء، لا يرتدعون بسياط البلاء، ولا ينتفعون ببساط المنة والرخاء، وهذا الفرح فرح بطر وأشر يشبه فرح قارون في زينته، عند ذلك أخذهم الله بغتةً على حين غرةٍ، وهم غافلون غير مترقبين، وإنما أخذهم الله في حال الرخاء ليكون أشد حسرةً عليهم بنزول ذلك العذاب المهلك (٥).

نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون (٦).

---

(١) انظر: المفردات – ص٣٧٤.

(٢) المفردات – ص٥٠.

(٣) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٥ص١٨٩-١٩٠.

(٤) الأنعام ، (٤٤).

(٥) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٢ص٦٣٦-٦٣٧.

وفتح البيان – القنوجي – ج٤ص١٤١-١٤٢.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٣ص١٥٣.

وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: " **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ (فلما نسوا ما ذكروا به...)** " الآية (١).

وقد حرم الإسلام الفخر والعجب والاختيال، ولم يحله أو يرضاه لأتباعه، بل أبغضه ووقف منه موقفاً حاسماً، حيث نهى عنه في كل مناسبة. قال تعالى على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢).

قال الأشقر في تفسير هذه الآية: " أي لا تُعرض عن الناس تكبراً عليهم، وقيل المعنى: لا تلوِ وجهك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، ولا تمش في الأرض مختالاً فرحاً والاختيال هو المرح والكبرياء، والفخور الذي يفتخر على الناس بمالِه، أو شرفه، أو قوته، وليس منه التحدث بنعمة الله " (٣).

وأقول: إني لا أعلم ما الذي يجعل الإنسان يختال ويتعالى ويتكبر على الآخرين بما أنعم الله عليه، هل يظن أنه مصدر النعمة التي بين يديه؟! فيحق له الزهو بها على الآخرين، أم هل يستطيع الحفاظ عليها دائماً ومنعها من الزوال؟! إنه بكل تأكيد ليس مصدر هذه النعمة، وإنما هي منةٌ من المنعم المتفضل يمتن بها عليه. وبدون أدنى شك لا يستطيع أن يضمن بقاءها وعدم زوالها. لأن الذي وهبها ابتداءً هو الذي يستطيع سلبها ونقلها، فعلامَ يفخر ويتكبر ذلك المسكين.

وقد سلك القرآن الكريم مسلكاً وسطاً في توجيهه للمسلم، حيث طالبه ألا يأسى على نعمةٍ أو خير فاته، وألا يفرح فرح البطر الذي يلهيه عن الشكر بما آتاه الله من خير وفضل. قال تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٤).

والآية الكريمة فيها توجيه من الله لعباده، بأن لا يحزنوا على ما فاتهم من نعم الدنيا، ولذاتها، وأرزاقها، ولا يفرحوا فرحاً يوصلهم للبطر، ويمنعهم من الشكر بما جاءهم من النعيم والهبات والمنح التي أعطاهم الله إياها، والمعنى: نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله، والنهي عن الفرح الموجب للبطر والاختيال والزهو، ولذلك أعقبه تعالى بقوله: " والله لا يحب كل مختال فخور " أي لا يحب كل متكبر يفخر على الناس بما أعطاه الله من مال وجاه ونعمة (٥).

---

(١) مسند الإمام أحمد- (ج٤/ص١٤٥)- رقم(١٧٣٤٩). صححه الألباني، انظر: صحيح الجامع- ص(١٥٨)- رقم(٥٦١).

(٢) لقمان ، (١٨).

(٣) زبدة التفسير – الأشقر – ص٤١٢. " بتصرف ".

(٤) الحديد ، (٢٣).

(٥) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص٤٧٠-٤٧١. والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٥ص١٩٧.

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن نوع من الناس عندما تصل إليه النعماء بعد الضراء، ينسى ما أصابه من سوء ومكروه، وينسى الواجب عليه تجاه المنعم من الشكر والذكر حينما يتجرد من الإيمان.

ثم يمتلئ بعد ذلك فرحاً وفخراً. قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾. (١)، والمعنى أن الله إذا أذاق هذا الإنسان طعم النعمة، ورخاء العيش، وصحة البدن، بادر إلى الاعتقاد بأن هذه هي حالته الأصلية التي لا تفارقه أصلاً، وهي حالة النعماء والسلامة. وفي التعبير عن ملابسة النعماء بالذوق، وعن ملابسة الضراء بالمس، ما يدل على أن مراده تعالى هو إيصال الخير لبعاده، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، والتعبير بالمس يوحي بمجرد المس الملاصق للبشرة دون تأثير، أما الذوق فيعبر عن شدة الإحساس باللذة والمتعة، وحينئذٍ يقول ذلك الإنسان بكل صلفٍ وغرور ذهب السوء الذي لم أتوقع زواله عني من دون أن يشكر، ثم إنه بعد ذلك مغتر بالنعمة بطرٌ بها، متعاظمٌ على الناس بما أوتي من النعم، مشغولٌ عن القيام بحقها (٢).

يقول سيد قطب: " إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه، فلا يتذكر ما مضى، ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس من الخير، كفورٌ بالنعمة بمجرد أن تنزع منه ... وهو فرحٌ بطرٌ بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء، ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة، أو يحسب لزوالها حساباً " (٣).

وقد نهى الإسلام عن البطر نهياً شديداً محذراً من الوقوع فيه، ومن الظهور بمظهره لأنه من أسباب زوال النعمة وحلول السخط، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٤). وهذا نهي واضح ينهى فيه المولى عباده المسلمين أن يكونوا كالمشركين من قريش الذين خرجوا لبدر تكبراً وعتواً متفاخرين بقوتهم ومنعتهم، ومراءاةً للناس ليمدحوهم ويثنوا عليهم، والآية نزلت عندما قال أبو جهل يوم نجاة قافلة أبي سفيان والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنشرب بها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القينات، فإن بدراً من أهم أسواق العرب حتى تسمع العرب مخرجنا، فتهابنا آخر الأبد. فسقوا كؤوس المنايا بدل الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات، فنهى الله في الآية المؤمنين أن يكونوا مثلهم بطرين، مرائين بأعماله (٥).

---

(١) هود ، (١٠).

(٢) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٣ص٥٠٨. والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٢ص٥١١.

(٣) في ظلال القرآن – ج٤ص١٨٦٠.

(٤) الأنفال ، (٤٧).

(٥) انظر: صفوة التفاسير – الصابوني – ج١ص٥٠٨. و الوجيز في التفسير – الزحيلي – ص١٨٤. والبحر المحيط – أبو حيان – ج٤ص٥٠٠.

وقد كان بإمكان كفار قريش أن يعودوا بعد نجاة القافلة، لكنهم لم يكتفوا بذلك، بل أرادوا أكثر مما يقتضي الموقف، أرادوا أن يخرجوا في مظاهرة ضالة للمفاخرة والتكبر لا لزوم لها. إذن المسألة شماتة، وهذا لون من البطر، أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تعلو عليها، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة وطلبوا المزيد، وأرادوا أن يستعلوا بنعمة القوة والغنى والزعامة، وهذه الأفعال لا تصدر عادةً إلا من أناس امتلأت قلوبهم بالتكبر والجهل، وهذه كلها عوامل دمار وهدم وفناء للنعم والسعة، لذلك نهى الله المؤمنين عن التشبه بهذه الخصال (١).

يقول سيد قطب: " يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرةً طاغيةً تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها ... لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر " (٢).

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن البطر كان سبباً في إهلاك أمم وشعوب عندما طغت بالنعمة، ونسيت أن تشكر المنعم قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ (٣). والمعنى وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسعة العيش والدعة، حتى أشركوا فدمرنا عليهم بعد أن بطروا النعمة، وطغوا بها، ولم يشكروها، لأن البطر والكفران يُزيلان النعم فأصبحت مساكنهم خاليةً من أي حياة بعد إهلاكهم إلا قليلاً من المساكن، فإن تلك المساكن لم يسكنها إلا المسافرون ومن مر بالطريق، وذلك بسبب معصية بطرهم للنعمة (٤).

وإن من صور بطر النعمة الإسراف والتبذير في التنعم بها، لما لهما من عواقب سيئة، تفضي إلى زوال النعمة وذهابها، مما يؤدي بالمسرف إلى الحسرة والندامة، وقد نهى تعالى عن ذلك نهياً واضحاً، في قوله: ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً** ﴾ (٥). والآية فيها نهي عن الشيء وضده، فهي تنهى عن البخل والشح وغل اليد، وهو كناية عن شدة الإمساك، وتنهى كذلك عن الإسراف والتبذير، لأنه يفضي إلى زوال النعمة، الأمر الذي يؤدي إلى الملامة والحسرة في النفس، والمحسور هو ذا اليد الفارغة (٦).

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي – الشعراوي – ج٨ص٤٧٣٠-٤٧٣١. والتفسير المنير – الزحيلي – ج١٠ص٢٧.
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٣ص١٥٢٩.
(٣) القصص ، (٥٨).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٧ص٢٦٧. والمقتطف– المنصوري – ج٤ص١٥٤-١٥٥.
(٥) الإسراء ، (٢٩).
(٦) تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٣ص١٠٥.

خامساً: ظلم الإنسان.

إن من أهم أسباب زوال النعم، وتحولها عن العباد الظلم، والبغي الذي هو مجاوزة الحد في العدوان، وقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن ذلك تأكيداً على أن الظلم من أبشع صور التعامل مع النفس ومع الآخرين، والتي سرعان ما تودي بالنعم، وتُحل مكانها النقم. وتحذيراً من عواقبه ونتائجه.

ويعرف الراغب الظلم بأنه: " وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه... والظلم يقال في مجاوزة الحق، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير " (١).

وقد قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق. والثاني: ظلمٌ بينه وبين الناس في حقوقهم. والثالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه، وهو الذي يقع عليها من صاحبها بعدم إلزامها الحق (٢).

والإنسان الذي يقابل نعم الله بالجحود يدل ذلك على مدى ظلمه وطغيانه، عندما يتجرد من إيمانه ومن الإنصاف والعدل. قال تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾. (٣)، والإنسان يظلم نفسه، بأن يعرضها للحرمان بسبب الجحود والكفران، وقيل: ظلومٌ بإغفاله لشكر نعم الله عليه، وقيل: الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه، فيضع الشكر في غير موضعه، وقيل: ظلومٌ في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع (٤).

و" ظلوم " صيغة مبالغة من الظلم، أي أنه ظالم أبلغ الظلم، يظلم نفسه بالكفر وغمط الحق، والاعتداء على حقوق الناس، والاعتداء بعبادته غير المنعم، و " كَفَّارٌ " صيغة مبالغة في الكفر، وهو كفر النعمة، وقد أكد الله على ظلم الإنسان بـ " إن "، وبـ " اللام "، وبصيغة المبالغة في الظلم وكفر النعمة (٥).

وقد بين القرآن الكريم أن الظلم كان سبباً في تحريم التمتع ببعض الطيبات التي كانت مباحةً لبعض الأمم كاليهود، ومؤكداً أنهم حرموا من هذه النعم بسبب التمادي في الظلم واقتراف الذنوب العظيمة.
قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً ﴾ (٦).

---

(١) المفردات – ص٣١٥.
(٢) انظر: المفردات – الراغب الأصفهاني – ص٣١٦.
(٣) إبراهيم ، (٣٤).
(٤) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٧ص١٢٠. والمقتطف – المنصوري – ج٣ص٥٩.
(٥) انظر: زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ج٨ص٤,٣٤.
(٦) النساء ، (١٦٠).

وتحريم الاستمتاع بهذه النعم وهذه الطيبات حدث بسبب ظلم اليهود، كما هو واضح من الآية الكريمة، فقد حرم الله عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم، والتي ذكرت في سورة الأنعام ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ... ﴾ (١). ولذلك كانت عاقبة هذا الظلم أن حرمت عليهم نعمٌ شتى، وخيرات مختلفة عندما ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم (٢).

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلاً حياً في بيان عاقبة الظلم، وكيف أن الظلم كان سبباً في زوال النعمة وحلول النقمة، وتبدل الحال من الأحسن إلى الأسوأ، حيث حل الدمار والبوار بالظالم الذي دخل جنته.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ (٣). دخل هذا الظالم جنته برفقة صاحبه يفاخره بها، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته فقط، وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها، ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون (٤).

وكان في هذه المفاخرة وهذا الغرور ضارٌ بنفسه بكفره وظلمه وعجبه وتمرده وإنكاره لمعاده.

قال قتادة: كفورٌ لنعمة ربه. يقول وهو ممتلئٌ بالغرور، والكبر لا أحسب أن هذه الجنة تبيد أبداً، لما رأى فيها من الزروع، والثمار، والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها، وأنها لن تهلك، ولن تتلف، لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، وقلة عقله، وضعف يقينه بربه، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال " وما أظن الساعة قائمة " أي كائنة، ثم زعم أنه إن رجع إلى ربه بعد ذلك إن له عنده أحسن مما هو فيه من الحظ والكرامة، لأنه ظن أنه لولا كرامته لما أعطاه مولاه هذه الجنة بما فيها (٥).

فماذا كانت نتيجة هذا الظلم وهذا العجب وهذا الغرور؟، هل استمرت النعمةُ حاضرةً في ظل هذا الظلم الذي أبداه صاحب الجنة؟ بالتأكيد لا، النتيجة كانت حاضرةً وماثلةً أمام عينيه في تلك الجنة التي كان يفاخر بها، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ (٦).

---

(١) الأنعام ، (١٤٦).
(٢) انظر: تفسير الشعراوي – الشعراوي – ج٥ص٢٨٠٦.
وصفوة التفاسير – الصابوني – ج١ص٣١٨.
(٣) الكهف ، (٣٥-٣٦).
(٤) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ص١١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٥ص٩٥.
وفتح البيان – القنوجي – ج٨ص٥١. والمقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ص٢٥٥.
(٦) الكهف ، (٤٢).

النتيجة وقعت الإحاطة بالهلاك على تلك الجنة وذلك الثمر، وقد بُني الفعل " أحيط " للمجهول، للدلالة على سهولته، فاستؤصل الثمر كله هلاكاً، ما كان منه في السهل، وما كان منه في الجبل، وما هو ثمرٌ في الصيف، وما هو ثمرٌ في الشتاء، فهلكت أمواله التي عهدها في حال حسنة. وأصل الإحاطة تكون بالعدو، ثم استعير في كل الإهلاك، ووقع لهذا الظالم ما كان يخوفه به صاحبه المؤمن، ثم أصبح يقلب كفيه ظهراً لبطن، وهو كناية عن الندم. قال قتادة: يصفق بكفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي ذهبت، وأصبحت تلك الجنة خاوية على عروشها أي: ساقطةً على دعائمها التي تُعمَّد بها الكروم، أو ساقطٌ بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوي إذا سقطت ولم تمطر في نوئها (١).

وكما حدثنا القرآن عن الظلم في مستواه الفردي، حدثنا كذلك عن الظلم في مستواه الاجتماعي، حين حدثنا عن ظلم الأمم والشعوب متمثلاً في أهل القرى، حيث قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (٢). وقال في ذات السياق: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً** ﴾ (٣). والمعنى في الآية الأولى وكذلك أخذ ربك من أخذه من الأمم المهلكة مثل ذلك الأخذ الأليم، والإهلاك الشديد لأهلها، وقد أسند الإهلاك للقرى للإشعار بسريان الأثر إليها، ولتكون عبرةً لكل ظالم، " وهي ظالمة " حال من القرى، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بسبب ظلمهم، ثم وصف تعالى أخذه بالأليم والشديد، والألم وشدته سبب التنغيص في الدنيا والآخرة، حيث لا يحس المرء بأي أثر للنعمة حوله (٤).

قال ﷺ: " **إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك ...)** " الآية (٥).

وأقول: الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته معلومة للجميع وفق سنن الله في الكون التي لا تتغير، وقد كان القرآن، والتاريخ، والواقع شاهد على نهاية وعاقبة الظلم والظالمين، ومن هذه السنن الهامة زوال النعم وعدم دوامها في ظل الظلم والطغيان.

---

(١) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٤ص٤٧٠ . وتفسير القرآن العظيم – ابن كثير ج٥ص٩٦.
والمقتطف – المنصوري – ج٣ص٢٥٧-٢٥٨. وفتح البيان – القنوجي – ج٨ص٥٦.
(٢) هود ، (١٠٢).
(٣) الكهف ، (٥٩).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج٥ص٨٩. والمقتطف – المنصوري – ج٢ص٥٥٩.
والتفسير المنير – الزحيلي – ج١٢ص١٤٥.
(٥) صحيح البخاري– كتاب التفسير(٦٥)- باب قوله "وكذلك أخذ ربك"(٥)- ص(٨٩٧)- رقم(٤٦٨٦).
صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب(٣٤)- باب تحريم الظلم(١٥)- ص(١٢٧٧)- رقم(٢٥٨٣).

سادساً: استعمال النعمة في الصد والإضلال عن سبيل الله.

يعد الصد عن سبيل الله من أهم أسباب زوال النعمة وتحولها، وحلول النقمة مكانها، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنها من الأسباب الموصلة إلى غضب الله سبحانه، والموجبة لدخول النار، وإن صد الناس عن سبيل الله، وإضلالهم، واستعمال ما أنعم الله به على الإنسان في سبيل صرف الناس عن دين الله وعن طريقه، يعجل بزوال النعمة، ويؤثر في بقاءها وفي الإنتفاع بها. وقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك، وبين لنا أن أقواماً استخدموا ما آتاهم الله من نعم وأموال وخيرات في الإضلال، وفي إبعاد الناس عن الله وعن دينه. فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة كانت زوال ما في أيديهم من نعم، وتحولها عنهم، وحلول النقم مكانها، مما أورثهم الحسرة والندامة على ذلك.

والقرآن الكريم شاهدٌ على ذلك بما حمله إلينا من أخبار حملت هذا المعنى، وبينت سوء عاقبة هؤلاء الصادين المضلين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (١).

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أن الحق سبحانه لما فرغ من بيان حال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية موضحاً أنها كانت خليطاً من المكاء والتصدية أي الصفير والتصفيق، أتبعها بشرح أحوالهم في الطاعات المالية، وبيان أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ: ومن معه من المؤمنين.

والآية نزلت في أبي سفيان كما قال ابن عباس عندما أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب، وكانت الأوقية يومئذٍ اثنين وأربعين مثقالاً من الذهب (٢).

والمعنى: أن الكفار يقصدون بنفقتهم الصد عن سبيل الحق، وغلبة المؤمنين، ويبذلون المال، والعيال، والنعم في سبيل ذلك، فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغري الكافر بأن يتمادى في الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر ماله، وما لديه من نعم وخيرات، ويتجرع بعد ذلك الندم والحسرة على ذهاب الأموال، وزوال النعم، ثم يحل بهم الأسر، والقتل، والغُنم لأموالهم، والعطف بـ " ثم " يقوي أن الحسرة في الدنيا، والإخبار بسين الاستقبال فيه إخبار معجز عن الغيب عن علو الإسلام وظهوره، وهزيمة المشركين، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم سيزج بهم في جهنم (٣).

---

(١) الأنفال ، (٣٦).

(٢) انظر: فتح البيان – القنوجي – ج٥ص١٧١.

(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٤ص٤٨٧. وتفسير الشعراوي – الشعراوي – ج٨ص٤٦٩٤. وصفوة التفاسير – الصابوني – ج١ص٥٠٣.

والله سبحانه، ينذر هؤلاء الكفار الذين ينفقون ما أنعم الله به عليهم في الصد عن سبيله، وفي إضـلال عباده، بأنها أي هذه الأموال ستعود عليهم بالحسرة، إنهم سينفقونها بالتأكيد، لكنها ستضيع في النهاية، وليُغلبوا هم وينتصر الحق في هذه الدنيا، وفي الآخرة ستكون الحسرة الكبرى (١).

ومن قبل مشركي قريش كان آل فرعون ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله وفي إضـلال النـاس عن طريق الحق فكان زوال النعمة وكان الهلاك جزاءً وفاقاً لما قاموا به ولما فعلوه. قال تعالى علـى لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ... ﴾ (٢). وهذا إخبارٌ من موسى عليه السـلام بـأن الله تعالى إنما أمدهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، أي إنك أوليتهم هـذه النعمـة، ليعبـدوك، وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً. والزينة ما يُتزين به من الحلـيّ، واللبـاس، والأثـاث، والأموال، والصحة، وسائر النعم.

وعندما دعا موسى على قومه بين سبب الدعاء، فقال: رب إنك أعطيتهم من الدنيا والنعمة ما أبطرهم، وهو الزينة الشاملة من حُليّ، ولباس، وأثاث، وأموال كثيرة، ومتاع كبير من الزروع والأنعـام. وأدى النعيم بهم أن تكون عاقبة أمرهم إضلال عبادك عن الدين، وصدهم عن السبيل، فاستحقوا هذا الـدعاء الذي أودى بما عندهم من نعمةٍ وزينةٍ وعافية (٣).

وقوله تعالى: " ربنا ليضلوا عن سبيلك " اللام لام العاقبة، أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة، لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم من طاعتك وتوحيدك، ثم دعا عليهم بالطمس علـى أمـوالهم بمعنى أهلِكْ أموالهم، وبددها يا الله، واشدد على قلوبهم، واطبع عليها بالقسوة، وذلك حينما رأى موسى هذا الطغيان من فرعون الذي ادعى أن له ملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته، والطمـس هـو المحق وإزالة العين ومنفعتها، وقد دعى عليهم لأنه علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا (٤).

وفي آية سورة النساء التي مرت في الموضوع السابق، نتذكر كيف أن الله عاقب اليهود بسبب ظلمهم، فحرم عليهم طيبات أحلت لهم، ومنعت عنهم نعم، وأزيلت عنهم خيرات طالما تمتعوا بها بسبب الظلـم وبسبب آخر ذكرته الآية الكريمة بعد الظلم مباشرةً.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٣ص١٥٠٦-١٥٠٧.

(٢) يونس ، (٨٨).

(٣) المقتطف – المنصوري – ج٢ص٤٩٣ . والتفسير المنير – الزحيلي – ج١١ص٢٥٠-٢٥١.

(٤) انظر: زهرة التفاسير – أبو زهرة – ج٧ص٣٦٢٥ . وصفوة التفاسير – الصابوني – ج١ص٥٩٥.

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً ﴾ (١).
وفي هذه الآية الكريمة يذكر المولى سبحانه أنه حرم على اليهود طيبات، ومنع عنهم نعم، وأزال عنهم خيرات بسبب ظلمهم، وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين التوحيد، دين الحق فصدوا أنفسهم وغيرهم عن صراط الله المستقيم، فاستحقوا زوال النعمة عنهم بذلك، وتحول كثير من الطيبات والمباحات إلى محرمات (٢).

أقول: إن صد الناس عن دين الله، وإضلالهم عن طريق الحق ذنبٌ عظيمٌ، يورث الإنسان سخط الله وعقابه، وفي الآخرة غضبه وعقابه، وهو في الدنيا من أهم أسباب زوال النعمة، وحلول النقمة، وحضور العذاب المهلك، وإن هؤلاء الذين يصدون الناس عن دين الله ويبغون في الأرض بغير الحق، ويحرفون الناس عن دينهم، استحقوا زوال النعم والخير عنهم وحرموا الاستمتاع بطيبات الحياة في مقابل أنهم منعوا الخير والهداية عن الناس، ولم يتركوهم ليعرفوا ربهم وخالقهم، فيفوزوا بسعادة الدنيا وجنة الآخرة، فلما حرموا الناس من الخير لا جرم استحقوا أن يحرموا الخير من الله خالقهم ورازقهم، ومن أنعم عليهم بشتى أنواع النعم.

---

(١) النساء ، (١٦٠).
(٢) انظر: صفوة التفاسير – الصابوني – ج١ص٣١٨.

الفصل الخامس

آثار النعمة بين الشاكرين والجاحدين

وفيه أربعة مباحث: -

المبحث الأول: الشاكرون الذين أنعم الله عليهم ونماذجهم .

المبحث الثاني: الجاحدون الذين كفروا بنعمة الله ونماذجهم .

المبحث الثالث: أثر شكر النعمة على الإنسان.

المبحث الرابع: أثر كفر النعمة وجحودها على الإنسان.

المبحث الأول: الشاكرون الذين أنعم الله عليهم ونماذجهم .

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: من هم الشاكرون الذين أنعم الله عليهم .

المطلب الثاني: كيف ندخل في حزبهم .

المطلب الثالث: نماذج من الذين شكروا فأنعم الله عليهم .

الفصل الخامس

آثار النعمة بين الشاكرين والجاحدين

المقدمة:

هذه هي المحطة الأخيرة من محطات هذا البحث، ويُعد هذا الفصل غاية البحث وثمرته ونتيجته، حيث يذكر الباحث فيه ما يجب أن يستنتجه، ويصل إليه كل قارئ له، وكل مطلعٍ عليه، وذلك من خلال مجموعة من المباحث الهامة التي ينبغي معرفتها وفهمها، وسنقف مع الذين أنعم الله عليهم وِقفةً فاحصةً، ليسهل علينا الاقتداء بهم، والسير على دربهم، مع استعراض نماذج من هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وأكرمهم بنعمته، وعطفه، وفضله، ورضاه. وفي المقابل سنقف مع الذين جحدوا نعم الله وكفروا بها، مع استعراض نماذج من هؤلاء الجاحدين المعرضين، حتى نبتعد عن سلوك طريقهم التي سلكوها، لكي لا يحل بنا ما حلّ بهم من النقمة والعذاب والبوار.

وسيتبع ذلك ذكر بعض آثار شكر النعمة على الإنسان، ومنها الحفاظ على النعمة، وزيادتها، ودوامها، ثم الجزاء الحسن في الآخرة، وكذلك الوصول إلى غاية الغايات، وهي رضا المولى تبارك وتعالى ونيل محبته.

وعلى العكس من ذلك سيقف الباحث مع بعض الآثار المترتبة على كفر النعمة وجحودها على الإنسان، حتى لا يصل أحد إلى سوء العاقبة التي تزول فيها النعمة وتتبدل، وتحل فيها النقمة والبلاء، وتكون عاقبة أمر الجاحد الهلاك والعذاب، والخسران في الدنيا والآخرة، نسأل الله أن يديم علينا نعمه، ويرفع عنّا نقمه، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين.

المبحث الأول: الشاكرون الذين أنعم الله عليهم ونماذجهم.

لا بد لنا ونحن نتحدث عن النعمة، ونتفيأ ظلالها، ونعيش معها في كنف موليها ومسديها جل شأنه، أن نقف وقفةً مع أهلها وأصحابها الذين ذاقوا أحلى ما فيها، ودخلوا سجل الخلود من أوسع أبوابه حين ذكرهم القرآن الكريم وأثنى عليهم، ولا بد أن نتعرف على أهم صفاتهم وخصائصهم، لنعرف قدرهم، ونقتدي بهم، ونسير على ذات الدرب الذي ساروا عليه، علّنا أن نتشبه بهم، ونَرِدَ موردهم، ونجاري بعض ما فعلوه، رجاء أن ينعم الله علينا ببعض ما أنعم به عليهم، ويشملنا بعطفه وفضله مثلما شملهم، فإن التشبه بالكرام فلاحٌ، لا سيما إذا كان هؤلاء الكرام هم رسل الله وأنبياؤه الذين اصطفاهم الله على العالمين برسالاته وبكلامه وهم مَنْ أَعلى القرآن الكريم ذكرهم، ومجَّد تاريخهم، وأمرنا بالاقتداء والتأسي بهم، لأنهم أسوة البشرية وقدوتها في لحظات التيه والضياع خاصةً، وفي كل وقت عامةً.

المطلب الأول: من هم الذين شكروا فأنعم الله عليهم.

سؤال سنحاول الإجابة عليه، فإنه ليس بمقدور أحد أن يمر على هذا السؤال دون أن يحاول الوقوف على إجابته.

هؤلاء هم الذين نذكرهم كل يوم وليلة سبع عشرة مرةً على الأقل، وهؤلاء الذين لا تصح لنا صلاةٌ بدون ذكرهم، وهم الذين اهتم بهم المولى عز وجل وأعلى ذكرهم. قال تعالى في حقهم: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (١)، وهذه الآيات الكريمة من فاتحة الكتاب فيها توجيه لنا، وحضٌ على أن نطلب من الله الهداية إلى الطريق المستقيم، والصراط القويم، ثم يعرفنا القرآن الكريم بهذا الصراط من خلال التعريف بأصحابه، فإن مَنْ عرف أصحابه وأهله، فقد عرف ذلك الصراط الذي نسأل الله أن يهدينا إليه أجمعين.

واختلف أهل العلم والتفسير في بيان من هم الذين أنعم الله عليهم على أقوال كثيرة منها: أنهم المؤمنون بالله تعالى، وقال البعض: هم أصحاب محمد ﷺ، وقالت فرقة: هم مؤمنو بنو إسرائيل، وقيل: هم أصحاب موسى قبل أن يُبدلوا، وقيل هم الأنبياء خاصة، وقيل: هم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر.

وذكر ابن عباس رضي الله عنه أن الجمهور من الصحابة قالوا: أراد الله بالصراط ، صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وانتزعوا ذلك من آية النساء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ﴾ (٢).

وهؤلاء الأصناف الأربعة الذين نسال الله أن يهدينا طريقهم ويحشرنا في زمرتهم هم أهل الهداية والاستقامة والطاعة، وهم الذين امتثلوا أوامره، وتركوا نواهيه (٣)، وسوف يأتي الحديث عنهم مفصلاً قريباً – إن شاء الله –

قلت: لا يجد المرء صعوبة في ترجيح قول الجمهور على غيره من الأقوال في تعيين المراد بالذين أنعم الله عليهم لأسباب منها:-

١- أن قول الجمهور أعم وأشمل من غيره، فهو يشمل جميع الأقوال السابقة، لأن كل من ذكر منهم يدخل تحت صنف من الأصناف الأربعة الذين ذكرتهم آية النساء.

---

(١) الفاتحة ، (٦ – ٨)

(٢) النساء ، (٦٩)

(٣) انظر: جامع البيان – الطبري – ج١ ص١٠٦ – ١٠٧ . وتفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج١ ص٤٣ . والبحر المحيط – أبو حيان – ج١ ص١٤٧ . وعمدة التفسير – أحمد شاكر – ج١ ص٨٣ .

٢- أن جمهور الصحابة قد فسَّروا الذين أنعم الله عليهم بالأصناف المذكورة في سورة النساء، ولم يعلم لهم مخالف أو معترض فعُدَّ ذلك إجماعاً، ومعلوم أن إجماع الصحابة حجةٌ؛ لأنهم لا يجتمعون على خطأ.

٣- إن آية سورة الفاتحة أجملت ذكر الذين أنعم الله عليهم، وإن آية سورة النساء فصَّلت ذكرهم تصريحاً وليس تلميحاً، وكما هو معلوم فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقد أنعم الله عليهم بخلقهم للسعادة، وقيل بأن نجَّاهم من الهلاك، وقيل بالهداية والاتباع للرسل، ومضمون الآيات طلب استمرار الهداية إلى طريق منْ أنعم الله عليهم بطاعته وعبادته، وفي الآية دليلٌ واضحٌ على أن طاعة الله جلَّ ثناؤه، لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله عليهم، وتوفيقه إياهم لها. وهؤلاء لَمَّا سألوا طريق أهل النعمة، وتشوقت نفوسهم إلى معرفتهم، فميزهم بأضدادهم تحذيراً منهم. والعبد المؤمن هنا لما طلب أشرف طريق، سأل أحسن رفيق (١).

أما الأصناف الأربعة المذكورون في الآية الكريمة فهم:-

- الأنبياء: وهم الذين أنبأهم الله بدقائق الحِكم، وأخبروا الناس بأحسن الكلام، بما لهم من طهارة الشيم، ورفيع المناقب والعِظم.

- الصديقون: وهم كثيرو الصدق، لأن الصديق صيغة مبالغة، وهم الصادقون المخلصون في الأقوال والأفعال، المصدقون بكل ما جاء به الأنبياء مما يشك فيه الناس، السابقون لذلك.

- الشهداء: جمع شهيد، والمراد بهم مَنْ بذلوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله – وأحسن ما قرأت من أقوال المفسرين في تعريف الشهيد ما قاله أبو حيان – قال: الشهيد فعيل بمعنى فاعل، وهو الذي يشهد لدين الله تارةً بالحجة والبيان، وتارةً بالسيف والسنان، فالشهداء هم القائمون بالقسط الذين شهدوا لدين الله بالحق، ولسواه بالبطلان، ثم قتلوا في سبيل الله.

- الصالحون: الذين لم يعتريهم في ظاهر ولا باطن فسادٌ، وكانوا صالحين في أقوالهم وأفعالهم، وقد صرفوا أعمارهم في طاعته، وأقوالهم في مرضاته (٢).

---

(١) انظر: وجامع البيان – الطبري – ج١ ص ١٠٧ .
البحر المحيط – أبو حيان – ج١ ص١٤٧ .
ونظم الدرر – البقاعي – ج١ ص ١٨ – ٢٠ .
(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ ص٣٠٠ .
ونظم الدرر – البقاعي ج٢ ص٢٧٧ .
والمقتطف – المنصوري – ج١ ص٤٧١ .

و" إهدنا " دعاءٌ يتضمن معنى الاستعانة، أي وفّقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل إليك، ووفِّقنا للاستقامة عليه بعد معرفته، ويكشف الحق لنا عن طبيعة هذا الصراط المستقيم، فهو طريق الذين قسم لهم نعمته، لا طريق الذين غضب عليهم، لمعرفتهم الحق ثم حيادهم عنه، أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه، إنه صراط السعداء المسرورين المهتدين الواصلين إلى طريق الفوز والرضوان(١).

وفي القرآن آية أخرى تحدثت عن الذين أنعم الله عليهم على غرار آية سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ (٢). وهذه الآية إشارة إلى أن المذكورين في السورة الكريمة وهم عشرة أنبياء، أنعم الله عليهم بالنعم الدينية والدنيوية. " من النبيين " بيان للموصول أي هم أنبياء الله وأصفياؤه من ذرية آدم أي من نسله، ومن ذرية من حُمل مع نوح، وهم من عدا إدريس عليه السلام، لأنه كان قبل نوح ومن ذرية إبراهيم وهم الباقون، ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف " وممن هدينا واجتبينا " أي من جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم للنبوة. ثم قال: " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً " استئناف بياني يُبيِّن سبب استحقاقهم للإنعام وهو البكاء والسجود، والمراد منه الخضوع والخشوع، وقد مدح الله هؤلاء الأنبياء بهذه الصفات، وخصَّهم بالإنعام، ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم، وسلوك طريقهم، واقتفاء أثرهم (٣).

قلت: ولذلك لا عجب أن يذكرنا المولى بهم في كل يوم، وعند كل صلاة، لنهتدي إلى الصراط الذي اهتدوا إليه، ولنصل إلى العاقبة الحسنة التي وصلوا إليها بمنِّه ونعمته ورحمته. وإنِّي وإن كنت أقر بأن هؤلاء الأنبياء الكرام قد أنعم الله عليهم واصطفاهم، وهدى خلقاً كثيراً على أيديهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهم الذين أنعم الله عليهم أيضاً، إلا أن أمة سيد الخلق ﷺ لم ينعم الله عليهم فقط، بل وأتمَّ عليهم نعمته على أحسن وجه، قال تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٤)، وذلك بأن جعلنا مسلمين مؤمنين نتبع سيد المرسلين، مستكملين كل كمال، عالين على كل الأمم بما نمتلك من منهج، حيث اختار الله لنا خير دين، وأنعم به علينا، ورضيه لنا، فتمت به علينا النعمة، وزاد به علينا الفضل، فله وحده الحمد والشكر على ذلك (٥).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج١ ص٢٦ .
(٢) مريم ، (٥٨).
(٣) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ ص٣٠٩ . وفتح البيان – القنوجي – ج٨ ص١٧٤.
(٤) المائدة ، (٣) .
(٥) انظر: الأساس في التفسير – سعيد حوى – ج٣ ص١٣١٥ .

المطلب الثاني: كيف ندخل في حزبهم.

بعد أن عرفنا في المطلب السابق الذين أنعم الله عليهم، وعرفنا أهم صفاتهم التي أوصلتهم إلى هذا الإنعام، والمكانة الكبيرة التي أولاهم إياها القرآن الكريم، يجب علينا الآن أن نعرف ما الواجب علينا فعله لنصبح من حزبهم؟ وما الطريق الذي يتحتم علينا أن نسلكه حتى نصبح أهلاً للنعمة مثلهم؟ وحتى ننال رضا المولى سبحانه، فتحصل لنا سعادة الدارين.

وما دام الأمر كذلك فإنه لا بد لنا من أن نعود إلى القرآن الكريم لنستنطق آياته، ونسترشد بتوجيهاته، ونعمل بوصاياه، حتى ندخل في حزب أولئك الكرام من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ولكن ينبغي أن نعلم أن ما وصل إليه أولئك ومن سار على دربهم إنما هو بفضل الله وتوفيقه ورحمته بهم، وهنا لا بد من عودة لنا إلى سورة النساء، حتى ننظر في الآية الكريمة التي يقول الله فيها: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً ﴾ (١). وهذه الآية نزلت في ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحبّ لرسول الله ﷺ فأتى ذات يوم، وقد تغيَّر لونُه، ونحل جسمُه، فقال: يا ثوبان ما غيَّر لونك؟ فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع، غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك هناك، لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وأني وإن كنت أدخل الجنة، كنت في منزلةٍ أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذلك حين لا أراك أبداً. فنزلت الآية (٢).

ومن باب الفائدة فقد حُكي مثل قول ثوبان هذا عن جماعة من الصحابة، ومنهم عبد الله بن زيد الأنصاري وهو الذي أُري الأذان، ونُقل عنه أنه لما مات النبي ﷺ قال: اللهم اعمني حتى لا أرى شيئاً بعده، فعمي (٣). قلت: أي حُبٍ هذا الذي أخذ بقلبه حتى أنه ليتمنى ألاّ تقع عيناه إلا على محبوبه؟! وأي شيء فعله رسول المحبة حتى أسر قلوب محبيه إلى هذا الحد لدرجة أنهم لا يتخيلون لهم دنيا ولا آخرة بدون أن تكتحل أعينُهم برؤيته ﷺ ؟!.

قال البقاعي:" ترغيب في مطلق الطاعة " ومن يطع الله " أي في امتثال أوامره، والوقوف عند زواجره مستحضراً عظمته – طاعة هي على سبيل التجدد والاستمرار. " والرسول " أي في كل ما أراده فإن منصب الرسالة يقتضي ذلك، لا سيما من بلغ نهايتها" فأولئك" أي العالو الرتبة، العظيمو الشرف.

---

(١) النساء (٦٩ ، ٧٠)

(٢) انظر: أسباب النزول – السيوطي – ص١٢٨ . أسباب النزول – الواحدي – ص١٢٢ – ١٢٣ .

(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ ص٢٩٩ .

" مع الذين أنعم الله عليهم " أي معدود من حزبهم، فهو بحيث إذا أراد زيارتهم أو رؤيتهم وصل إليهم بسهولة، لا أنه يلزم أن يكون في درجاتهم " (١).

والآية الكريمة تتحدث بوضوح وصراحة عن شرط المعية وهو الطاعة والانقياد، الذي يقتضي من العبد العمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهى الله ورسوله عنه، واتباع شرعه، والرضا بحكمه، ومن فعل ذلك فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً للمرء يرافقهم في الجنة، والرفيق هو الصاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب، واللطافة في المعاشرة. وفي كل هذا ترغيب للمؤمنين في طاعة الله وطاعة رسوله، حيث وُعدوا بمرافقة أقرب عباد الله إلى الله، وأرفعهم عنده درجات (٢).

ولقد جاءت الأحاديث الشريفة تحثٌّ على اتباع سبيل من أنعم الله عليهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " **كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة، فسمعت رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه – وأخذته بُحة – يقول: " مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " فظننت أنَّه خُيِّر** " (٣).

والمراد بالمعية التي تحدثت عنها الآية الكريمة، أنه مع النبيين في دار واحدة ، وقد رزق كل واحد منهم الرضا بحاله ، بحيث يتمكَّن كلٌّ واحد منهم من رؤية الآخر وإن بَعُدَ مكانُه ، وقيل: المعية كونهم يرفعون إلى منازل الأنبياء متى شاؤوا تكرمةً لهم، ثم يعودون إلى منازلهم، وقيل: إن الأنبياء والصديقين والشهداء ينحدرون إلى من أسفل منهم ليتذاكروا نعمة الله (٤).

يقول سيد قطب: " إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب، فيه ذرةٌ من خير، وفيه بذرة من صلاح، وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في جوار الله الكريم.. وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي.. إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده، وطاعته وحدها أن ينالها.. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم " (٥).

---

(١) نظم الدرر – ج٢ ص٢٧٦ – ٢٧٧ . "بتصرف"
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ ص٢١٢ . والبحر المحيط – أبو حيان – ج٣ ص٣٠٠ . والمقتطف – المنصوري – ج١ ص٤٧١ .
(٣) صحيح البخاري– كتاب المغازي، (٦٤) – باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، (٨٤) – ص(٨٣٩)– رقم (٤٤٣٥) .
(٤) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٣ ص٢٩٩ .
(٥) في ظلال القرآن – ج٢ ص٦٩٩ .

والحقيقة التي لا يجوز لنا أن ننساها، ونحن نتحدث عن الكيفية التي تجعلنا بمعية مَنْ أنعم الله عليهم، أن المسلم مطالب مع العمل الصالح، والخضوع، والانقياد، والطاعة المطلقة لله ورسوله، بأن يدعو الله ويجتهد في الدعاء أن يهديه الصراط المستقيم، لأن الهداية إلى الصراط المستقيم، موصلةٌ إلى الذين أنعم الله عليهم، لأنهم سلكوا ذلك الصراط. والدعاء سلاح المؤمن، وزاده، ليصل إلى معية هؤلاء، وهذا ما مرَّ معنا في آية سورة الفاتحة في قول الحق:﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ...﴾(١). فلا بد من طلب الهداية من الله، والاجتهاد في الدعاء، والإلحاح فيه في الصلاة وفي غيرها أن يهدينا هذا الصراط لنسير عليه. هذا الصراط الذي جعله الله سبيلاً واحداً، بخلاف طريق الكافرين فقد جعلها الله سبلاً شتى متعددة، كي يجتمع المؤمنون على منهج واحد، وصراط واحد، ليكونوا أمة واحدة مسلمة، أمة أنعم الله عليها، وألحقها بالصالحين، لا أحزاباً متفرقة مختلفة متناحرة تتنكب الهداية، وتنحرف عن الصراط (٢).

ومضمون الآية الكريمة يحمل هذا المعنى فهي طلبٌ دائم مستمر للهداية إلى طريق من أنعم الله عليهم، لأن من حمد الله، وأقرَّ بأنه يعبده، ويستعينه، فقد حصلت له الهداية، لكنه بموجب الآية الكريمة يسأل الله دوامها واستمرارها، ليكون دوماً بمعية أولئك المنعمين، وبصحبة أولئك المكرمين (٣).

"فالصراط المستقيم هو سبيل المؤمنين، وهو منهجهم، إنه سبيل واضح، ودربٌ محدد، مهما تكن فيه من صعوبات، وصخور يضعها أعداء الله، فإنه يظل صراطاً مستقيماً لا يعوج ولا ينحرف، ما بقي المؤمنون متمسكين بالمنهاج الرباني، واعين لواقعهم البشري، صادقين مع الله، وأما السبل الأخرى، مهما كان فيها من متاع وزخرف فهي سبل متفرقة، منقطعة عن منهاج الله، لن تؤدي إلا إلى الدمار والويل " (٤).

وبسلوك هذا الصراط المستقيم والسير في دربه، واقتفاء أثر سالكيه يُدخل الإنسان في حزب الذين أنعم الله عليهم، ويكون بصحبتهم في الآخرة ويحشر معهم.
اللهم أدخلنا في حزب الذين أنعمت عليهم وثبتنا على صراطك المستقيم، وجنبنا الانحراف عنه، وأبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) الفاتحة ، (٦ ، ٧) .
(٢) انظر: موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام – د. عدنان النحوي – ص١٠٦ .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج١ ص١٤٨ .
(٤) لقاء المؤمنين – د. عدنان النحوي – ج١ ص٥٣ ، ٥٤ .

المطلب الثالث: نماذج من الشاكرين الذين أنعم الله عليهم.

ما دمنا قد عرفنا الذين أنعم الله عليهم، وذكرنا بعض صفاتهم التي استحقوا بموجبها إنعام المولى عليهم، وعرفنا الطريق الموصلة لمرافقتهم ومعيتهم في الدنيا والآخرة، كان لا بد للباحث أن يتطرق إلى نماذج لأولئك الكرام الذين أنعم الله عليهم، ولن يجد الباحث خيراً من أنبياء الله ورسله ليتحدث عنهم، علَّنا أن ننتفع بسَيْرِهم ونتأسى بسيرتهم، ففيهم وفي أمثالهم تَكمُن الأسوةُ الحسنة، مستظهراً لجوانبَ من سلوكهم الحميد، الذي استحقوا بموجبه إنعام الله عليهم بعد رحمته سبحانه بهم، ومظهراً عاقبة أمرهم كما أخبرنا القرآن الكريم عنها.

النموذج الأول: نوح عليه السلام.

ونوح عليه السلام – نبي كريم من أُولي العزم من الرسل، وقد بقي عليه السلام يدعو قومه " ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً " ومع طول هذه الفترة إلا أنه لم يؤمن معه إلا القليل، وقد أنعم الله عليه بإجابة دعائه على قومه، عندما علم بمقتضى الوحي أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ثم أنعم الله سبحانه عليه ومن معه بالنجاة من الغرق، وفي هذه النجاة بقيت ذرية نوح الذين آمنوا معه لم يهلكهم الطوفان إلا ابنه العاق. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (١)، بقيت ذرية نوح عليه السلام، وجميع الناس ذريته عليه السلام، وجعل الله له ثناءً حسناً مستمراً إلى يوم القيامة، وذلك لإحسانه في عبادة خالقه، ولإحسانه إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في المحسنين، أن ينشر الثناء عليهم والمديح لأفعالهم كلما أحسنوا (٢).

وبقي نوح عليه السلام بعد تلك النجاة شاكراً لربه، دائم الشكر لنعمه بعد هذا الاصطفاء، وبعد إجابة الدعاء، وكذلك بعد الإنجاء، ولهذا سمَّاه القرآن عبداً شكوراً. فقال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ (٣)، وهذا الوصف وصفَ الله به عبده نوحاً أنه كان كثير الشكر، وجعل هذا الوصف كالعلة لما قبله، إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أسباب تحصيل النعم، ومن أفضل الطاعات التي تقرب من الله، والمولى وصفه بالعبد الشكور حثّاً لذريته أن تسلك طريقه في الشكر والعبادة (٤).

---

(١) الصافات ، (٧٥ ، ٨٢) .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٤ ص٢٦٣ .

(٣) الإسراء ، (٣) .

(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ ص٢٦٢ .

قال ابن عطية: " وصفه بـ "الشكر " لأنه كان يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة على المطعم والمشرب والملبس ... وغير ذلك عليه الصلاة والسلام " (١).

ولا عجب بعد ذلك أن نجد كل هذه البركة في عمر هذا النبي الشاكر الحامد، لأن الله سبحانه قد جازاه بهذه الصفة بكل هذه النعم وعلى رأسها أن اصطفاه ليكون رسولاً له، يبلغ رسالته إلى الناس، بل وجعله من أولي العزم من الرسل، وأبقى ذريته من بعده لتسكن الأرض، عليه صلوات الله وسلامه فكان بحق أبو البشر الثاني بعد آدم عليه السلام.

النموذج الثاني: إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام نبي من أكرم الأنبياء على الله سبحانه، بل يعد عليه السلام أبو الأنبياء جميعاً، وهو من أولي العزم من الرسل، وقد أنعم الله عليه بنعم كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، أذكر منها على سبيل المثال أن الله هداه إلى الحق، واجتباه ليكون نبياً، حنيفاً، بعيداً عن الشرك، قال تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

إذن فقد كان عليه السلام أمةً، خاضعاً، أواهاً، حليماً، ثم بعد ذلك وصفه الله بأنه كان شاكراً لما أنعم الله به عليه، يؤدي ما يجب عليه تجاه المنعم، ولذلك كان الاجتباء والهداية إلى الصراط المستقيم.

والأمة هو الرجل الجامع للخير أي لخصال الخير، يعلم الناس شريعة ربهم ، وقيل أمة بمعنى مأموم أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، ويقتدوا به، ثم هو شاكرٌ لأنعم الله التي أنعم الله بها عليه، وإن كانت " أنعم " جمع قلة، إلا أنه شاكر لما كثر منها بطريق الأولى (٣).

ثم يقول الحق تعالى في الآية التالية في حقه عليه السلام: ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤)، والحسنة لسان الصدق، وإمامته لجميع الناس، وأن كل أمة من الأمم تقر أن إيمانها هو إيمان إبراهيم وانه قدوتها، وقوله " لمن الصالحين " بمعنى المنعم عليهم، أي من الصالحين في أحوالهم ومراتبهم (٥).

إذن جعله الله إماماً للناس بعد الاصطفاء، وجعل النبوة في ذريته، وأنعم عليه بالذرية الصالحة على الكبر عندما وصلت امرأته إلى حالة العقم .. فأرسل الله تعالى ملائكته مبشرين له ولزوجه بغلام.

---

(١) المحرر الوجيز – ج٣ ص٤٣٧ .
(٢) النحل ، (١٢٠ ، ١٢١) .
(٣) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٣ ص٢٥٥ .
(٤) النحل ، (١٢٢) .
(٥) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٣ ص٤٣١ .

كما سجّل ذلك القرآن في مواطن عديدة، فما كان من إبراهيم إلا أن أحس بتلك النعمة الغامرة فتوجَّه إلى الله تعالى بالشكر والثناء والحمد على نعمه، فقال مسجلاً القرآن قوله عليه السلام: ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء ﴾ (١).

قال البيضاوي: " أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيّد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة، وإظهاراً لما فيها من آلائه " (٢).

ثم أنعم الله على إبراهيم بنعمة كبيرة، وذلك بعد المرور بتجربة رهيبة، واختبار عظيم، وبلاءٍ مبين، عندما امتثل لأمر الله في ذبح ابنه لرؤية رآها في المنام، تلك النعمة الكبرى كانت هي الفداء بذبحٍ عظيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣). وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام لم يصل إلى المرتبة التي وصل إليها إلا بعد تمحيص واختبار كبير، ولما شكر وحمد عليه السلام، كانت تلك المرتبة العظيمة، والدرجة الرفيعة ﴿ وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٤).

قال الفخر الرازي: " لما دلّت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي وهو كونه خليلاً لله تعالى بسبب أنه كان عاملاً بتلك الشريعة كان هذا تنبيهاً على أن من عمل بهذا الشرع لا بد وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين " (٥).

النموذج الثالث: داود وسليمان عليهما السلام.

داود وسليمان عليهما السلام نبيان من أنبياء بني إسرائيل جمع الله لهما بين النبوة والملك، وهما والد وولده عليهما السلام، وقد خصَّهما الله بنعم كثيرة، وحباهما بخيرٍ عميم، وقد قابلا نعم الله عليهما بالشكر لله تعالى والثناء عليه، وسيتحدث الباحث عنهما تباعاً من خلال ما سجله القرآن الكريم بحقهما وسأبدأ بالأب وهو داود عليه السلام.

أولاً: داود عليه السلام.

وقد حباه الله سبحانه نعماً كثيرة منها على سبيل المثال: أنه جعله مَلِكاً، وآتاه مُلكاً قوياً، وآتاه الله الحكمة، والفصل في الخصومات، وسخر معه الجبال يسبحن الله تعالى، وسخر له الطير يأتمرون بأمره، ويقفون على خدمته، وقد علمه الله صناعة الدروع إلى غير ذلك من النعم الكثيرة.

---

(١) إبراهيم ، (٣٩) .
(٢) أنوار التنزيل – ج٢ ص١٦٣.
(٣) الصافات ، (١٠٧) .
(٤) النساء ، (١٢٥) .
(٥) التفسير الكبير – ج١١ ص٤٦.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)، قال ابن كثير: " يخبر الله عما أنعم به على عبده داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين، فجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدد والعُدد، وما أُعطاه ومنحه من الصوت الجميل، الذي كان إذا سبَّح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات، والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات " (٢).

ونجد أن الحقَّ سبحانه قد ذكر بعضاً من نِعمِه على داود عليه السلام في هاتين الآيتين وهي:

١- تسبيح الجبال معه " يا جبال أوبي معه " ومعنى " أوبي " أي رجِّعي معه التسبيح ورددية. أو أرجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله سبحانه يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة. فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزةً وكرامةً لداود عليه السلام (٣).

٢- تسخير الطير له للتسبيح معه ومع الجبال، أو تسخيراً عاماً لكل شيء فهي تحت أمره، وفي خدمته، وإن كان تسبيح الطير أيضاً بأصواتها وترنمها لا يَخفى على الله سبحانه (٤).

٣- تليين الحديد، وقد علَّمه اللهُ صناعةَ الدروع فكان يصنعها ويبيعها، وألان له الحديد كالشمع، لأجل أن يقوم بتصنيعه، ثم يقتات بثمنه هو وأهله ويتصدق، ولأجل أن تَقيهم من عدوهم في القتال (٥).

٤- تقوية ملكه وإحكامه، فقد جمع الله سبحانه له الملك والنبوة، وقوَّى له ملكه بالشجاعة، والنصر على الأعداء، وكثرة الجنود، قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ.... ﴾ (٦).

٥- آتاه الله الحكمة وحسن القضاء، فقد كان لا يقول إلا صواباً ولا يفعل إلا صواباً، وكان يضع الأمور في مواضعها، وقيل: إن الحكمة النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل، وكان قاضياً منحه الله القدرة على الفصل في الخصومات. قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٧) فكان يُفصّل المعنى في محل الخلاف، ويُوضِّح ويُبيِّن، ولا يأخذه في ذلك حصرٌ ولا ضعفٌ ولا زلل (٨).

---

(١) سبأ ، (١٠ ، ١١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم – ج٦ ص٢٤٣ .

(٣) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٣ ص٥٥٤ .

(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ ص٣٧٧ .

(٥) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج٨ ص١١٤ .

(٦) ص ، (٢٠) .

(٧) ص ، (٢٠) .

(٨) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ ص٤٩٧.

وفي مقابل كل هذه النِّعم فقد كان عليه السلام شاكراً هو وآلُ بيتِه نِعَمَ الله عليهم، حتى أن صلاته وصيامه وتسبيحه كانت هي الأحب إلى الله، ولم يتأخر هو وآلُه عليه السلام حينما طلب الله منه الشكر ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١). " أي وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً على ما آتاكم .. وسُميت الطاعةُ شكراً لأنها من جملة أنواعه " (٢).

وكان عليه السلام يشكر ربه بلسانه، وبقلبه، وبجوارحه، فكان يقوم الليل، ويصوم النهار، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣). والتقدير في الآية، ولقد آتيناهما علماً فعملا به، وحمدا الله عليه، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب، والتفضيل على المؤمنين بالعلم، والنبوة، وتسخير الطير، والجن والإنس، ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم، وفيه إظهار لشرف العلم وفضله (٤).

وقد أورد ابن كثير عن الفضيل " أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ فقال سبحانه: الآن شكرتني حين علمت النِّعم منّي " (٥).

ثانياً: سليمان عليه السلام.

وقد خصّه الله بنعمٍ كثيرة خصَّ بها أباه، وزاد عليه في النعم، فآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين. حيث جمع له بين الملك والنبوة، وسخَّر له كثيراً من المخلوقات التي لم يُسخرها لغيره، وكان عليه السلام يقابل تلك النِّعم بالشكر.

ولقد امتنَّ اللهُ عليه بحسن القضاء كأبيه عليه السلام، فلقد حكم في حادثة النِّعم بغير حكم أبيه فكان ذلك منّةً من الله تعالى، حيث ألهمه الحكمة في تلك الحادثة، وقد سجّل القرآن الكريم ذلك فقال سبحانه: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً... ﴾ (٦).

وبعد وفاة داود عليه السلام، ورثه سليمانُ عليه السلام، وصار هو الملك بعد والده، وصار نبياً، وقد أجمل القران الكريم على لسانه ما خصّه الله تعالى به من نعم حيث قال مظهراً نعم الله عليه:

---

(١) سبأ ، (١٣) .
(٢) فتح القدير – الشوكاني – ج٤ ص٣٨٠ .
(٣) النمل ، (١٥) .
(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ ص١٥٧ .
(٥) تفسير القران العظيم – ج٦ ص٤٤٧ .
(٦) الأنبياء ، (٧٨ ، ٧٩) .

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) والمقصود هنا النبوة، والعلم، والملك القوي، وتسخير الكثير من المخلوقات والجيوش الكبيرة، ومعرفة لغة المخلوقات الأخرى، وغير ذلك من النِّعم التي سنفصل بعضها، ومنها:

١- **تسخير الريح**: فقد سخّر الله سبحانه له الريح تجري وتتحرك بأمره كما يريد، والى حيث يريد. قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٢) ومعنى رخاءً، أي رخوةً ليّنة، والريح إذا كانت لينة، فإنها لا تمتنع عليه، وتصبح سهلةً طيبة (٣).

٢- **تسخير الشياطين**: فقد سخّر الله تعالى له الشياطين تعمل بأمره ما يشاء قال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٤) والبنّاء، هو صاحب القوة التي تستطيع أن تبني المصانع وغير ذلك، مما يصعب بناؤه ويحتاج إلى قوة (٥) وذلك مما يفهم من صيغة المبالغة أي أنهم لهم قوة في فعل البناء قد لا تكون لغيرهم.

وقد بيّنت آيةٌ أخرى عملهم في البناء حيث قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ... ﴾ (٦) والمحاريب هي القصور الحصينة، والمساكن العالية الرفيعة، والتماثيل هي الصور، صور الملائكة والنبيين والصالحين، كانت تعمل في المساجد من نحاس وزجاج ورخام، ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم، وهذا مما تختلف به الشرائع، فلم يكن اتِّخاذ الصور محرماً في ذلك الوقت، والجفان التي كالجواب، هي الأحواض الكبيرة التي يجتمع فيها الماء والطعام، والقدور الأواني الكبيرة الواسعة التي تثبت، لِعظَمِها وثِقَلِها (٧). وكل هذه الأشياء العظيمة كانت من بناء الشياطين التي سخَّرها الله تعالى لسليمان عليه السلام.

٣- **تعلمه منطق الطير ولغة الحيوان**: وهذه نعمة كبرى من نعم الله عليه، فكان يفهم منطق الطير، ويعرف حديثها، ويخاطبها، ويأمرها بما يريد، وقد حكى القران الكريم ذلك على لسانه: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٨). وعندما مرَّ سليمان عليه السلام على وادي النمل سمع كلام النمل وفهمه، وعرف مقدار نعمة الله عليه.

---

(١) النمل ، (١٦).
(٢) ص ، (٣٦).
(٣) انظر: التفسير الكبير – الرازي – ج٢٦ ص١٨٣.
(٤) ص ، (٣٧ ، ٣٨).
(٥) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ ص ٦ ٥.
(٦) سبأ ، (١٣).
(٧) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٣ ص٥٥٥.
(٨) النمل ، (١٦).

وقد فهم سليمان حديث الهدهد حين أتاه بخبر بلقيس ملكة سبأ، هي وقومها حيث كانوا يعبدون غير الله. وسجل القرآن ذلك كما في سورة النمل (١).

وقد قابل عليه السلام نعم ربه هذه وغيرها بشتى أنواع الشكر والحمد والثناء على المُنعم، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك مراراً، ومن أمثلة ذلك عند حديث النملة مع جموع النمل وهي تحذرهم تحطيم سليمان وجنوده لهم، قال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) طلبٌ من سليمان عليه السلام من ربه أن يلهمه ملازمة الشكر على ما أنعم به عليه وعلى والديه، وأن يلهمه العمل الصالح الذي يرضاه، فإن العمل الصالح من تمام الشكر، وأن يتم عليه نعمته بإدخاله في عباده الصالحين.

قال الألوسي: " اجعلني أزع شكر نعمتك .. فلا ينفلت عنّي. وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه، فكأنه قيل: رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك " (٣).

وقال سيد قطب: " اجمعني كلي، اجمع جوارحي، ومشاعري، ولساني، وجناني، وخواطري، وخلجاتي، وكلماتي، وعباراتي، وأعمالي، وتوجهاتي. اجمعني كلي، اجمع طاقاتي كلها على آخرها وآخرها على أولها، لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والدي " (٤).

وفي قصة ملكة سبأ وقومها وبعد أن تم إحضارُ عرشِها، وعندما وجد عليه السلام العرش أمامه ماثلاً، شعر هناك بفضل الله عليه، وبعظيم نعمته. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٥) فقد أحس بأن النعمةَ في طياتها ابتلاء واختبار للعبد، هل يشكرها أم يكفرها، فعلم أن الواجب عليه الشكر لا الكفر.

" لقد لمست هذه المفاجأة قلب سليمان – عليه السلام – وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز، واستشعر أن النعمة على هذا النحو ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج إلى يقظة منه، ليجتازه ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه، ويحتاج إلى معرفة النعمة، والشعور بفضل المُنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه " (٦).

---

(١) انظر: الآيات من سورة النمل من ٢٠ – ٢٥ .
(٢) النمل ، (١٩) .
(٣) روح المعاني – ج٧ ص ١٨١ .
(٤) في ظلال القرآن – ج٥ ص٢٦٣٦ – ٢٦٣٧ .
(٥) النمل ، (٤٠) .
(٦) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ ص٢٦٤٢ .

النموذج الرابع: موسى عليه السلام.

يُعدُّ موسى عليه السلام أشهر أنبياء بني إسرائيل، فقد أنزل الله عليه التوراة، وهي التي تُسمى اليوم " العهد القديم "، وقد خصَّه الله بنعم كثيرة، فكان من الشاكرين لنعمة ربه، ليس ذلك فحسب، بل ودعا قومه مراراً وتكراراً لشكر نعمة الله عليهم، وأن لا ينسوا تلك النعمة. ومن تلك النعم التي أنعم الله بها على موسى عليه السلام:

١ - نجاته من القتل في طفولته ورده إلى أمه كي ترضعه، وكانت تلك نعمة من كبريات النعم عليه، حيث كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل، فنجَّاه الله منهم، وحرَّم عليه المراضع ليعود إلى أمه التي ألقته في اليم، لشدة خوفها عليه بوحي من الله، وقد سجَّل القرآن الكريم ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١). فعناية الله تحرس موسى، وترعاه، وتحفه منذ الصغر، بل ومنذ الولادة، فقد تربى على عين فرعون وفي بيته.

٢ - بعد قتله للقبطي ونصرته للإسرائيلي الذي استغاث به طلب المغفرة من الله، فغفر له ذلك، ثم تآمر القوم على قتله عليه السلام، وأتاه الخبر فخرج من المدينة خائفاً يترقب وتوجّه تلقاء مدين، وهناك كانت قصته مع الفتاتين ابنتي شعيب عليه السلام حين سقى لهما، فأخبرت الفتاتان أباهما، فبعث يطلبه ... ولما قصّ عليه خبره طمأنه، وقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين، فمنَّ الله على موسى بالنجاة مرةً أخرى من أولئك الذين تآمروا على قتله، وأنعم عليه بذهاب الخوف عنه، ثم تمت النعمة عليه في تلك الحادثة بزواجه من إحدى ابنتي شعيب عليه السلام ليحس مع الأمن والنجاة بالاستقرار.

٣ - في طريق عودته من مدين إلى مصر منَّ اللهُ عليه بأكبر نعمة حيث اجتباه واصطفاه رسولاً نبياً، ثم ضاعف له المنّة بأن شدَّ أزره بأخيه هارون. قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً* قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (٢).

٤ - ولما أراد فرعون أن يبطش بموسى وقومه، أوحى الله إليه أن يسير بقومه ليلاً جهة البحر، فأتبعهم فرعون بجنوده، حتى اعترضهم البحر، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، ففعل، فانفلق البحر فمرَّ موسى وقومُه، وغرق فرعون وجنوده، وكانت هذه نعمة الإنجاء الثالثة. وهناك نعمٌ كثيرة كمعجزة العصا التي التقفت حبال السحرة، ومعجزة اليد التي سلكها في جيبه، لِيُظْهِرَهُ على عدوه.

---

(١) القصص ، (٧) .

(٢) طه ، (٢٤ ، ٣٦) .

بل بلغ حدّ النعمة على موسى عليه السلام أن كلَّمه الله سبحانه وتعالى، فكان كليم الله، حيث أثنى عليه سبحانه، وقرَّبه إليه بالتكليم والمناجاة، قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ (١). وصفه تعالى بأنه كان مخلصاً أي مؤمناً موحداً اصطفاه الله لنفسه، لأنه أخلص عبادته عن الشرك، ثم كان النداء والتكليف بالنبوة، وبعد ذلك قرَّبه، وأدناه، وشرَّفه بالمناجاة، فكان الكليم عليه السلام (٢).

وقد قابل موسى عليه السلام كل تلك النعم بالشكر قولاً وعملاً، ودعوةً للآخرين، ليذكروا ويشكروا نعم الله عليهم، ومن ذلك أنه لما قتل الرجل، واستغفر ربه، فغفر له، عاهد الله ألاّ يستخدم نعمته التي أنعم بها عليه في الفساد والإجرام. قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣).
ولا يخفى أن مثل هذا العهد هو من شكر النعم، لأنه تسخير للنعمة فيما يرضي المنعم جلّ شأنه.

وعندما أمره الله سبحانه بالشكر، كان عليه السلام من الشاكرين، ولم يتأخر عن الاستجابة. وسجّل القرآن هذا الطلب بشكر النعمة من المولى لموسى عندما اصطفاه واختاره بالرسالة وبالكلام. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤).
وهذا استئناف مسوق لتسلية موسى عليه السلام من عدم الاستجابة إلى سؤال الرؤية، عندما طلب من الله أن يراه، فكأنه يقول له: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أُعط أحداً من العالمين، فاغتنم ما أعطيتك، وأنعمت به عليك، وكن من الشاكرين، فقد اخترتك واتخذتك صفوةً، وآثرتك برسالاتي، وهي التوراة، وبتكليمي إياك بغير واسطة (٥).

ولذلك لا غرابة أن نجد موسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل ليذكروا نعمة الله عليهم، بأن يشكروها ولا يجحدوها، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ (٦). وهذا طلبٌ واضح من موسى لقومه أن يشكروا نعمة الله في جعل الأنبياء فيهم، حيث لم تكن النبوة في قوم قدر بني إسرائيل، وقد ملكهم بعد فرعون وبعد الجبابرة الملك الذي كان لهم، فأصبحوا ورثته (٧).

---

(١) مريم ، (٥١ ، ٥٢) .
(٢) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ ص٣٠٧ .
(٣) القصص ، (١٧) .
(٤) الأعراف ، (١٤٤) .
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٢ ص١٣٣ .
(٦) المائدة ، (٢٠).
(٧) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج١ص٦٠٧.

النموذج الخامس: خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

هو سيد الأولين والآخرين، وسيد الحامدين الشاكرين، ورحمة الله للعالمين، والنعمة المُسداة التي أنعم الله بها على الخلق كلهم إنسهم وجنِّهم، وقد أعطاه مولاه من النِّعم ما لم يعطه لنبيٍ غيره منها:

١- خاتم الرسل، فبه خُتمت الشرائع، وخُتمت الرسالات، وخاتم الرسل الذي يكون به الختم هو أفضلهم لأن ذلك يعني بقاء شريعته ورسالته إلى قيام الساعة ، ولذلك كان هو سيد ولد آدم وسيد المرسلين أجمعين، ولقد قال المولى في حقه: ﴿ .... وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١).

٢- أُرسل للناس كافة، وقد كان كلُ رسول يبعث في قومه خاصة، أما سيدنا محمد ﷺ فقد بُعث للناس عامة، ونسخت شريعته جميع الشرائع، وبقيت شريعته صالحة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة، حتى أن عيسى عليه السلام حينما ينزل في آخر الزمان فإنه يعمل بشريعة محمد ﷺ ويدعو إليها، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى في وصف عالمية رسالته: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٢). وهذا إعلام من الله تعالى بأنه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم، و " الكافة " الجمع الأكمل من الناس وهي إحدى الخصال التي خصَّ الله بها محمداً ﷺ من بين الأنبياء، وقيل إن الكفَّ بمعنى المنع، والمقصود أنه $ مانعٌ لهم عن الكفر (٣).

٣- تبشير الأنبياء برسالته، حيث بُشِّرَ الأنبياء السابقون به وببعثته ﷺ، فقد كانت النصوص في التوراة والإنجيل بهذا المعنى حاضرة قبل تحريفها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤). وقال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ... ﴾ (٥) والرسول النبي المذكور في الآية هو محمد ﷺ، والضمير في " يجدونه " عائد على اليهود والنصارى، والمعنى يجدون نعته وصفته في كتبهم، وهي مراجعهم الدينية، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى قبل نزول الإنجيل، فهو من باب الإخبار بما سيكون (٦).

---

(١) الأحزاب (٤٠) .

(٢) سبأ ، (٢٨) .

(٣) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج٤ ص٤٢٠ .

(٤) الصف ، (٦) .

(٥) الأعراف ، (١٥٧).

(٦) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٢ص٣٢٠.

٤ - القرآن الكريم، وقد امتَنَّ اللهُ على رسوله بأن أنزله عليه فقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (١) وقد تكفل الله بحفظه من التحريف، فيما حُرفت الكتب السابقة.

وفي الآية امتنان من الله تعالى على رسوله بأن آتاه الله السبع المثاني، وقد قيل إنهن السبع الطوال، وقيل إنها فاتحة الكتاب لأن آياتها سبع، ويكون عطف القرآن العظيم من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، والأحكام، والأخبار، هذا على القول الأول (٢).

وقد خصَّ الله تعالى رسوله بالشفاعة أيضاً فهو أول شافع، وأول شفيع، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فيشفع الشفاعة العامة ﷺ، ويشفع للمؤمنين الشفاعة الخاصة بأمته ﷺ، وقد تعهّد الله سبحانه بأن يمتن على رسوله بالعطاء والكرم وأن يرضيه ﷺ، فيما لم يتعهَّد المولى سبحانه بذلك لأحد غير خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فقال تعالى:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(٣) قيل إن اللام التي سبقت " سوف " لام الابتداء وليست لام القسم، وقد دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف وتقديره: ولأنت سوف يعطيك، وقيل هي للقسم وقد نابت " سوف " عن إحدى نوني التوكيد، فكأنه قال: ولَيُعطينَّك، والمعنى: ولسوف يعطيك ربُّك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى، وقيل: الحوض والشفاعة وقيل غير ذلك، والظاهر أنه سبحانه سيعطيه من خيري الدنيا والآخرة ما يرضيه، وأهمه الشفاعة لأمته، وهذا القول أجمع وأمنع من غيره، وهو الراجح (٤).

قال سيد قطب: " وإنه ليدَّخِر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك، وإزاحة العقبات من طريقك. وغلبة منهجك، وظهور حقك ... وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد، والتكذيب، والأذى والكيد والشماتة " (٥).

قلت: أي فيض هذا الذي سيغمر به الربُّ تبارك وتعالى حبيبه ﷺ؟! أي حنو هذا وأي تكريم لهذا النبي المصطفى ولأمته، مادام الوعد بأن يعطيه حتى يرضى فسيرضيه المنعم المتفضل في أمته، لأنه وعدٌ بالرضا التام، ومن الذي وُعِدَ بالعطاء حتى الرضا سوى سيد الخلق ﷺ؟ فما من أحد وعد بهذا سواه ﷺ، لا نبيٌ مرسل، ولا ملك مقرب فما أجمل الوعد، وما أحسن العطاء، وما أتمَّ الرضى!.

(١) الحجر ، (٨٧) .
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٣ ص٤٤ .
(٣) الضحى ، (٥) .
(٤) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٥ ص٥٤٥ .
(٥) في ظلال القرآن – ج٦ص٣٩٢٦.

وكان هو ﷺ في المقابل سيد الذاكرين، وسيد الشاكرين، وسيد الحامدين، فلقد كان لسانه لا يفتر عن الذكر والشكر، بل كان يجهد نفسه بالقيام بالليل شكراً لله تعالى على نعمه. وكان ذكّاراً لربه، شكّاراً لمولاه بلسانه، وقلبه، وجوارحه، بل وكان يدعو أمته لتكون شاكرة لربها كل يوم، فقد قال ﷺ: " **من قال حين يُصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم** " (١).

وكان يقوم الليل شاكراً حتى تتشقق قدماه الشريفتان، وهو يعلم أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لكنه الالتزام اتجاه المعبود، واتجاه نعمه التي لا تُعدُّ ولا تحصى. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " **كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه. قالت عائشة: يا رسول الله ! أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟** " (٢).

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه لا تحصل له نعمة، ولا تمر به مِنّة إلا قابلها بالصلاة أو بسجود الشكر أو بغير ذلك من أوجه الحمد والثناء، وكان يفعل ذلك كلما حصل له أمر يسره ويرضيه فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه أن النبي ﷺ " **كان إذا جاءه أمر سرورٍ، أو بُشر به خرّ ساجداً شاكراً لله** " (٣).

وعن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال له: " **إن جبريل أتاني فبشرني فقال: إن الله عز وجل يقول من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله – عز وجل – شكراً** " (٤). وقد كان ﷺ شديد التواضع أمام نعم الله وفضله، فعندما دخل مكة فاتحاً، دخلها النبي ﷺ وهو في شدة التواضع لله تعالى، دخلها منحنياً، غير رافع رأسه كما يفعل المنتصرون من البشر، حتى كادت لحيته أن تمسَّ ظهر راحلته.

يقول الشيخ عفيف الطبارة عن دخول النبي ﷺ مكة فاتحاً: " ولما كان راكباً راحلته، كان منحنياً على رحلها، تكاد لحيتُه تمسه تواضعاً، خاشعاً على ما أكرمه الله به من الفتح " (٥).

---

(١) الحديث سبق تخريجه. انظر: ص٣٤.

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر: ص١٤٧.

(٣) سنن أبي داود-كتاب الجهاد(٩)-باب في سجود الشكر(١٧٤)-ص(٤٣٣)-رقم(٢٧٧٤). وسنن ابن ماجة- كتاب إقامة الصلاة(٥)-باب ما جاء في الصلاة والسجدة عند الشكر(١٩٢)-ص(٢٤٨)-رقم(١٣٩٤). وصححه الألباني.

(٤) مسند الإمام أحمد(ج١/ص١٩١)- رقم(١٦٦٤). قال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٥) مع الأنبياء في القرآن الكريم – ص٤١٠ .

النموذج السادس: أهل الجنة ونعيمهم.

في الدار الآخرة يوم القيامة يُنعم الله تعالى على المؤمنين بالنجاة من النار، وكذلك بتجويزهم الصراط، ثم يمتنُّ عليهم بإدخالهم الجنة دار مرضاته، ومستقر رحمته، فيقابل المؤمنون ذلك بالحمد والشكر والثناء على الله سبحانه.

ويُنعم المولى تبارك وتعالى على المؤمنين يوم القيامة بِنعمٍ عظيمة ابتداءً من لحظة الوفاة حتى دخولهم الجنة واستقرارهم فيها ومن هذه النعم: -

١- **عند الوفاة:** تتوفاهم الملائكة وهم على حالة يتطلعون فيها إلى لقاء ربهم، فترجع النفس إلى ربها راضية مرضية تحفها البشرى بالرحمة والرضا. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ (١).

٢- وفي حشر الناس بعد البعث استعداداً للحساب، يصيبُ الناسَ فزعٌ شديد من شدة الأهوال. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ (٢). والذين سبقت لهم الحسنى أي سابقة السعادة في علم الله وفي تيسيرهم لليسرى في الدنيا بالأعمال الصالحة، هم مبعدون عن نار جهنم، فلا يدخلونها، ولا يُقرَّبون منها، بل يُبعدون غاية البعد حتى لا يسمعوا صوتها، ولا يروا شخصها، وهم في ما اشتهته وأحبته أنفسُهم باقون بلا نهاية، في المآكل، والمشارب، والمناكح، والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم هم غير قلقين من الفزع الأكبر حين يفزع الناس، فقد أنعم الله عليهم بالأمن من الخوف في ذلك اليوم (٣).

٣- ومن نعمه تعالى على المؤمنين أنه يُجَوِّزهم الصراط – وهو جسرٌ منصوبٌ على متن جهنم – يمر عليه الناس حسب أعمالهم، فناج مخدوش، ومكدوش في النار.

" الناس متفاوتون في العبور على الصراط، كلٌ بحسب عمله، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمر كسرعة الطير، ومنهم من يمر كالجواد السابق، ومنهم سعياً ومشياً وحبواً على وجوههم. فعلى قدر استقامتهم على الصراط المعنوي في الدنيا – وهو الدين – يكون المرور على الصراط الحسي يوم القيامة " (٤).

---

(١) الفجر ، (٢٧ ، ٣٠) .

(٢) الأنبياء ، (١٠١ ، ١٠٣) .

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٣ ص٣٠١ .

(٤) اليوم الآخر – عبد القادر الرحباوي – ص١١٠ .

إلا أن الحق سبحانه ينجي جميع المؤمنين من العذاب إلا من حُكم عليه بالعذاب نتيجة عمله. قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾ (١). قال ابن أبي العز الحنفي: " واختلف المفسرون بالورود المذكور في قوله تعالى " وإن منكم إلا واردها " ما هو؟ والأظهر أنه المرور على الصراط " (٢).

٤ - ثم يُكرم الله عباده ويمُنُّ عليهم بدخول الجنة، ونيل الرضوان فتستقبلهم الملائكة بالسلام عليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٣) وبعد هذا الإنعام والإكرام يأتي الاحتفاء الكبير في حفل كبير لا ينتهي، للجميع فيه دور حتى الخزنة الكرام من الملائكة وهم يُحيون أهل الجنة، طبتم يا أصحاب الجنة عملاً، ومعتقداً، ومستقراً، وعاقبةً، فنعم هذا الأجر أجراً لكم، ونعم هذا الجزاء جزاءً لكم.

وبعد كل هذا النعيم، وهذا العطاء بالخير العميم، يتوجه المؤمنون بالشكر لله تعالى على ما انعم به عليهم وأكرمهم به، ولا يقتصر الحمد عند دخولهم الجنة، بل يبقى حمدهم لله قائماً على لسانهم طالما كانوا يعيشون في ذلك النعيم المقيم.

فبعد أن يجتاز المؤمنون الصراط، ويتخلصوا من هول ذلك الموقف حين ينجيهم الله برحمته من الوقوع في النار يحمدون الله أن أمَّنهم، وأذهب عنهم الحزن، ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٤).

وبعد دخولهم جنة الخلد التي وعدهم الله إياها على لسان الرسل، يتوجه المؤمنون كذلك بحمد الله والثناء عليه. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٥).

قال الزمخشري: " الأرض عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه، واتخذوه مقراً ومُتبوأً، وقد أُورثوها أي ملكوها، وجُعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه، واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً " (٦).

---

(١) مريم ، (٧١ ، ٧٢) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية -ص٤٧١.

(٣) الزمر ، (٧٣) .

(٤) فاطر ، (٣٤) .

(٥) الزمر ، (٧٤).

(٦) الكشاف – ج٤ص١٤٢.

وبعد دخول المؤمنين الجنة ينزع الله من قلوبهم الغلَّ والحقدَ بِمَنِّهِ وكرمه، فيعيشون إخواناً متحـــابين، في ظل الطمأنينة التي تملأ قلوبهم، مع حصول الأمن والسلام بينهم، حينئذ يتوجَّه المؤمنون بالحمد لله تبارك وتعالى على تلك النعمة العظيمة، وهي نزع الغل والحقد، وحضور المحبة في قلوب المـــؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـــذَا وَمَا كُنَّـــا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ ﴾ (١).

ويستمر المؤمنون في توجههم بالحمد لله تبارك وتعالى، فيستمرون حامدين ذاكرين، لـــربهم شـــاكرين قال تعالى يصف حال المؤمنين بعد استقرارهم ومكثهم في الجنة سعداء مسرورين فرحين: ﴿ دَعْـــوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

(١) الأعراف ، (٤٣).

(٢) يونس ، (١٠).

المبحث الثاني: الجاحدون الذين كفروا بنعمة الله ونماذجهم .

وفيه مطلبين:

المطلب الأول: من هم الذين كفروا نعمة الله.

المطلب الثاني: نماذج من الذين كفروا بنعمة الله وجحدوها.

المبحث الثاني: الذين كفروا بنعمة الله ونماذجهم.

في هذا المبحث سيكون الحديث حول أولئك الذين كفروا بنعم الله تعالى، ولم يشكروها، ولـم يعترفـوا للمنعم المتفضل بما يجب عليهم من إظهار فضله، ومن نسبة النعمة إليه، ومن الرضا عن النعمة وعن المنعم، مع ذكر أهم صفات أولئك الجاحدين الكافرين، وابرز خصالهم من خلال حديث القرآن الكـريم عنهم، وعن قبيح أفعالهم.

وختام المبحث نماذج من أولئك الجاحدين من خلال العرض القرآني لسلوكهم، وأفعالهم، وأقوالهم، ثـم بيان عاقبتهم، وموقف القرآن الكريم منهم.

المطلب الأول: من هم الذين كفروا نعمة الله؟.

من هم هؤلاء الذين عرفوا نعمة الله ثم كفروا بها وجحدوها؟! ومن هم قساة القلـوب هـؤلاء الـذين أنكروا فضل الله المنعم عليهم فلم يؤدوا حقه؟! بل كانوا غايةً في الظلم والكفر والجحود، وفي طمـس الحقيقة وتغييبها.

إني لا أتحدث طبعاً عن فئة معينة، أو مجموعة من المجموعات، أو أفراد أو غير ذلـك، بقـدر مـا أتحدث عن منهج وأسلوب، وعن سلوك فكري يترجم إلى فعل لا يقوم إلا على الباطل، ولا يحتوي إلا على الكذب والخداع والزيف، من خلال نفي ما هو مُثبت، وإظهار خلاف ما في الباطن، انـه مـنهج يقوم على طمس الحقيقة وتغييرها، الحقيقة الساطعة التي يشهد لها كل شيء، الحقيقة التي تقـول إنـه ليس من نعمة في الوجود تحف ببني الإنسان، إلاّ وهي من المنعم جل جلاله، مهما حاول الباطل وأهله أن يغيروها بأفعالهم ومنطقهم، فإن تلك الحقيقة تبقى واضحة ماثلة للعيان يقر بها كل عاقل حكيم.

هذا المنهج له من يمثله في عالم الواقع سابقاً ولاحقاً، كانت له نماذج في السابق عرض لهـا القـرآن الكريم تتمثل في المكذبين من أقوام الأنبياء والرسل، الذين زاغوا عن الحق، وانحرفوا عن الـصراط، تتمثل في بني إسرائيل، وقوم سبأ، وقريش على مستوى الجماعات وتتمثل في فرعون، وقارون علـى مستوى الأفراد، فقد اختار هؤلاء جميعهم أن ينكروا نعمة الله وأن يجحدوها ويكفـروا بهـا، بـدل أن يقروا بها ويعترفوا بِمُنعمها، ويشكروه عليها، فقد كانت قلوبهم مستيقنة، لكنهم اختاروا الجحـود بـدل قول الحقيقة. قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (١). والمعنى أنهم جحدوا بنعمـة الله والتي هي رسالة موسى عليه السلام حال كون أنفسهم مستيقنة بصدقها، والحامل لهم علـى ذلـك الظلم والعلو. وهم يعلمون أنها من عند الله تبارك وتعالى (٢).

---

(١) النمل ، (١٤) .

(٢) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ ص١٥٥ .

ومعنى الجحود أن يقع الإنسان في فعل يظهر من خلاله الإنكار والجحود والكفر بالنعمة كالامتناع عن الشكر، أو ينسبها إلى غير الله وهو يعلم بقلبه أنها من الله. والكفر كما تقرر سابقاً هو ستر النعمة وتغطيتها في مقابل الشكر وهو إظهار النعمة، وإبراز فضل المنعم.

والسؤال المهم هو كيف يكفر الإنسان بالنعمة؟ أو ما هي مظاهر كفر النعمة وجحودها؟.

وللإجابة أقول: إن هناك كيفياتٍ متعددة ومظاهر متنوعة يظهر الإنسان من خلالها وهو يجحد بنعمة الله ويكفر بها ومن أهمها:-

أولاً: أن ينسب النعمة لغير واهبها، فإن نسبة النعمة لواهبها من شكر النعمة، وبمفهوم المخالفة فإن من كفران النعمة أن تنسب لغير الله، أو إنكار كونها منه سبحانه، وقد عالج القرآن الكريم ذلك في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١). قال الشوكاني: " استئناف لبيان توليهم أي: هم يعرفون نعمة الله التي عددها، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله، وبأقوالهم الباطلة، حيث يقولون: هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام ، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه " (٢).

وكذلك قوله تعالى في ذات السياق: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣). فقد نسب إيتاء النعمة إلى جهده الشخصي، وكسبه، وعلمه، ونسي المنعم الحقيقي مع أن الذي خوّله النعمة هو المنعم الواهب الذي يملك كل شيء.

ثانياً: بطر النعمة، فان بطر النعمة يعني الفخر بها، وسوء استخدامها، والتعالي بها على الآخرين، وهذا كله من جحود النعمة، وقد أفردت بطر النعمة بمطلب خاص في الفصل السابق فمن أراد المزيد فعليه بالرجوع إليه (٤).

ثالثاً: أن يرفض نعمة الله، سواءً بعدم قبولها، أو بإعلانه انه يمل هذه النعمة وقد سئم منها، أو بعدم الرضا عن المنعم الذي أولاها، فبدلاً من أن يشكر نعمة الله فإنه يمل هذه النعمة ويطلب نعمةً غيرها، ويعلن في وضوح أنه سئم هذه النعمة، ولم يعد يريدها، وهذا جحود ونكران.

---

(١) النحل ، (٨٣) .

(٢) فتح القدير – ج٣ ص٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٣) الزمر ، (٤٩) .

(٤) انظر: الفصل الرابع من هذا البحث ، ص٢٠٥.

فهؤلاء بنو إسرائيل يعطيهم الله نعماً عظيمةً جداً، ويمنُّ عليهم بالماء فيفجر لهم اثنتي عشرة عيناً يشربون منها، وينزل عليهم المن والسلوى لكنهم ملوا النعمة ورفضوها، وأعلنوا أنهم لن يصبروا على طعام واحد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ... ﴾ (١).

يقول سيد قطب: " لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المنَّ والسلوى: عسلاً وطيراً... ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أُخرجوا من مصر... ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية... إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء... وما إليها " (٢).

رابعاً: نسيان المنعم أو النعمة، لأن ذلك من الكفران بنعمة الله، ولذلك ينبغي أن يذكر المنعم دائماً، وأن تُذكر نعمه وفضله، فالنعمة يجب ألا تنسيه المنعم، ولذلك كان الأمر يتردد في القرآن الكريم من الله لبني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، وتفضيله إياهم على العالمين، لأن نسيان النعمة يوقعهم في المحظور، ويوصلهم إلى الكفران والجحود قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

ومن أراد المزيد في هذا الجانب فعليه بالعودة إلى ما كتب في هذا البحث حول ذات الموضوع (٤).

خامساً: الشكوى لغير الله تعالى، فمن صور الجحود أن يشكو المرء حالته لغير الله تعالى، وأعظمها أن يشكو وهو في حالة جيدة، فكثيرٌ من غير الشاكرين، يداومون على الشكوى للآخرين فقرهم، وقلة ما في أيديهم، وهم في نعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، والشكوى المذمومة هي التي تكون عن ضجر وسخط، أما إذا كانت الشكوى لطلب مد يد العون والمؤازرة فليست كذلك، والأولى أن تكون الشكوى لله تعالى، كما قال أيوب عليه السلام مناجياً ربه وشاكياً إليه ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥).

---

(١) البقرة ، (٦١) .
(٢) في ظلال القرآن – ج١ ص٧٤ .
(٣) البقرة ، (٤٧) .
(٤) انظر: الفصل الرابع من البحث، ص١٨٩.
(٥) الأنبياء ، (٨٣) .

فرفع الحال والشكوى لغير الله تعالى من صور الجحود، إذا ما اقترنت بالسخط والتبرم على قضاء الله وقدره حين يصيبه.

قال ابن القيم: " فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله، فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه... وأما إخبار المخلوق بالحال، فإن كان للاستعانة بإرشاده، أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرر، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله...
والشكوى نوعان شكوى بلسان المقال، وشكوى بلسان الحال ، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أُنعم عليه أن يُظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه " (١).

قلت: هذا هو منهج أولئك الذين يكفرون بنعمة ربهم، وتلك هي أفعالهم القبيحة، وهذه هي خصالهم الرديئة فكل من سار على طريقهم، أو نهج منهجهم فهو مثلهم جاحد لنعمة ربه، كافر بها، فينبغي على العاقل أن يجتنب طريقهم، ويبتعد عن سبيلهم، وألا يقتدي بهم حتى لا يحشر معهم، بل ينبغي عليه شكرُ نعمة ربه، والإعتراف بها، ونسبتها لمن أولاها وأسداها.

المطلب الثاني: نماذج من الذين كفروا بنعمة الله وجحدوها.

عرض القرآن الكريم نماذج متعددة في سوره وآياته لأناس كفروا بنعمة الله، وجحدوا فضله، وأبوا أن يشكروه، وقد بين القرآن خصالهم، وأفعالهم القبيحة وأنهم دعوا إلى الكف عن كل ذلك مصلحةً لهم، ورأفة بهم، وبحالهم، لكنهم رفضوا ذلك، وأصروا على عنادهم، فكانت الخاتمة محزنة، والعاقبة سيئة، حيث بينها القرآن الكريم وحذر الناس أن يفعلوا مثلما فعل هؤلاء لئلا يصيبهم ما أصابهم من العذاب والبلاء، وتحول النعمة، وحلول النقمة، وفيما يلي نماذج لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعمة ربهم.

النموذج الأول: بنو إسرائيل.

الجاحدون في التاريخ البشري كثر، وكل أمة لم تؤمن برسولها تعتبر جاحدة، لأنها كفرت بأعظم نعمة عليها، وهي نعمة النبوة والرسالة، وبنو إسرائيل كانوا أكثر الأمم جحوداً على مر التاريخ رغم أن الله أعطاهم من النعم ما لم يُعط غيرهم فما زادهم ذلك إلا طغياناً، وكفراناً بالنعم ومَنْ أنعمها، ولهذا نجد القرآن الكريم يُذكرهم بهذه النعم، ويعرضها أمامهم، ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لتلك النداءات، واستمروا في طغيانهم، وجحودهم، وبطرهم، وكفرانهم للنعم كما هو ديدنهم، ومن جملة النعم التي أنعمها الله عليهم ما يلي على وجه الإيجاز:

---

(١) عدة الصابرين – ابن القيم – ص٢٦٣ .

١- تفضيلهم على العالمين، حيث طلبهم القرآن الكريم بتذكر نعمة الله عليهم، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١). وتفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وقد قال قتادة وابن جريج (٢). وغيرهم أن التفضيل كان على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوة متكررة والملك، لأن الله جعل أمة محمد خير أمة أخرجت للناس (٣).

٢- جعل فيهم أنبياء، فقد كثر فيهم الأنبياء، فكان كلما هلك فيهم نبي، بُعث فيهم نبيٌ آخر، يدعوهم إلى الإيمان والهداية، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء ﴾ (٤). قال ابن كثير " أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى عليه السلام " (٥) وهذه نعمة عظيمة، إلا أنهم بدلاً من شكر هذه النعمة، كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، مثلما فعلوا بيحيى عليه السلام، ومثلما أرادوا قتل عيسى عليه السلام.

٣- كثرة الملوك فيهم، كما في الآية السابقة في قوله: " إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً " فقد كثر الملوك في بني إسرائيل، والله تعالى يمتن عليهم بكثرة الملك والملوك، كما امتن عليهم بكثرة الأنبياء، ولا يخفى أنهم لم يجعلهم كلهم ملوكاً، لكن الكثرة توحي بأن الجميع أصبحوا ملوكاً، أو كانوا أقارب للملوك.

٤- نجاتهم من آل فرعون، فقد كان آل فرعون يسومون بني إسرائيل أسوأ العذاب حيث كانوا يذبحون أبناءهم، ويستبقون نساءهم أحياء، ليصبحن خدماً وسبايا عند آل فرعون، ثم بعث الله لهم موسى عليه السلام، فأخرجهم وأنقذهم من هذا الذل الذي كانوا يعانون منه، وتلك مِنَّةٌ كبرى يمتن الله بها على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٦).

٥- نجاتهم من الغرق، فلما أخرجهم موسى عليه السلام وسار بهم، تبعه فرعون وجنوده، وقد اعترضه البحر، فأوحى الله لموسى، فضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر طرقاً متعددة حتى عبروا.

---

(١) البقرة ، (٤٧) .

(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الروميّ، كان أحد أوعية العلم، أول من صنف التصانيف، وهو عالم مكة، روى عن أبيه وعن مجاهد وعن عطاء، ت-١٥٠هـ، وقد جاوز المائة، انظر: تذكرة الحفاظ- الذهبي- ص١٦٩-١٧٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز – ابن عطية – ج١ ص١٣٩.

(٤) المائدة ، (٢٠) .

(٥) تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص٤٤ .

(٦) البقرة ، (٤٩).

ثم أغرق الله فرعون في البحر، وتلك نعمة جديدة على بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (١).

٦- الطعام والشراب، وذلك عندما وصلوا الصحراء وكاد طعامهم ينفد، أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، والمنُّ نوعٌ من الحلوى كان ينزل على ورق الشجر، والسلوى طائر يأتي إليهم أسراباً متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرته، إلا أن هذا الطعام لم يرق لهم ولم يعجبهم، وأرادوا أن يستبدلوه بما هو أدنى من الثوم البصل والعدس وغيرِه، وعندما لم يجدوا ماءً للشرب، وهم في طريق عودتهم إلى أرض الميعاد، طلب موسى من الله أن يسقيهم فأوحى إليه أن يضرب بعصاه الحجر، ففعل فتفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً، ليشربوا، وتشرب أنعامُهم. إلا أنهم لم يكونوا من الشاكرين، وجحدوا تلك النِّعم سريعاً (٢).

٧- تظليل الغمام، وذلك عندما كانوا في الصحراء المحرقة، لا مأوى ولا ظل، أرسل الله عليهم السحاب، ليظللهم من حر الشمس، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.. ﴾ (٣).

٨- تكرار العفو عنهم، وقد حدث مرات عدة أشهرها العفو عن اتِّخاذهم العجل، وذلك حدث عندما ذهب موسى لميقات ربه، فرجع وقد وجد أن بني إسرائيل قد اتخذوا لهم صنماً على هيئة عجل صنعه لهم السامري، لكنه تعالى عفا عنهم، لعلهم يقومون بشكره، فلم يفعلوا، وكذلك عندما طلبوا أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا، فأخذتهم صاعقةٌ من العذاب، ثم بعثهم الله بعد موتهم ، وعفا عنهم لعلهم يشكرون، ولكنهم كانوا كعادتهم جاحدين، منكرين، معاندين.

وهكذا فقد أعطى الله تعالى لبني إسرائيل ما لم يُعطه أحداً من العالمين، أعطاهم تلك النِّعم وغيرها لعلهم يشكرون، لكن طبيعتهم غلبت عليهم، فقد قابلوا ذلك بالإعراض، والجحود، والبطر، والقرآن خيرُ شاهد على ذلك.

وإن صور الجحود، والكفران في بني إسرائيل كثيرةٌ جداً، وليس هذا الجحود عن جهل بالحق ولكن بعد معرفة تامة به، تماماً كما كانوا يعرفون بعثة محمد ﷺ لكنهم أنكروا تلك البعثة، وجحدوا الحق الذي كانوا يعلمونه كما يعلمون أبناءهم، ومن صور جحودهم ما يلي:

---

(١) البقرة ، (٥٠) .

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم – عفيف الطبارة – ص٢٤٣ .

(٣) البقرة ، (٥٧) .

١- تبديلهم لأوامر الله التي أمرهم بها استخفافاً وإعراضاً وتكبراً. فقد رفضوا أن يقاتلوا مع موسى عندما أمرهم الله أن يقاتلوا معه القوم الجبارين.

٢- رفضهم نعمة ربهم، ورغبتهم في تبديلها. فلما أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، وفجَّر لهم الماء لم يعجبهم المنُّ والسلوى وأرادوا استبداله بما هو أدنى من الطعام، في سابقة غريبة عجيبة، قَلَّ نظيرُها.

٣- اعتداؤهم يوم السبت، وذلك عندما طلبوا يوماً للراحة يرتاحون فيه من طلب العيش ويعبدون الله فيه، فكان لهم يوم السبت، فابتلاهم الله بإرسال الحيتان في ذلك اليوم، فاحتالوا وراحوا يصيدونها بإلقاء الشباك لتحتجزها، ثم بعد انقضاء ذلك اليوم يسحبون الشباك وفيها الأسماك، فلم يفوا بعهد، ولم يستمسكوا بميثاق.

٤- إعلانهم عن المعصية بعد السماع، وذلك عندما أنزل الله عليهم التوراة وأمرهم أن يتمسكوا بما فيها، وأن يقولوا سمعنا وأطعنا، لكنهم لم يفعلوا وقالوا سمعنا وعصينا. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا... ﴾ (١).

٥- تحريفهم للكتاب، فقد قام بنو إسرائيل بتحريف كتاب ربهم، بدلاً من المحافظة عليه، والعمل بما يأمرهم به، فإنهم قاموا بتحريف الكتاب بما يتفق مع أهوائهم. وقد رفضوا تحكيم التوراة فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢).

٦- نقضهم للعهود والمواثيق، وهذا أكثر ما اشتهروا به قديماً وحديثاً فإنهم لا عهد لهم ولا أيمان ولا ميثاق، فهم لا يرعون عهداً لأحد، ولا ذمةً لبشر، وتاريخهم مع الأنبياء والرسل شاهد على ذلك، وتاريخهم مع المسلمين، وخصوصاً أهل فلسطين في العصر الحديث يشهد بذلك فإنهم لم يفوا بعهد، ولم يعملوا بميثاق، بل نقضوا كل العهود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم مع العرب والمسلمين، فلم يخرجوا في ذلك عن السياق الطبيعي الذي ذكره القرآن الكريم عنهم.

٧- قتلهم الأنبياء، ولم تقتل أمةٌ من الأنبياء قدر ما فعل بنو إسرائيل، حيث كانوا كلما جاءهم نبيٌ بما يُخالف أهواءهم ورغباتهم كذَّبوه أو قتلوه، وهذه هي حدود علاقتهم بالأنبياء والرسل الكرام، وهذا هو حظ خير البشر، وصفوة الخلق منهم قال تعالى: ﴿ ... وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (٣).

---

(١) البقرة ، (٩٣) .
(٢) آل عمران ، (٢٣) .
(٣) المائدة ، (٧٠) .

٨- افترائهم على الله، ونسبة النقص إليه، وهذا من شدة جحودهم ونكرانهم ، فوصفوا الله تعالى بما لا يليق، تارةً وصفوه بالبخل والشح، وتارة وصفوه بالفقر، وكانوا يُعللون بذلك بخلهم حينما وصفوه بالبخل وأنه لا يُعطي إلا القليل، فكيف ينفقون هم؟! وقد اختاروا لفظاً أشد وقاحةً وتهجماً وكفراً (١)، وقد سجّل القرآنُ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ... ﴾ (٢).

٩- أكلِهمُ الربا، فقد نهاهم الله عنه ولكنهم لم يُذعنوا للأمر، واختاروا أن يأكلوا السُّحت ويأخذوا الربا، ويأكلوا أموال الناس ظلماً، قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.. ﴾ (٣).

هذا بعضٌ من جحودهم ونكرانهم، وغيضٌ من فيضٍ لتجاوزاتهم وكفرانهم، وتاريخهم طويل في هذا الشأن، فأمرهم عجيبٌ وشأنهم غريب، فتلك هي نفوسهم غير السوية، وأخلاقهم الشاذة.

فماذا حلّ بهم بعد كل هذا الجحود، وهذا الكفران، لقد بدل الله نعمته عليهم نقمة، ونزل عليهم العذاب أشكالاً وألواناً ومن صور العذاب، ومظاهر النقمة التي حلَّت بهم ما يلي على سبيل الإيجاز:-

١- التيه، فقد تاهوا في الصحراء أربعين سنة فلم يهتدوا للخروج منها أبداً.

٢- نزول الرجز من السماء عليهم، بسبب فسقهم وعنادهم، وقيل إن الرجز هو العذاب بالطاعون، وقد مات على ما يروى منهم أربعةٌ وعشرون ألفاً (٤).

٣- الذلة والمسكنة والغضب، فقد غضب الله عليهم أشد الغضب بسبب جحودهم وكفرانهم، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، فكل من تعامل معهم أهانهم وأذلهم، وضرب عليهم الصغار.

٤- مسخهم قردة وخنازير، فبعد الاعتداء والصيد في يوم السبت فشا فيهم الأمر، ولم ينتهوا عن ذلك رغم نصح البعض لهم فمسخهم الله إلى قردة وخنازير. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٥).

٥- إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، فلا تكاد تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق أقوالهم.

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ﴾ (٦).

٦- العذاب الشديد يوم القيامة، وذلك بسبب كفرانهم بنعم الله وجحودهم، ومعاصيهم التي منها قتل الأنبياء ونقض العهود والمواثيق، وتحريف الكتاب وغيرها من الذنوب الكثيرة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ ص٩٢٩ .
(٢) المائدة ، (٦٤) .
(٣) النساء ، (١٦١).
(٤) انظر: روح المعاني – الألوسي – ج١ص٢٦٧.
(٥) البقرة ، (٦٥).
(٦) المائدة ، (٦٤).

النموذج الثاني: قوم سبأ.

وقوم سبأ من الأقوام الذين جحدوا نعمة ربهم وكفروها، فعاقبهم الله تعالى بأن سلب منهم النعمة، ومزَّقهم أشد تمزيق، وحلَّت بهم نقمتُه، وتحوَّلت عنهم عافيتُه. وقد كان قوم سبأ في نِعمٍ عظيمة، وآلاء جسيمة، كانوا يعيشون في جنات وأنهار، وفي أمن، ورخاء، وعافية، وسعة عيش، فأمرهم الله بتوحيده، وشكره ، وعبادته، فكانوا كذلك فترةً من الزمان، ثم أعرضوا عمَّا أُمروا به، فعاقبهم الله بالطوفان " سيل العرم " والتفرُّق في البلاد شذر مذر، فما هي تلك النِّعم التي أنعم الله بها على سبأ فجحدوها؟ إنها نِعمٌ متعددة، سأذكر بعضاً منها كما ذكرها القرآن الكريم:

١- منحهم الله في بلادهم جنتين، كانتا في غاية الروعة والجمال قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١). والآية دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت الثمار تملأ أشجار تلك الجنتين من كل الأنواع، والأصناف، من الفواكه والكروم، وقد أمرهم الله بالأكل من رزقه، ومكَّنهم منه، حيث لم يجدوا صعوبةً في قطف وجني تلك الثمار، ثم طالبهم بموجب ذلك بالشكر، والعمل بطاعته وقوله " بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور " مستأنفةٍ لبيان موجب الشكر، فهي طيبةٌ لكثرة أشجارها ولطيب ثمارها، وقيل ليس فيها هوام ولا حشرات (٢).

٢- مغفرة الله لهم، حيث جمع الله سبحانه عليهم نعمةً أخرى غير طيب العيش، وحلاوة الثمار، وهي المغفرة، ولم تكن تلك النعمة في ذلك الحين استدراجاً، فجمع بين النعمة العظيمة، والمغفرة الكريمة، وهذه النعمة لا تجتمع مع تلك، إلاّ لمن أراد بهم ربُّهم الخير، أما الجاحدون فإنه يمدُّهم بالنعمة استدراجاً.

٣- نعمة الله عليهم في السفر، فعلى الرغم من كثرة الزروع والثمار فيها، فإنه تعالى جعل السير فيها مقدراً، بحيث جُعلت بحسب ما يحتاج إليه المسافرون من التقارب فيما بين القرى، بحيث لا يسافر أحدهم يوماً إلاّ ويبيت في قرية على أقل تقدير على طريق سفره، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سبأ ، (١٥) .

(٢) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ ص ٣٨٢ .

(٣) سبأ ، (١٨) .

والمراد بالقرى التي بارك الله فيها هي قرى الشام، وهو رأي جمهور المفسرين، ومعنى قوله تعالى: " قرىً ظاهرة " أي جعلنا بينهم وبين قرى الشام قرى بيِّنَة واضحة، بحيث لا يسير الراكب مسافات طويلة لا يأمن فيها على نفسه، إلا ويجد قرية يقيم فيها في سفره آمناً مطمئناً، قال ابن كثير في تفسيره للآية " أي بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى " (١).

وقوله تعالى " سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين " دلالةً على نعمة الأمن في السفر، وذهاب الخوف، قال ابن كثير " أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً " (٢).

هذه هي بعض نعم الله عليهم فكيف قابلوها؟ لقد جحدوا نعمة ربهم، وأعرضوا عن شكر هذه النعمة، ولم يستجيبوا لرسل الله، قال تعالى: " فأعرضوا " أي عن الذي جاءهم به الأنبياء، فلم يؤمنوا، ولم يشكروا الحال الذي هم عليه، وقد أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله تعالى، وذكَّروهم بنعمه وفضله، فأنكروا وجحدوا وقالوا: ما نعرف لله نعمة (٣).

ليس هذا فحسب، بل كان من جحودهم أن ملوا نعمة الله وبطروها، وطلبوا أن يباعد الله بينهم وبين أسفارهم، وسئموا أطيب العيش، وتخلوا عن الأمن في الأسفار فسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم وأن يجعل بينهم وبين القرى المباركة وهي بلاد الشام مفاوز، وقفار، ليركبوا فيها الرواحل ويتزوَّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء والمساكين (٤).

ولم يقتصر الكفران والجحود عند هذا الحد، بل استمر الجحود والطغيان بهم حتى عبدوا الشمس من دون الله تعالى، حيث يذكر القرآن الكريم أن ملكتهم بلقيس كانت تعبد الشمس وقومها قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالمين، أما قومها فلم يذكر القرآن شيئاً عن إيمانهم مع ملكتهم (٥).
وبعد كل هذا كيف يكون العقاب، وهل تستمر النعمة على هؤلاء الجاحدين الكافرين المنكرين؟.
بالطبع لا .. فقد سلب الله منهم ما أنعم به عليهم، فلما اعرضوا عن شكر نعمة الله في مسكنهم حيث الجنان، والأشجار المورقة المثمرة، أبدلهم الله بالشجر المثمر ثمراً بشعاً لا يؤكل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٦ ص ٢٥٠ .
(٢) المصدر السابق – ج٦ ص٢٥٠ .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٧ ص ٢٦١ .
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم – أبو السعود – ج٤ ص١٢٧ .
(٥) انظر: بقية القصة في سورة النمل ، (٢٠ - ٤٤) .

وسلبهم تلك المياه التي كانت في السد قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (١).

واشتملت هذه الآية الكريمة على نوعين من العذاب والنقمة أصابت أولئك القوم:-

١- خراب السد، فلما أراد الله أن يعاقبهم أرسل عليهم سيلاً أذهب السد الذي كانوا منه يشربون، وجرفه، وتسبب في تحطيمه، فلم تعد جناتهم تسقى بماء ذلك السد فقد دمره الله عليهم، فجاء الوقت الذي يعرفون فيه قدر تلك النعمة العظيمة التي كانوا فيها.

٢- تبديلهم بالجنتين جنتين أُخريين، ولكنهما ليستا كالجنتين اللتين كانوا يتنعمون فيهما، بل فسدت الجنتان الأوليان، وأبدل الله مكان الشجر المثمر شجراً لا فائدة فيه، ولا منفعة، ولا خير، ولما تحطم السد كان ذلك سبباً في يبس الجنات، فهلكت بهذه الكيفية، وتسمية ما أبدلوا به " جنتين " من باب التهكم عليهم، أو للمشاكلة (٢). والخمط الشجر الذي لا شوك له، وطعمه مرٌّ (٣). والأثل كذلك شجر لا ثمر له ثابت الأصل، والسدر قليل الغناء عند الأكل (٤). وقد كان هذا الجزاء عقاباً لهم على كفرانهم فهو ليس ابتلاءً وإنما عقوبة عاقبهم الله بها.

٣- تفرقهم في البلاد، فلما سألوا الله أن يباعد بين أسفارهم، وسئموا نعمة الله عليهم في القرب بين البلاد والأمن، عاقبهم الله بأن فرّق شملهم، وشتت جمعهم، فقال تعالى عن عقابهم: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (٥) فجعلهم الله حديثاً للناس يتعظون منه ويعتبرون به في سوء العاقبة، والتمزيق هنا يحمل دلالات الانفصال الذي لا لقاء بعده، ولا اجتماع، فقد استحقوا هذا العقاب الذي أصابهم جزاءً وفاقاً لكفرانهم النعمة، وجحودهم بها، وتبطرهم عليها.

النموذج الثالث: قريش.

قبيلة قريش من الأقوام الذين جحدوا نعمة ربهم عليهم، وكذبوا الرسول الذي أرسله الله نعمةً إليهم وهو محمد ﷺ ، وقد منحهم الله من النعم الكثير مما يجعلهم مؤهلين لحمل هذه الرسالة، ومنها نعمة البيت الذي جعله الله وما حوله حرماً آمناً، وكذلك نعمة تدفق الأرزاق والثمرات من كل مكان إلى ذلك المكان المجدب.

---

(١) سبأ ، (١٦ ، ١٧) .

(٢) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٧ ص٢٥٩ .

(٣) انظر: المفردات – الأصفهاني – ص١٥٩ .

(٤) انظر: نفس المرجع – ص٢٢٥ .

(٥) سبأ ، (١٩) .

نعم كثيرة تلك التي آتاها الله قريشاً، ولكن البطر والجحود كانا ملازمين لهم إلا مَنْ هداه الله منهم للإسلام، وأهم تلك النعم التي أنعم الله بها على قريش ما يلي:-

١- نعمة الأمن: وقد كانت لهم السيادة، حيث كانوا سدنة البيت، وكذلك سقاية الحجيج، فامتنَّ الله عليهم بنعمة الأمن بينما كان الناس يتخطفون من حولهم، قال تعالى:﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً..﴾ (١). ومثابةً: أي مرجعاً يرجعون إليه، وملجأً وملاذاً يلوذون به (٢).

وهذه النعمة - نعمة الأمن – استجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام، حين دعا لذلك البلد بالأمن قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً...) (٣)، وبعد تلك الدعوة المباركة بقي الناس في ذلك المكان يعيشون في أمن وطمأنينة وسلام، قال تعالى يصف حال قريش: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ (٤). فلم يكن نصيب قريش الأمن فقط، بل الأمن المصحوب بالطمأنينة، علاوة على الرزق والثمرات.

٢- نعمة الرزق: أنعم على قريش بالأرزاق تأتيهم من كل مكان، إلى ذلك الوادي الذي لا زرع فيه، ولا ماء، وكان يجبى إليه ثمرات كل شيء، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ (٥). ومعلوم أن الثمرات تشمل الخيرات والأموال، أي من الحبوب والفاكهة، والأنعام والأكسية وغير ذلك، وكان ذلك يأتي مع قوافل الحجيج، ومع المسافرين للتجارة وغير ذلك.

٣- بعثة محمد ﷺ: وتلك هي النعمة الكبرى التي مَنَّ الله بها عليهم، فلقد أرسل الله إليهم رسولاً يعرفون حسبه، ونسبه، وصدقه، وأمانته، وكان ذلك أيضاً استجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام، حين دعا ربه جلَّ وعلا أن يبعث فيهم رسولاً، قال الله على لسان إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٦).

هذه هي أهم نعم الله على قريش فهل آمنت قريش وشكرت، أم أنها كفرت وجحدت؟.

الواقع أنها كفرت، وجحدت تلك النعم بما فيها النعمة الكبرى، فلم يؤمنوا به على الرغم من أن أكثرهم كان يعتقد صحة رسالته.

---

(١) البقرة ، (١٢٥).

(٢) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج١ص١٩٨.

(٣) البقرة ، (١٢٦).

(٤) النحل ، (١١٢).

(٥) القصص ، (٥٧).

(٦) البقرة ، (١٢٩).

إلا أن مصالحهم كانت مهددةً، فلهذا كذَّبوه، وجحدوا رسالته، وأنكروا أنه مرسل من ربه، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً... ﴾ (١). وقالوا عنه تارة أنه ساحر، وأخرى شاعر، وثالثةً كاهن، ورابعةً مجنون، ولذلك ردَّ عليهم القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ (٢).

بل وتجرأوا على الوحي الذي جاء به، فقالوا عنه أضغاث أحلام، وطلبوا تبديل نعمة الله ممثلة في هذا الوحي وهو القرآن الكريم بقرآن غيره، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (٣). طلبٌ يُعلنون من خلاله أنهم يرفضون نعمة الله التي جاءت لجلب الخير لهم، والهداية، والسعادة في الدارين.

وقد بيَّن القرآن الكريم أنهم كانوا ينفرون من سماعه، كما تنفر الدابَّة من صاحبها، وأنهم لا يطيقون مجرد سماع تلاوته، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ (٤).

وبعد فإن هذا بعضٌ من جحود قريش، فقد قالوا كل ما يمكن قوله، وجحدوا كل نعمة، واستمروا على ذلك حتى أوقع الله بهم عقابه في الدنيا، وأرجأهم لأشد العذاب في الآخرة، فسلبهم الله نعمة الأمن، ونعمة الأرزاق والثمرات، فأصبحوا خائفين بعد الأمن، وصاروا جائعين بعد الشبع والعيش الرغيد.

نعم عاقبهم الله على كفرهم، وجحودهم لنعمه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٥) وأكثر المفسرين على أن هذا المثل أُريد به أهل مكة، ومن قال إن المثل على عمومه، فهو أشبه شيء بحالة مكة، قال ابن كثير: " وهذا مثل أُريد به أهل مكة " (٦).

وقال الشوكاني: " اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو كل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرَّحوا بأنها مكة " (٧).

وقد عاقبها اللهُ بالجوع والخوف، لأنها جحدت نِعمَ الله، وأعظمها البعثة المحمدية لنبي الرحمة ﷺ.

---

(١) الرعد ، (٤٣) .

(٢) الطور ، (٢٩ ، ٣٠) .

(٣) يونس ، (١٥) .

(٤) الإسراء ، (٤٦) .

(٥) النحل ، (١١٢) .

(٦) تفسير القرآن العظيم – ج٤ ص٣٤٧ .

(٧) فتح القدير - ج٢ص٢٥١.

أي أن الحق سبحانه أبدلهم بحاليهم الأولين خلافهما، فأذاقها الله لباس الجوع بعد أن كان يُجبى إليها ثمرات كل شيء، ولباس الخوف بعد أن كانوا يعيشون آمنين مطمئنين.

يقول سيد قطب: " ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباساً، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس وتغلغله في النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون " (١).

قال ابن عطية: " لما باشرهم ذلك صار كاللباس " (٢).

النموذج الرابع: فرعون.

هذا الطاغية فرعون، كان رمزاً للفساد والمفسدين في الأرض، مثلما بيَّن ذلك القرآن الكريم، وفرعون هذا مثال لكل متكبر متجبر لا يؤمن بيوم الحساب، وهو رمز الاستبداد، والاستكبار والاستقواء على الضعفاء، أحاطه الله بمجموعة كبيرة من النعم، والمنح، والعطايا، فقد أعطاه نعماً لا يحلم بها الكثير من الخلق، وعلى الرغم من ذلك كله، لم يؤمن بمن وهبه تلك النعم، ولم يشكرها بالطبع، بل أنكر أُلوهية الخالق، وزعم أنه ما من إله إلا هو، وليس من رب لهذا الخلق سواه، وبلغ به الأمر حداً فاق كل توقع، حيث يستعبد الناس ويظلمهم، ويطغى في الأرض، ويفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل، وهو يظن أنه إله للكون يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء قال تعالى على لسانه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٣) وقد بلغ حدّ التبجح أنه زعم أن رأيه فقط هو الرأي الصواب، وأنه يهدي الآخرين إلى السداد والرشاد، وأحسن السبل قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٤). وبلغ الأمر به حداً وصفه الله فيه بالعلو والإفساد، ويقرر حقيقته، وحقيقة ملكه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٥).

إذن قد أحاطت نعم المولى جل وعلا بفرعون، إحاطة السوار بالمعصم، وكان يرفل فيها صباح مساء.

ومن تلك النعم:

١- الملك والحكم، فقد آتاه الله الملك والحكم لبلاد مصر، فحكمها هو وآلُه، وسيطروا على خيراتها ومقدراتها، وتحكموا بمصائر العباد والبلاد بها، وأداروا دفة الأمور هناك.

---

(١) في ظلال القرآن – ج٤ ص٢١٩٩ .

(٢) المحرر الوجيز – ج٣ ص٤٢٧ .

(٣) القصص ، (٣٨) .

(٤) غافر ، (٣٩) .

(٥) يونس ، (٨٣) .

وقد حكى القرآن الكريم ذلك على لسانه قال تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي... ﴾ (١). نداء المُستعلي لمن هم أدنى منه، غرَّه ملكُه وأطغاه مالُه وجنودُه، ألست المالك لمصر، والمتصرف فيها وهذه الأنهار المنسحبة من النيل في وسط القصور والبساتين هي أيضاً من ضمن هذا الملك الكبير الواسع، فافتخر بما أنعم الله به عليه، وآتاه إياه، وليس بصفة رشيدة، أو ميزة حميدة، أو أفعال سديدة (٢).

٢- الزينة والأموال، فبحكم ملكهم لمصر، وسيطرتهم على مقاليد البلاد والعباد، كان لديهم كل الأموال اللازمة للحكم، وحصلوا على كل الزينة التي كانت في تلك البلاد من بساتين، وحلي، وثمرات، وأكسية، وحرير، وذهب، وديباج وغير ذلك، وقد حكى موسى عليه السلام ذلك عنهم، وسجَّله القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ (٣).

قال الزمخشري: " الزينة: ما يُتزين به من لباس، أو حُلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى ارض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت " (٤).

٣- القصور والجنات، فلقد آتاهم الله جنات وبساتين فسيحة، وأشجاراً مثمرة، وكذلك قصوراً شاهقة وبنايات عالية، حيث برع قوم فرعون في الحسابات الهندسية، وبالتالي بناء الأشكال الهندسية الضخمة، والتي بقيت شاهدة على مدى تقدمهم في العمران والفن المعماري والهندسي، وخير شاهد على ذلك هي الأهرامات، والمقابر التي تعتبر من عجائب الدنيا وكذلك الأبراج والمسلات العالية، وقد نوَّه القرآن إلى هذه النِّعم في سياق حديثه عن تدمير كل ما صنعوه، فقال تعالى: ﴿ ... وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (٥). والمعنى ما كانوا يصنعون، ويعملون، ويبنون من العمارات والقصور، والمباني والمنارات، وما كانوا يعرشون من الجنات المعروشات، والبساتين الفارهات. وهناك أبنية شاهقة كانت معروفة في ذلك الحين كصرح هامان وغيره (٦).

فهل قابل فرعون وقومُه هذه النِّعم بالعرفان أم بالنكران والجحود؟ بالتأكيد قابلوها بالنكران والجحود، ومن صور هذا الجحود ما يلي:

---

(١) الزخرف ، (٥١) .
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن – السعدي – ج٤ ص٤٥٠ – ٤٥١ .
(٣) يونس ، (٨٨) .
(٤) الكشاف – ج٢ ص٣٥١ -٣٥٢ .
(٥) الأعراف ، (١٣٧) .
(٦) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٢ ص١٤٤ .

١- ادعاؤه الأُلوهية، وهي أعظم صور الجحود والكفران على الإطلاق أن يصل به الأمر أن يدَّعي الألوهية والربوبية، قال تعالى حكاية على لسان فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (١) وفي الآية الأخرى قال تعالى حكاية عنه أيضاً: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢). إنه ادعاء واضح للألوهية والربوبية، إنه الجحود في أسوأ صوره، وللوهلة الأولى فإنه لا يدَّعي الربوبية فقط، بل ويدَّعي أنه الرب الأعلى، بل تجرأ وأنكر ربوبية الله. ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

٢- الظلم والطغيان، فلقد بلغ الظلم في زمانه أقصى مداه، وقد تجاوز طغيانُه في الأرض على المستضعفين حده ومنتهاه، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٤). وقد وصل به الطغيان إلى حد استعباد الناس، واستضعافهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ... ﴾ (٥). ومعنى علا أي تكبر، وتجبر بسلطانه، وقيل: علا، أي ادَّعى الربوبية. وقيل: عن عبادة ربه، وجعل أهلها فرقاً، وأصنافاً في خدمته، يشايعونه على ما يريد، ويطيعون أوامره الظالمة، وقد كان يذبح أبناءهم، ويترك نساءهم، لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه سيذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن كان الكاهن الذي أخبره بذلك صادقاً فما ينفع القتل. وإن كان كاذباً فلا معنى لهذا القتل الذي يقع على الأبرياء (٦).

٣- تكذيبه لموسى وما جاء به وتهديده بالقتل، فبعد أن أرسل الله إليه ليدعوه إلى الإيمان بالله الخالق الحقيقي لكل شيء، لم يستقبل فرعون هذه النعمة الكبرى بل كذب وعصى، قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ (٧). فعندما دعاه موسى إلى التزكية والاستقامة والهداية والخشية، وجاءه بالآية الكبرى وقد اختلف فيها فقيل: هي العصا التي استحالت حية، وقيل: يده التي نزعها بيضاء، وقيل: فلق البحر، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات، لكنه كذَّب بموسى، وبما جاء به، وعصى الله فلم يطعه (٨).

---

(١) النازعات ، (٢٤) .
(٢) القصص ، (٣٨) .
(٣) الشعراء ، (٢٣) .
(٤) طه ، (٢٤).
(٥) القصص ، (٤).
(٦) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٤ص١٩١.
(٧) النازعات ، (١٧-٢٢).
(٨) انظر: فتح القدير – الشوكاني – ج٥ص٤٤٤.

ولم يكتف بلك فحسب، بل أراد أن يقتل موسى بعد أن هدده بالقتل مراراً، في تحدٍ واضح لمن أرسله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ... ﴾ (١).

٤ - إضلاله لقومه، ومنعهم من الإيمان، فلم يُرد لنفسه الهداية، وكذلك أراد حرمان قومه منها بالتهديد تارة والوعيد أخرى، والاستخفاف بهم، والضحك عليهم ثالثة، حتى أن السحرة لما آمنوا برب موسى هددهم بالقتل والصلب، وقد أصر على إضلال قومه، قال تعالى:﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ (٢).

هذا غيض من فيض من صور الجحود، والكفران، والإجرام، والفساد في الأرض الذي كان يفعله فرعون وجنوده، فهل يُبقي المولى نعمته عليه أم يأخذه أخذ عزيز مقتدر بعد أن استنفذوا الوقت الممنوح لهم؟ أتاه العذاب في أشد لحظات الغرور، وأصابه سيئات ما مكر، ومن صور العذاب والبلاء الذي أصابه وقومه وأتباعه ما يلي على سبيل الإيجاز:

١ - أَخذ آل فرعون بالسنين، ونقص الثمرات، والمقصود بالسنين القحط والجدب، وقلة الثمار لعلهم يرجعون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ... ﴾ (٣).

٢ - عذبهم بأنواع البلاء كالحشرات، والهوام التي كدّرت عيشتهم، وشغلتهم بأنفسهم قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤).

٣ - تدمير قصورهم العالية، ومبانيهم الشاهقة، قال تعالى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (٥). ولم يقتصر التدمير على الحجر، بل طال الشجر، وهو ما كانوا يعرشونه.

٤ - الطمس على أموالهم، والشد على قلوبهم، وبالفعل أذهب الله أموالهم، وجعل قلوبهم قاسية واستجاب لدعوة نبيه عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ... ﴾ (٦).

٥ - الهلاك المتحتم بالغرق، وذلك عندما تبع فرعون وجنوده موسى عليه السلام، ليقتلوه ومن معه من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٧).

٦ - العذاب المحرق الذي ينتظرهم في البرزخ في قبورهم وكذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٨).

---

(١) غافر ، (٢٦) .
(٢) طه ، (٧٩).
(٣) الأعراف ، (١٣٠).
(٤) الأعراف ، (١٣٣).
(٥) الأعراف ، (١٣٧).
(٦) يونس ، (٨٨).
(٧) البقرة ، (٥٠).
(٨) غافر ، (٤٥-٤٦).

النموذج الخامس: قارون.

قارون واحد من الخلق الذين آتاهم الله مالاً عظيماً، ونعماً وفيرة، حتى صار يضرب به المثل في كثرة الغنى، وسعة الملك، وهو رجل من بني إسرائيل من قوم موسى، لكنه طغى، وتكبر، وتجبر، وأفسده المال، فأصبح رمزاً للفساد المالي. وبغيه كان يتمثل في تكبره، والاعتداد بنفسه حتى زعم لنفسه الفضل على قومه، وطلب من قومه أن يصبحوا تحت أمره أي خدماً له، فظلمهم. وقيل ذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل، ويروى أنه قال لموسى: لك الرسالة يا موسى، ولهارون الوزارة والحبور، وأنا ليس لي شيء فإلى متى أصبر؟ فقال له موسى عليه السلام: هذا صنع الله (١). المهم أنه بغى عليهم بسبب أو آخر. صحت هذه الرواية أم لم تصح. وقد أنعم الله عليه بنعم كثيرة نذكر منها:

١- نعمة الغنى والمال، وكثرة الكنوز، فقد أعطاه الله ثروة هائلة، قلَّ أن يُعطيها أو يَمنحها لأحد من عباده. قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ... ﴾ (٢) ومعنى تنوء أي تثقل بحمله، والعصبة هي الجماعة القوية المتحدة، ولا يوجد ما يدل على عددها قال الراغب: " والعصبة جماعة متعصبة متعاضدة " (٣). الواضح أن هذه الخزائن من الكبر والضخامة بحيث تعجز الجماعة الكثيرة القوية عن حمل مفاتيحها قال، ابن عطية: " تنوء معناه تنهض بتحامل واشتداد " (٤). وإذا كانت المفاتيح بهذه الحالة ، فلنا أن نتخيل حجم هذه الخزائن.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالاً كثيراً، يصور كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال، وبأن مفاتح هذه الكنوز تُعيي الأقوياء من الرجال (٥).
وقد كانت تلك النِّعم على الظاهر بعد بَغية وفسادِه، فيكون ذلك العطاء استدراجاً له، ويحتمل أن يكون بغيُه نتيجةً لإعطائه المال الكثير.

٢- نعمة الله عليه المتمثلة في تهيئة من يرشده إلى الحق، ويهديه إلى الصواب، فقد هيأ الله له من قومه من ينصحه ويرشده قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦).

---

(١) انظر: أنوار التنزيل – البيضاوي – ج٢ ص١٩٩ .
(٢) القصص ، (٧٦) .
(٣) المفردات – ص٣٣٦ .
(٤) المحرر الوجيز – ج٤ ص٢٩٨ .
(٥) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٥ص٢٧١١.
(٦) القصص ، (٧٦-٧٧).

يقول سيد قطب في قوله " لا تفرح ": " فرح الزهو المُنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالممالك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر الذي ينسى المنعم بالمال وينسى نعمته، وما يجب له من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال ، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد ... " (١).

ويتابعون النّصح له، اطلب بمالك هذا الدار الآخرة، ولا يمنعك ذلك من التنعم الذي يَرضى الله عنه في الدنيا، وأحسن لله بشكر نعمته عليك، ولا يكن مالك باعثاً لك على الفساد في الأرض، لأن المنعم لا يحب المفسدين.

ولكن قارون لم يستجب لنصح الناصحين، بل استمر في بغيه، وبطره، وتكبره، بما آتاه الله تعالى من الأموال والكنوز. وصور جحوده كثيرة منها:

١- فرحه بالمال، فرح بطر، وتكبر، وتعالٍ على الآخرين، ولهذا لم يستجب لنصيحة قومه له.

٢- زاد من جحود قارون أن نسب هذا المال لجهده، وكسبه، وعلمه، ونسي المنعم، وقال كما صور القرآن ذلك على لسانه: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي... ﴾ (٢). والمعنى إني حصلت على هذا المال بجهد خاص، قولٌ لا يصدر إلا عن مغرور يفتنه المال ويغريه الثراء، وكم في هذا العالم الذي نعيش فيه مَنْ يظن أن كده وجهده وعلمه هو سبب غناه.

٣- زاد به البطر والكبر إلى أن وصل إلى الحالة التي جلبت له نهايته المحزنة والمخزية، ولم يفهم أن الله يستدرجه بكثرة النعم، ليزداد طغياناً وبطراً، فخرج يوماً على قومه متبختراً مختالاً في زينته من الحرير والذهب والديباج، والخدم والحشم والجند، حتى انبهر الناس بهذه الزينة، وقد نصح الناصحون مَنْ غرتهم هذه الزينة وبهرتهم بألا يغتروا بها كثيراً وألا يتعلقوا بالدنيا ، بل أن يوجهوا أنظارهم للآخرة، وألا يتمنوا أن يكونوا مكان قارون.

وهنا كان لا بد من العقاب الذي لا يتأخر عن القوم المجرمين، المفسدين، المتكبرين في الأرض بغير الحق، فلما وصل قارون ذروته وبلغ نشوته، أخذه الله بغتة، فزلزل الأرض به وبقصره وبأعوانه وجنده وكنوزه وماله وثروته، فعرف أولئك البسطاء من قومه أنهم في نعمة كبرى حينما لم يعطهم المولى ما أعطاه لقارون، ومن قبل كانوا يتمنون أن يكونوا مكانه، قال تعالى وكأن الأمر حصل بلمح البصر: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٣).

---

(١) في ظلال القرآن – ج٥ ص٢٧١١ .

(٢) القصص ، (٧٨) .

(٣) القصص ، (٨١) .

هكذا إذن كانت هذه نهاية الفتنة بنهاية صاحبها، وهكذا في جملة قصيرة، وفي سرعة عجيبة " فخسفنا به وبداره الأرض "، إنها زلزلة قد لا تكون كبيرة لكنها قد نتج عنها ابتلاعُ الدار بصاحبها، وهو في بطن الأرض التي كاد يطير فوقها، ولم يستطع أحدٌ أن ينقذه من هذا المصير المحتوم فلا نفعه مالُه، ولا نفعته ثروتُه، ولا نفعه جندُه، ثم يظهر بعد ذلك أنه حُرِم أيضاً من الآخرة، وأن الآخرة يجعلها الحقُّ سبحانه للذين لا يريدون استعلاءً على الآخرين، أو تكبراً وتجبراً عليهم، أو إفساداً لحياة البشر، بمنعهم عن الاستماع للوحي، والعيش في ظل أشعته، ونوره، والسير على خطى الأنبياء والمصلحين.

وبعد هذه نماذج سيئة عرضها القرآن الكريم لمن كان ديدنهم كفران النعمة وجحودها، وإنكار فضل المنعم على عباده، وهي نماذج بالطبع لأخذ العبرة والعظة لمن يعتبر، وليست نماذج للتأسي والاقتداء، نسأل الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وأن يُجنبنا طريقَ أهل الجحود والكفران، وأن يهدينا سواء السبيل إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الثالث: أثر شكر النعمة على الإنسان .

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الحفاظ على النعمة وزيادتها .

المطلب الثاني: الجزاء العظيم في الآخرة .

المطلب الثالث: رفع العذاب والنجاة في الدنيا والآخرة.

المطلب الرابع: نيل رضى المولى ومحبته.

المبحث الثالث: أثر شكر النعمة على الإنسان.

مما لا شك فيه أن لشكر النعمة آثاراً كبيرةً، وثمراتٍ عظيمةً، ومنافعَ لا تعد، وأن تلك الآثار لتظهر للعيان، ويحس بها الإنسان، بعد أن يكون قد أدى شكر نعمة المنعم، وأظهر امتنانه لخالقه ورازقه، وراح لسانه يلهج بالحمد والشكر على مَنْ أولى وأسدى إليه تلك النعم، وطالما بقيت جوارحُه تعبر عن ذلك الامتنان، وتسخر طاقاتها في القيام بحقوق النعمة التي يفرضها استمرار العطاء، وتدفق المنح والهبات.

وإن ثمرات الشكر ليعود أثرها على الفرد والمجتمع، بحيث تنعكس إيجاباً على أمر الدنيا والدين، وعلى العلاقات والروابط الإجتماعية، وكذلك يضمن الشكر تدفق تلك النعم على الأفراد والأمم وازديادها، وكذلك زوال شبح البؤس والعوز والفاقة، وقد اختار الباحث أن يتحدث عن مجموعة من تلك الآثار مبينا علاقتها بالشكر، ومجلياً لتلك العلاقة من خلال آيات القران الكريم وأقوال المفسرين.

المطلب الأول: الحفاظ على النعمة وزيادتها.

إن نعم المولى حين تفيض على العبد، وحين تأتيه المنحُ والهباتُ من كل مكان، وحين يصله مولاه بالعطايا والخيرات، فإن ذلك كله يحتم عليه أن يقابل تلك النعم والعطايا بالشكر، لأن شكر النعمة هو الكفيل بالحفاظ عليها، وهو الحارس الأمين، والراعي المكين لتلك العطايا والهبات، وقد جاء عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: " قيّدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى " (١). وبالشكر تنمو النعم وتزيد، وتفيض الخيرات والأرزاق، وعلى الرغم من أن الله تعالى قسم الأرزاق بين العباد، فأعطى كلاً منهم حسب حكمته، إلا أنه جعل للرزق أسباباً منها الاستقامة على الهدى، ومنها شكر نعمة المنعم، والثناء عليه.

وقد يُغدق الله على عباده الصالحين الخير والعطاء، ليمكِّنهم من أعمال صالحة كثيرة، ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم الرزق، وليمتحنهم بالشكر، فإن شكروا نعمة الله بالقلب واللسان والفعل الجميل، فإنهم يدَّخرون ذلك الشكر رصيداً لهم من الحسنات يجدونه في صحائف أعمالهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يتيح ذلك لهم فرصةً كبيرةً للحفاظ على النعمة، وزيادتها. ومن تلك الأسباب التي ترتبط بالرزق السعي كذلك في مناكب الأرض، وكذلك الإيمان بالله وعمل الصالحات والتقوى، ومن أهمها أيضاً الاستغفار كما مرَّ معنا عند الحديث عنه في أسباب زيادة النعم، إلا أن الشكر يبقى أهم تلك الأسباب، حيث أفرد له القرآن الكريم مساحة كبيرة بين آياته، وأكد القرآن على أنه موجبٌ لإفاضة النعم، وقد وعد الله عليه وعداً جازماً بالمزيد من النِّعم ولم يستثن في ذلك الوعد مطلقاً.

---

(١) كتاب الشكر – ابن أبي الدنيا – ص(٢٨) - رقم: (٢٣) .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ... ﴾ (١)، وهذا إعلامٌ بالمزيد من نعمه لمن شكره سبحانه وتعالى، والظاهر أن متعلق الشكر هو الإنعام، أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم، ولم يبين الحقُّ محل الزيادة فاحتمل أن يكون في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معاً (٢).

وتأذن أي أعلم وآذن إيذاناً بليغاً لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعيل من معنى التكلف، أنه عند شكركم له، فإنه يخبركم بالوعد الذي قطعه سبحانه على نفسه تفضلاً وتكرماً بأن يزيدكم من نعمه، وقيل المعنى: أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله، لئن شكرتم نعمته ليزيدنكم منها ما يكافئ هذا الشكر ويزيد. قال قتادة في هذه الآية: " حق على الله أن يعطي من سأله، ويزيد من شكره، والله منعم يحب الشاكرين، فاشكروا الله على نعمه ". ومعنى شكر النعمة، الاعتراف بحق المنعم، وهو التوحيد والطاعة، والثناء والتمجيد (٣).

" والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني، وقيل: لأزيدنكم من طاعتي، وقيل لأزيدنكم من الثواب، والأول أظهر " (٤).

قال سيد قطب: " إن شكر النعمة دليلٌ على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة .. والأخرى: أن النفس التي تشكر الله تعالى على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق، ولا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد. وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها، ويبارك فيها، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها " (٥).
فزيادة النعمة على هذا ثمرة طبيعية للشكر، ونتيجة حتمية له، وإن من يريد لنعمة الله أن تحوطه، فعليه بالشكر، فهو الضمانة الأكيدة لاستمرار النعم، وزيادتها، وإن ترك الشكر موجبٌ للضد من ذلك، فبتركه تزول النعم وتضمحل، ويذهب أثرها وأثر الانتفاع بها، وسرعان ما تحل محلها النقمة.

---

(١) إبراهيم ، (٧) .
(٢) انظر: النهر الماد – أبو حيان الأندلسي – ج٢ ص١٩١ .
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٤ ص٢٧٥ . والتفسير الوسيط – النيسابوري – ج٣ ص٢٤ . والمقتطف – المنصوري – ج٣ ص٤٣ .
(٤) فتح القدير – الشوكاني – ج٣ ص١٢١ .
(٥) في ظلال القرآن – ج٤ ص٢٠٨٩ .

وقد جاء عن رسول الله ﷺ، أنه قال: " **لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة، لأن الله عز وجل يقول: (لئن شكرتم لأزيدنكم)** " (١).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي رضي الله عنه أنه قال: " **إن النعمة موصولةٌ بالشكر، والشكر معلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد** " (٢).

المطلب الثاني: الجزاء العظيم في الآخرة.

أعدَّ الله سبحانه للشاكرين جزاءً عظيماً، وثواباً كبيراً في الآخرة، فعندما يقوم الإنسان بحقوق النعمة من الإقرار والاعتراف بالنعمة، ومن شكر المنعم جلّ شأنُه فإنه يضع نفسه حينذاك في المكان الذي يرضى فيه عنه ربه ومولاه، وينتظر فيه حسن الجزاء والمكافأة، وقد ورد في القرآن الكريم آيتان متتاليتان نصٌ على أن الله سبحانه يجزي الشاكرين على شكرهم، قال تعالى: ﴿ ... وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣).

والحديث في هاتين الآيتين عن شكر نعمة الله في الدين والهداية، وذلك باتباع شرع الله تبارك وتعالى، وإيثار الآخرة على الدنيا. والملاحظ أن الله سبحانه لم يذكر ما هو جزاؤه في الآخرة، ويُغني عن ذلك وعد الله بالجزاء، فإنه جزاء وعد به أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

والآية الثانية وإن نزلت في الجهاد، لكن حكمها عام في جميع الأعمال الحسنة، حيث قيل إن الوعد بالجزاء الحسن المراد به المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وقيل جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولاً أولياً، وتصدير الجملة بالسين، وإبهام الجزاء للتأكيد، وللدلالة على فخامة الجزاء وعِظمه (٤).

وهذا الذي تضمنته الآيتان الكريمتان من الوعد الحسن للشاكرين بما يستحقون من الثواب، وإن كان المراد بهما الطائعين لله من المهاجرين والأنصار كما قال ابن عباس، إلا أن المراد كل الشاكرين والحامدين من أمة محمد ﷺ. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (٥).

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي – (ج٤/ص١٢٧) – رقم(٤٥٣٢).
(٢) كتاب الشكر – ابن أبي الدنيا – ص(١٩) – رقم(١٨).
(٣) آل عمران ، (١٤٤ ، ١٤٥) .
(٤) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج١ ص٣٧٦ .
(٥) انظر: الوسيط – النيسابوري – ج١ ص٥٠٠ . .
والوجيز في تفسير الكتاب العزيز – النيسابوري – ج١ ص٢٣٥ .

يقول سيد قطب: " وسيجزي الله الشاكرين الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج، فيشكرونها باتباع المنهج، ويشكرونها بالثناء على الله، ومن ثم يسعدون بالمنهج، فيكون هذا جزاءً طيباً على شكرهم، ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة، وهو أكبر وأبقى.. " (١).

ويقول أيضاً: " وسنجزي الشاكرين الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي، فيرفعون عن مدارج الحيوان، ويشكرون الله على تلك النعمة، فينهضون بتبعات الإيمان " (٢).

أقول: وبمقدار الشكر يكون الجزاء، فكلَّما كثر الشكرُ من الشاكر، وكلَّما داوم عليه بقلبه ولسانه وجوارحه، كلما كان الجزاءُ أعظم وأكبر، وكلَّما ارتقى صاحبُه في مدارج الجنان، ومنازل القربى.

وقد ورد عن النبي ﷺ. في بيان جزاء الشاكرين وأجرهم الموفور الذي ينتظرهم قوله ﷺ: " **الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر** " (٣)، وهذا من فضل الله على عباده أن جعل للطاعم الشاكر الذي يشكر ربه على ما أنعم عليه من النعم، مثل ثواب الصائم الصابر. وفي هذا الحديث حثٌّ على شكر الله على جميع نعمه، وعدم اختصاص ذلك بالأكل والشرب فقط.

فالطَّاعم الذي يأكل ويشكر له مثل أجر الصائم الذي يصبر على الجوع والظمأ، ولا يخفى أن أجر الصائم عظيم جداً حيث يجزي المولى الصائم بنفسه، وقد قال تعالى في جزاء الصابرين: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (٤).

فما أعظم جزاء الشاكرين! وما أحسن ما ينتظرهم عند مولاهم الغفور الشكور!.

المطلب الثالث: رفع العذاب والنجاة في الدنيا والآخرة.

ومن ثمرات الشكر أن الله تعالى يغفر لعباده تقصيرهم في طاعته وعبادته، عندما يجبرون ذلك التقصير بإدامة الشكر على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، وطبيعة الإنسان أنه لا يستطيع القيام بما هو واجب عليه من العبادة والطاعة، وحتى الشكر لا يستطيع القيام بحقيقته على الوجه الأكمل، ولذلك كان الله غفوراً رحيماً لمن شكره من عباده ولو كان ذلك الشكر قليلاً ويسيراً، إلا أن الحق سبحانه يعطي الكثير على ذلك القيل، ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعفها لمن يشاء.

---

(١) في ظلال القرآن – ج١ ص٤٨٦ .

(٢) المصدر السابق – ج١ ص٤٨٧ .

(٣) سنن الترمذي– كتاب صفة القيامة– الرقائق والورع عن رسول الله(٣٥) – باب منه، " ما جاء في صفة أواني الحوض (٣)– ص(٥٦٠)– رقم(٢٤٨٦). وقال حسن غريب، وصححه الألباني. وسنن ابن ماجة-كتاب الصيام(٧)- باب فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر(٥٥)- ص(٣٠٦)- رقم(١٧٦٤).

(٤) الزمر ، (١٠) .

ولأن الإنسان لا يستطيع القيام بالشكر على أكمل وجه، فإنه يعد ظلوماً بتقصيره عن الشكر، ولهذا كان الشاكرون قلة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١)، وإن كان هذا الوصف أكثر ما ينطبق على الكافر لأن الله سبحانه يقبل القليل من الشكر، ولم يكلف الإنسان ما لا يطيق، وقد جاء عن سليمان التيمي(٢). أنه قال: " **إن الله عز وجل أنعم على العباد على قدره، وكلَّفهم الشكر على قدرهم** " (٣). فمن شكر بعض ما استطاع، وشعر بعجزه عن شكر ما لا يستطيع، فإن الله يغفر له تقصيره، ولا يعاقبه على ذلك. والله سبحانه من تمام عدله ورحمته بخلقه أنه يغفر لهم ويتجاوز عنهم، ويرفع عنهم العذاب إن هم شكروا نعمه، وقاموا بما يستطيعونه من القيام بحقها، وآمنوا به سبحانه، وأقروا بوحدانيته، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم وهو يلفت أنظارنا إلى رحمة الله وصفحه عن عباده. قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ (٤). فسبب التعذيب إن حصل هو عدم الشكر والإيمان، ومادام الشكر حاصلاً فلا حاجة لوقوع العذاب حسبما تقرره هذه الآية الكريمة.

ومعنى الآية ما يريد الله بعذاب خلقه إن هم قاموا بما هو واجب عليهم من الشكر، والاعتراف بالإحسان، وإصلاح العمل في مقابل النعمة، فإن من شكر لمولاه، شكر الله له عمله ولو كان قليلاً، وجازاه عليه بالكثير، وقد قال قتادة: إن الله لا يعذب شاكراً ولا مؤمناً (٥).

قال سيد قطب: " إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران. وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان.. إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان، فهناك الغفران والرضوان " (٦).

فشكرُ النِّعم يؤدي إلى رفع العذاب عنهم، وغفران ذنوبهم التي حدثت بسبب تقصيرهم وعجزهم عن الوفاء بحق المنعم من الشكر والثناء وغير ذلك.

---

(١) سبأ ، (١٣) .

(٢) سليمان ابن طرخان التيمي، مولى بني مرّة، نزل في بني تيم فنسب إليهم، كنيته أبو المعتمر، كان من عبّاد أهل البصرة، ثقة حافظ، وكان يذب عن السنة، ت-١٤٣هـ . انظر: تقريب التهذيب – ابن حجر – ص٢٥٢.

(٣) شعب الإيمان – البيهقي – (ج٤/ص١٣٨) – رقم(٤٥٧٨).

(٤) النساء ، (١٤٧) .

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج٢ ص٢٦٩ .
والتفسير الوسيط – النيسابوري – ج٢ ص١٣٤ .

(٦) في ظلال القرآن – ج٢ ص٧٨٦ .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن الشاكرين ينجون من عذاب الله تعالى في الدنيا، مثلما تكون نجاتُهم في الآخرة، ومثال ذلك ما حدث لنبي الله لوط عليه السلام، حينما نجَّاه الله من الهلاك والعذاب الذي نزل بساحة قومه، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ (١).

فالله تعالى ينجي عباده الشاكرين من العذاب في الدنيا، كما نجى عبده لوط عليه السلام، وقد كان إنجاء لوط عليه السلام له دلالة كبيرة على أن الشاكرين في مقابل شكرهم ينجيهم الله تعالى من العذاب والهلاك الذي يصيب الذين لا يؤمنون ولا يشكرون، وعلى هذا كانت النجاة نعمة من الله على لوط ومن معه، وفضلاً تفضّل به عليهم، ومثل ذلك الجزاء وهو النجاة يمنحه الله لمن شكر نعمة الله عليه، وأدى حقها بالإيمان والطاعة، ولما كان الإنجاء فضلاً، كان الإهلاك عدلاً (٢).

وقد أرسل الله سبحانه ملائكته إلى لوط عليه السلام، لكي يخرجوه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، ثم ينجو وأهله من العذاب والهلاك الذي سينزل بقومه، إلا امرأته لم تكتب لها النجاة بسبب سوء أفعالها، وعندما خرج لوط ومن معه من القرية، أهلك الله قومَه بأن جعل القرية عاليها سافلها، وأمطر عليهم الحجارة زيادة في النكال والعذاب.

وكما نجّى الله تعالى لوطاً عليه السلام وأهلَه باستثناء امرأته، فإنه تعالى ينجي كلَّ من شكر نعمته وآمن به، ولذلك نجّى الله تعالى نوحاً عليه السلام وقومَه من العذاب حينما آمنوا مع نوح وشكروا نعمة ربهم، قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (٣).

فالله تبارك وتعالى ينجي الشاكرين من عذاب الدنيا والآخرة .. أما ما يصيبهم من بلاء في الدنيا فليس بعذاب، إنما هو نعمة، حيث يحصل لهم بذلك التمحيص، وتكفير السيئات، وغفران الذنوب، وزيادة الحسنات، ورفع الدرجات، وعلى هذا فالابتلاء هنا ليس عقوبة، وإنما نعمة ومنحة من الله ليقرب عبده إليه، لاسيما إذا صبر وشكر، وأدى ما عليه من حقوق تجاه نعم الله التي يرفل بها صباحاً ومساء.

---

(١) القمر ، (٣٣ - ٣٥) .

(٢) انظر: المقتطف من عين التفاسير – المنصوري – ج٥ ص١٤٠ .

(٣) القمر ، (١١ - ١٣) .

المطلب الرابع: نيل رضى المولى ومحبته.

إن من أهم ثمرات شكر نعمة الله سبحانه محبة الله تعالى للعبد، ورضاه عنه، فإن المحبة والرضا من أهم ما يحوز عليه الشاكر لربه، وكذلك من أهم ما يوصل العبد إلى القربى، والحظوة، والمكانة عند الله، استدامة شكر النعمة من العبد.

وليس شكر النعمة يولد الحب من الله فحسب، بل والحب كذلك من العبد لمولاه وخالقه المنعم عليه، حيث إن العبد يكون أسيراً لإحسان خالقه وفضله ومنِّه. فالشاكر يتوصل بمعرفة النعمة إلى المنعم، ومعرفة مدى رعايته وعنايته ورحمته بالإنسان، وقد كلَّفه مولاه بالشكر على قدر استطاعته، وكلَّما ازداد شكر العبد، ازداد قرباً من الله، وازداد محبةً ورضىً عند خالقه.

" والشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى، وأنواع فضله، وكرمه، وذلك يوجب تأكد محبة الله تعالى المحسنِ عليه بذلك، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يكون حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلى وأغلى " (١).

يقول ابن القيم: " ومتى عرف المنعم أحبه، وجَدَّ في طلبه، فإن من عرف الله أحبه لا محالة " (٢).

فالشكر يثمر في نفس الشاكر حب الله تعالى، لأن من ذاق طعم النعمة لا بد وأن يحب المنعم، ويعمل على نيل رضاه، وعلى الوصول إلى قربه.

" إن محبة العبد لله أثر فطري عن الشعور بنعمة الله على العبد، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " **أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي** " (٣) (٤).. فمن ثمرات الشكر أن يحب العبد ربه المنعم المتفضل، ويرضى عنه.

وكذلك: فإن من يتحقق لله بالشكر يمنحه الله محبته، ومحبة الله للعبد أمر معلوم يحمل على الحقيقة، وتتجلى هذه المحبة، في إنعام الله على العبد، وتدفق عطاياه ومِنحه عليه. وكذلك في هدايته وتوفيقه إلى كل خير في الدنيا، وفي حسن الثواب الذي ينتظره في الآخرة.

---

(١) روح المعاني – الألوسي - ج٧ ص١٩١ .

(٢) مدارج السالكين – ج٢ ص٢٤٧ .

(٣) سنن الترمذي – كتاب المناقب عن رسول الله(٤٦) – باب مناقب أهل بيت النبي(٣٢) – ص(٨٥٥) – رقم(٣٧٨٩). وقال الترمذي: حسن غريب، وضعفه الألباني.

(٤) جند الله – سعيد حوى - ص١٨٩ .

وذكر ابن القيم كلاماً نفيساً عن محبة الله للعبد فقال: " محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله، صفة زائدة على رحمته، وإحسانه، وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره أتم نصيب " (١).

قلت: محبة الله ليس كمثلها شيء كما كل صفاته، فهي ليست كمحبة العبد، إنما هي محبة تليق بجلاله وعظمته، وبالتالي فإن آثارها تتجاوز حدود ما نتوقعه أو نتخيله بعقولنا، فإن آثارها تليق بعظمته.
وعلى كل حال، فقد أثبت القرآن الكريم والسنة النبوية حبَّ الله تعالى لعباده المؤمنين الطائعين الشاكرين، وحتى ينال العبد هذه المحبة، فإن هناك طريقاً يسلكها السالكون، وأثراً يظهر على جوارحهم وسلوكهم وحصائد ألسنتهم. وقد وصف الله تعالى نفسه بالودود، وصفة الودود مأخوذ من الود، وهو الحب.

يقول الأستاذ عبد الرحمن حنبكة الميداني: " اسم الله "الودود " مأخوذ من الود وهو الحب. ومحبة الله خاصة بصنف من عباده وهم المؤمنون الطائعون. قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (٢) والمراد بمحبة الله لعبده، زيادة إنعامه عليه بجعله من أهل القربى عنده. ويتضمن معنى الود من الإنعام ما لا يتضمنه معنى الرحمة والرأفة " (٣).

والله تعالى إذا أحبَّ عبداً فإنه يوقع له المحبة من أهل السماء وأهل الأرض، فقد قال ﷺ: " **إن الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبداً نادى جبريل إن الله قد أحبّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء إن الله قد أحبّ فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في أهل الأرض** " (٤).

ولا يقتصر أثر محبة الله للشاكرين عند هذا الحد، بل إن هذه المحبة تورث النفس الطمأنينة، والثبات، ما لا يدركه كثيرٌ من البشر.

يقول سيد قطب: " وحب الله العبد.. أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته، كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي.. من هو في عظمته، ومن هو العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب، والعبد من صنع يديه سبحانه.

---

(١) مدارج السالكين – ج٣ ص١٨ .
(٢) المائدة ، (٥٤) .
(٣) العقيدة الإسلامية وأُسسها – ص٢٢٠.
(٤) صحيح البخاري – كتاب التوحيد(٩٧) – باب كلام الرب مع جبريل(٣٣) – ص(١٤٢٨) – رقم(٧٤٨٥).
وصحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب(٤٥) – باب إذا أحب الله عبداً (٤٨) - ص(١٢٩٧) - رقم(٢٦٣٧).

.. وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها " (١).

فمن ثمرات الشكر أن الله سبحانه يحب الشاكرين، ويرضى عنهم، ورضوان الله تعالى هو أعظم ما يناله العبد في الدنيا والآخرة.

وقد نصَّ القرآنُ صراحةً على أن الشاكر ينال رضى مولاه في قوله تعالى:﴿..وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ ﴾(٢)، والمعنى وإن تشكروا الله على نعمه وتؤمنوا به، لأن الشكر يقتضي الإيمان، فإن الله يرضى لكم ذلك السبيل ويثيبكم عليه، لأنه سببٌ لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به، فهو غني عن الشكر. وقال ابن عباس: يضاعف لكم الأجر وثواب الشكر. وهو ما عبَّر عنه في الآية بالرضا (٣).

فرضوان الله تعالى أعظم ما يناله العبد في الدنيا والآخرة، لذلك بيَّن القرآن الكريم أن أعظم الجزاء في الآخرة هو رضوان الله. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤).

يقول سيد قطب عند تفسير قوله " ورضوان من الله أكبر "، " إن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم .. إنه لحظة اتصال بالله، لحظة شهود الجلالة ... إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع، وذلك هو الفوز العظيم " (٥). فما أروع الشكر ثمرةً ونتيجةً حينما يوصل العبد إلى المحبة والرضا من خالقه فينال بذلك القربى.

---

(١) في ظلال القرآن – ج٢ ص٩١٨ .
(٢) الزمر ، (٧) .
(٣) انظر: المقتطف – المنصوري – ج٤ ص٤٤٠ ، ٤٤١ . والنهر الماد – أبو حيان – ج٢ ص٨٤٢ . والواضح في التفسير – حجازي – ج٣ ص٧٠ .
(٤) التوبة ، (٧٢) .
(٥) في ظلال القرآن – ج٣ ص١٦٧٦ .

المبحث الرابع: أثر كفر النعمة وجحودها على الإنسان .

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تبديل النعمة وزوالها .

المطلب الثاني: استدراج أصحابها.

المطلب الثالث: الهلاك والعذاب الشديد.

المبحث الرابع: أثر كفر النعمة وجحودها على الإنسان.

لكفران النعمة وجحودها آثارٌ سيئة، وعواقب وخيمة، ونتائج سلبية، منها ما يعود على الإنسان نفسه، ومنها ما يعود على النعمة وجوداً وعدماً، دواماً وانقطاعاً، بركةً ومحقاً، ولو عرف المرء أثر الجحود والكفر لاختار الشكر بديلاً عنه، ولما بطر النعمة وتعالى عليها، ولكنها الفتنة، ولو علم المرء أن زيادة النعمة والحفاظ عليها يكون بالشكر وليس بالكفر، لما جحد نعمة الله عليه.

وفي هذا المبحث المهم سيعرض الباحث لبعض الآثار السيئة لكفر النعمة، وجحودها، من خلال الحديث عن العاقبة التي تنتظر من يكفر النعمة، من ذهاب للنعمة وزوالها، ومن الاستدراج بالنعم تمهيداً للعذاب الذي قد يصل إلى الاستئصال والهلاك.

المطلب الأول: تبديل النعمة وزوالها.

فإذا جحد المرء نعمة ربه تبارك وتعالى، فإن الله يسلب منه هذه النعمة، وتحل مكانها النقمة، وليس بالضرورة أن تسلب النعمة، بل قد يزاد له فيها استدراجاً له حتى يزداد إثماً وذلك لحكمة يريدها الله تعالى، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً.

إذن من جحد نعمة ربه فقد عرَّضها للزوال، وقد ذكر تعالى بعض الأمم الذين جحدوا نعمته فسلب منهم تلك النعمة، فقوم سبأ لما أعرضوا عن الشكر وجحدوا النعمة، أبدلهم الله مكانها شراً ونقمة، وهذا ما سبق الحديث عنه في هذا الفصل. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (١). فانظر كيف أبدلهم الله بالجنات والثمار ذلك الثمر البشع المر، وذلك النبات الذي لا فائدة منه ولا خير، وغيره من النبات الذي لا ثمر له. فهذا الجزاء من الواضح تماماً أنه مترتب على كفر النعمة، والإعراض عن المنعم.

وكذلك فلقد ضرب القرآن لنا مثلاً تلك القرية التي كانت نعم الله تغمرها من كل مكان، وتحيط بها من كل اتجاه، ولكنها كفرت بتلك النعمة، وجحدت شكر موليها، فهل تبقى تلك النعم متصلةً بها، وهي على تلك الحال؟! القرآن يجيب عن ذلك. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٢).

---

(١) سبأ ، (١٥ ، ١٦) .

(٢) النحل ، (١١٢) .

وهذه القرية وإن كان المقصود بها مكة حيث كفر أهلها بنعمة الله، وقد كانوا آمنين مطمئنين يعيشون في خصب وسعة، حينما أنعم الله عليهم بالنعمة الكبرى ببعثة محمد ﷺ فكفروا به وجحدوا رسالته، وهذا على مذهب جمهور المفسرين أن القرية هي مكة، إلا أن الآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدّل اللهُ نعمتهم بالنقمة، وإيثار جمع القلة " أنعُم " للإيذان بأن كفران النعم القليلة أوجب العذاب، فكيف بكفران وجحود النِّعم الكبيرة؟! (١).

وقد شبَّه الجوع والخوف في الآية باللباس الذي يلاصقُ جسمَ لابسه، ولا يفارقه، كناية عن شدة الجوع وعظم الخوف.

فإذا زالت نعمةُ العبد الجاحد فإن ذلك عقوبةٌ من الله تعالى له على كفرانه وجحوده. ولذلك لا عجب ولا غرابة أن نجد نبينا ﷺ يستعيذ بالله من زوال النعمة وانقطاعها، لأن ذلك دليل غضب، ونذير سخط من الله تعالى، قال ﷺ: " **اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك** " (٢).

وقد يكون تبديل النِّعمة ليس بذهاب عينها، إنما يكون بسحق آثارها، ومحق بركتها فلا يحس الإنسان بها، وهذا ما يلاحظ كثيراً لدى الأمم الغربية الكافرة، حتى إن أكثر حوادث الانتحار في البلاد التي يكثر فيها الرفاه، والرخاء، والسعة، والدخل المرتفع.

وقد يكون تبديلُ النِّعمة بأن يُصبح عبداً لها، فتكون همّه في الحياة الدنيا، وتملأ قلبه وعقله بدل أن تكون في يديه، وتستخدمه بدل أن يستخدمها، وكذلك بدل أن تكون مسخَّرة له يصبح ذليلاً لها، يتقلب على كل جهة ليحصل عليها، فيصبح بذلك عبداً للقطيفة، والخميصة، والدرهم، والدينار. وما أتعس من تكون هذه حاله!.

من هنا ندرك أن زوال النعمة وذهابها، أو زوال أثرها وقلة الانتفاع بها من آثار جحودها ونكرانها، وكفران النِّعمة والمنعم وعدم شكره، فالواجبُ يُحتمُ على كلِّ عاقلٍ ألا يكفر نعمة ربه ولا يجحدها، بل يجب عليه الاعترافُ بها، والإقرار بحصولها، وشكر المنعم المتفضل الذي أولاها، حتى تدوم وتبقى، ولا يعتريها الضياع أو الزوال أو قلة المنفعة أو حلول النقمة مكانها، نسأل الله أن يجعلنا من الذاكرين الشاكرين، وألا يجعلنا من الجاحدين، وأن يُديم نعمَه علينا.

---

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٣ ص١٦٣ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الرقاق(٣٧) – باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء(٢٦) – ص(١٣٤٢) – رقم:(٢٧٣٩).

المطلب الثاني: استدراج أصحابها.

إن من أخطر آثار كفران النعمة وجحودها أن يُستدرج صاحبها بإفاضة النعم عليه بدلاً من زوالها، وهذه الإفاضة للنعم تكون بمثابة العقوبة من المولى سبحانه لهؤلاء حتى يزدادوا في غيهم وإثمهم.

وقد بيَّن القرآنُ الكريم هذه الحقيقة في معرض حديثه عن عقوبة الاستدراج لمن أصرَّ على الكفر والجحود بآيات الله تعالى. قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (١). والاستدراج هو: الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة حتى يصلوا إلى حالة غير مسبوقة من الغيّ، وحتى يغرقون في الإثم بِكُلِّيَتِهِم.

واستدراج الله لهم تَمثَّل في أن أعطاهم أموالاً وأولاداً، ومتَّعَهم بصحةٍ وعافيةٍ، فشغلهم كلُّ ذلك عن النظر الصحيح في آيات الله واتباع الرسول مع قيام الأدلة الواضحة على صدقه وصحة نبوته، إلا أنهم تمادوا في غيِّهم في الباطل والغفلة، وآثروا الجحود والإنكار، حتى حسبوا أن تأخير العذاب عنهم، وإسداء النعم لهم بسبب استحقاقهم لذلك، وأنهم أصحاب كرامة عند الله، وأعماهم الغرور فظنُّوا أنهم سيكون لهم يوم القيامة مثل ذلك حتى نزل بهم البلاءُ، فبدَّدَ اللهُ جمعهم، وشتَّتَ شملَهم، أليس هذا استدراجاً لهم وإملاءً لهم؟! ثم بعد ذلك تكون القاضية (٢).

" سنقربهم من العذاب قليلاً قليلاً من حيث لا يشعرون، يقال استدرجه إلى كذا قرَّبه إليه. أو أنعم عليه نعمةً كلما جدد خطيئةً وأنساه الاستغفار " (٣).

قال الشوكاني: " فالاستدراجُ أن يخطو درجةً بعد درجة إلى المقصود... والمعنى سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النِّعم عليهم وإنسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية، لاغترارهم بذلك " (٤).

وقال أيضاً في قوله " وأُملي لهم ": " أي أُطيل لهم المدة وأمهلهم، وأؤخر عنهم العقوبة " (٥).

قلت: الاستدراج هو تأخر المعاجلة بالعقوبة، بنقل المُنعَم عليه إلى حالة أكثر إنعاماً، فعندما تفيضُ النِّعمُ وتُسبغ، ينسى المستدرج الشكر، وينشغل عنه بكثرة النعم.

---

(١) القلم ، (٤٤ ، ٤٥) .

(٢) انظر: التفسير الواضح – محمود حجازي – ج٣ ص٢٢ ، ٢٣ .

(٣) المصحف المفسر – محمد وجدي – ص٧٥٤ .

(٤) فتح القدير – ج٥ ص٣٢٩ .

(٥) المرجع السابق. ج٥ص٣٢٩.

ورغم أن الدنيا لا تساوي بما فيها عند الله جناح بعوضة، فإنه تعالى أفاض النِّعم على عبادِه المؤمنين الشاكرين رحمة بهم، وجزاءً لهم على شكرهم، وأفاض النِّعمة في أحيان أخرى على الجاحدين استدراجاً لهم، وعقوبةً على ما بدر منهم من جحودٍ ونكران، وكل ذلك حسب حكمة بالغة وتقدير حكيم، وليس اعتباطاً أو ظلماً.

ويذكر المولى جل وعلا في كتابه أقواماً أرسل إليهم رسلاً، وذكَّرهم بنعمه عليهم، وتدبيره لأمورهم بالتيسير والرزق، ولكنهم نسوا أو تناسوا ما ذُكِّروا به، وعند ذلك كانت بداية العقوبة، فقد أفاض الله عليهم كل أنواع النعم، وأعطاهم شتى أصناف الأرزاق والخيرات من كل ما يحتاجون إليه، ومن ثم كانت نهايةُ العقوبة بأن أخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدر. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (١).

فهذا هو عقاب الله وجزاؤه لمن جحد نعمته، وكفر صنيعه ومِنَّته، إنها عقوبة مدبرة ومحكمة وقوية ومؤلمة. قال ابن كثير: " لما نسوا ما ذكروا به أي أعرضوا عنه، وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم، فتحنا عليهم أبواب كل شيء، أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى، وإملاءٌ لهم " (٢).

" أما هذه الأمم التي كذبت بالرسل، والتي يقصُّ الله من أنبائها هنا. فإنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء، فلم يتضرعوا.. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد البلاء، والتعبير القرآني " فتحنا عليهم أبواب كل شيء " يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع والسلطان، متدفقة كالسيول بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا عناء، ولا كد، ولا حتى محاولة! " حتى إذا فرحوا بما أُوتوا " وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها، بلا شكر ولا ذكر، وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات ... وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق ... عندئذٍ جاء موعدُ السنة التي لا تتبدل " أخذناهم بغتة " (٣).

وهذه سنة الله في إفاضة النعم، وإسباغها على الجاحدين واقعةٌ ومشاهدة في جميع الأمم الجاحدة قديماً وحديثاً، قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ (٤).

---

(١) الأنعام ، (٤٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص١٥٢ .

(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ص١٠٩٠.

(٤) الدخان ، (٢٥-٢٧).

ومثلهم قريش الذين قال الله فيهم: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (١).

قلت: إن كثيراً من الناس يغترون بما هم فيه من النعمة، وتنتابهم حالةٌ من الذهول عن أداء حقها فلا يشكرون المنعم ولا يذكرونه، والواجب علينا أن ندرك في هذا المقام أن الاستدراج عقوبةٌ تُؤَجِّلُ العذاب، ولكنَّها لا تلغيه، إذ هي في حدِّ ذاتِها عقوبة، أو بداية العقوبة. وينبغي أن نعلم أن الإملاء قد يكون لفرد، وقد يكون لأمة، وقد يكون لدولة، فليحذر الإنسان سنة الإملاء، وعقوبة الله في الاستدراج، ولينتبه لنفسه قبل أن ينزل بساحته العذاب، فإن سنة الله في الاستدراج لا ينتبه لها الكثيرون، بعكس سنة الله في إزالة النعمة وذهابها وانقطاعها.

المطلب الثالث: الهلاك والعذاب الشديد.

والعذاب هو المصير الذي ينتظر الجاحدين الكافرين بنعمة ربهم، حتى وإن أصابتهم عقوبةُ الاستدراج والإملاء. والعذاب قد يكون في دار الدنيا وقد يكون في الآخرة، وقد يكون في كليهما، أما عذاب الدنيا فله صورٌ شتى منها ما يكون بالصعق، ومنها ما يكون بالغرق، ومنها ما يكون بالخسف، ومنها ما يكون بالريح، ومنها ما يكون بالتدمير والأخذ على حين غرة، وغير ذلك من أشكال العذاب وأصناف البلاء والتسليط. ومع كل هذا يبقى عذاب الآخرة أشد وأبقى وأخزى من عذاب الدنيا.
وقد أفصح لنا القرآن الكريم عن أمثلة من الذين جحدوا نعمة ربهم، فكانت العاقبة المحزنة والخاتمة السيئة بانتظارهم. فهذا قارون الذي أعطاه الله من الأموال والكنوز ما يفوق الخيال والوصف، ولكنه مع كل ذلك لم يشكر نعمة الله عليه، وإنما جحدها وبطرها حتى جاء أمر الله، وكان الخسف في الموعد به وبداره قال تعالى: ﴿ ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٢). خسف الله بقارون وبقصره وبأعوانه وجنده وزينته وآثاره الأرض دفعةً واحدة، قال قتادة: خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم، لا يبلغ قعرها، وقيل إن هذا الخسف الذي أصابه كان بدعاء موسى عليه السلام عليه، عندما لَجَّ في طغيانه وعتوِّه (٣).

وفي كلام رائع لسيد قطب يقول: " وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يدُ القدرة لتضع حداً للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيماً، ويجيء المشهد الثالث حاسماً فاصلاً: " فخسفنا به وبداره الأرض " هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة. ابتلعته وابتلعت داره، وهو في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً

(١) المزمل ، (١١) .
(٢) القصص ، (٨١).
(٣) انظر: تفسير الجلالين – المحلي والسيوطي – ص٤٢٧ . والسراج المنير – الخطيب الشربيني – ج٣ ص١٢٠ .

وفاقاً. وذهب عاجزاً ضعيفاً لا ينصره أحدٌ، ولا ينتصر بجاه أو مال. وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وردَّتهم الضربة القاضية إلى الله، وكشف عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال " (١).

وهذا فرعون وقومه يرسل الله إليهم رسولاً يهديهم للحق، ويصرفهم عن الباطل، وبدلاً من أن يشكروا نعمة ربهم، تمادوا في التكبر والتجبر، حتى أراد فرعون أن يلحق بموسى بعد الخروج ويقتله. وكان الله قد منحهم ملكاً عظيماً، وجناتٍ وأنهاراً وزروعاً ونعمةً يتفكهون فيها، قال تعالى: ﴿ وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ (٢)، نعم لقد أطبق عليهم البحر بأمواجه العاتية وغرقوا فيه، ولقد تركوا جميع ما كانوا فيه، ولم يغن عنهم شيءٌ منه، فلا يغتر أحد بتدفق النِّعم لئلا يُصنع به من الإهلاك ما صُنع بهم، فإنهم لم يشكروا، ولم يؤدوا حقَّ النِّعم، فكان هذا هو المصير المحتوم، والخاتمة المناسبة لهذا الجحود والكفران (٣).

وأكثر الأمم السابقة التي طغت وجحدت وبطرت النعمة أخذهم الله بغتة من حيث لا يشعرون. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (٤). نعم أخذ هؤلاء عذاب الاستئصال فجأة ، ليكون أشدَّ وقعاً عليهم، وأشقَّ على نفوسهم، " فإذا هم مبلسون " متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان: إذا سكت غمَّاً وحزناً. وقيل: للإبلاس ثلاثة معانٍ في اللغة وهي: الحزن، والحسرة، واليأس، وهي معانٍ متقاربة، ثم قطع دابرهم بحيث لم يبق منهم أحد، وهذا الهلاك والعذاب كان بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعصية في مقام الطاعة (٥).

وهذه هي سنة الله في أخذ الأقوام الظالمة والجاحدة عديمة الشكر، إنه يعطيهم ويمدهم حتى يفرحوا ويأمنوا، ثم يأخذهم بغتة. وإذا كانت سنة الله في الأمم السابقة إهلاكها واستئصالها إذا هي بطرت ولم تشكر، فإن عذاب الاستئصال قد رفع بعد بعثة رسول الله ﷺ، ولكنْ هناك ألوان كثيرة جداً من العذاب في هذا العصر بقيت حاضرة، فهذا العذاب النفسي، وهذه الآفات الاجتماعية، وهذه الأمراض المسلطة من الله سبحانه والتي لا يعرفون لها دواءً، وإذا ما اكتشفوا لها دواءً ظهر غيرُها سريعاً.

---

(١) في ظلال القرآن – ج٥ ص٢٧١٣ .

(٢) الدخان ، (٢٤-٢٧).

(٣) انظر: نظم الدرر – البقاعي – ج٧ ص٧٤ .

(٤) الأنعام ، (٤٤) .

(٥) انظر: المقتطف من عيون التفاسير – المنصوري – ج٢ ص١١٨ .

وما أكثر حوادث الانتحار في هذه المجتمعات، وقد أصبح هؤلاء مع كل ما هم فيه من النعمة يعانون الشقاء، والبلاء في كل شأن من شئون حياتهم، وتكثر المصحات العقلية والنفسية من حولهم.
إن نعمة الأموال والمتاع التي تتوفر لهم قد لا تتوفر لأمم كثيرة، وإن الحياة المادية التي يعيشونها مع ما فيها من رفاهية لم تحل مشكلاتهم، ولم تستطع أن تنقذهم مما هم فيه.

يقول سيد قطب: " وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة، وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة، وبالخواء القاتل الذي يحاول المتحضرون أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات، وتارة بالحركات الحائرة، التي تخيل إليك أنهم هاربون تطاردهم الأشباح " (١).

وكما قلنا في البداية، فإن عذاب الدنيا لا يقاس بعذاب الآخرة، لأن العذاب في الآخرة أشد وأبقى، حتى يبدو عذاب الدنيا بسيطاً جداً في مقابلة ذلك العذاب. وقد أشار القرآن الكريم إلى ما ينتظر الجاحدين من عقاب في ذلك اليوم. قال تعالى: ﴿ **سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (٢).
وبنو إسرائيل رتبوا على الشيء غير مقتضاه، فيكذبون ويجحدون بالآيات التي جاءت دالةً على الصدق كفلق البحر، وإنزال المن والسلوى، فبدلوها كفراً وإعراضاً بدل أن يهتدوا، ثم أخبر تعالى أن من بدل نعمة الله عاقبه الله أشدَّ العقاب، نظير مقابلته نعمة الله التي هي مظنة الشكر بالكفر، والعرفان بالجحود (٣).

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض أصناف العذاب التي تنتظر الجاحدين، وفصّل بعض أشكال العقاب الشديد المذكور في الآية السابقة. قال تعالى: ﴿ **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً، إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً، وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً** ﴾ (٤).
وأصحاب النعمة هم أصحاب الترفه والتنعم واللذة، وهم صناديد قريش ومن هم على شاكلتهم. وقد أخبر المولى أن لديه ما يضاد تنعمهم من الأنكال وهي القيود الثقيلة، والجحيم وهي النار الشديدة المحرقة المستعرة التي يأكل بعضها بعضاً.

---

(١) في ظلال القرآن - ج١ ص٢١٣ .
(٢) البقرة ، (٢١١) .
(٣) انظر: البحر المحيط – أبو حيان – ج٢ ص١٤٢ . وتفسير الجلالين – المحلي والسيوطي – ص٤٩
(٤) المزمل ، (١١ ، ١٣) .

والطعام ذا الغصة وهو الذي ينشب في الحلوق، فلا يستساغ، ولا يهضم، كالضريع وشجر الزقوم، والعذاب الأليم بشتى أصنافه وأشكاله (١).

أقول إن مجرد التهديد بقوله تعالى: " ذرني والمكذبين " أي اتركني وإياهم يا محمد، واترك أمرهم لي، أمر يصيب الإنسان بالرعب والهلع والخوف الشديد، حيث مجرد التفكير في ذلك العذاب تقشعر لهوله الأبدان، وهذا التهديد تهديدٌ من القوي الجبار القادر، الذي ليس لسلطته، ولا لقوته، ولا لجبروته مثيل، إذا كان هذا شأن التهديد فكيف بوقع العذاب المذكور؟! نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

وكل ذلك العذاب المذكور وغيره بعضٌ مما يلاقيه الجاحدون الكافرون بالمنعم المتفضل وبنعمته، وهذا العذاب وأمثاله يتناسب مع تنعمهم في الدنيا وترفههم، وبطرهم، وعدم شكرهم واعترافهم بحقوق المنعم والنعمة، فهو جزاءٌ وفاقٌ لما قدموه من الإنكار والجحود. فالله تعالى لا يظلم أحداً أبداً.

نسأل الله السلامة من كل هذا، وأن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين المعترفين بفضل المنعم علينا وبنعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، وأن يحشرنا معهم، وأن يباعد بيننا وبين الجحود والكفران والغفلة، إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر: الكشاف – الزمخشري – ج٤ ص٦٢٧ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله الذي أكرمني، ووفقني، ويَسَّرَ لي إتمام هذه الدراسة التي عشت معها ما يزيد على العام، في لحظات إيمانية عطرة أمضيتها مع نعمة المنعم جل شأنه، وقد ترسَّخ فيها إيماني، وزادت فيها معرفتي بالمنعم وعظمته، ومقدار نعمته وفضله علينا. وقد كانت تلك الأوقات رائعة وشيقة رغم عناء البحث، ومشقة التأليف، والكتابة، ومكابدة السهر، والتعب، لكن ذلك كله يهون أمام إنجاز هذه الدراسة، لا سيما أن الأمر متعلق بخدمة كتاب الله تعالى، وخصوصاً إذا كان موضوع الدراسة على قدر كبير من الأهمية كموضوع النعمة بين الدوام والزوال كما عرضها القرآن الكريم وبيَّنها أهل العلم.

وفي هذه الخاتمة الموجزة سأعرض بين يدي القارئ العزيز أهم النتائج التي توصلت إليها في كل فصل من فصول الرسالة مع التمهيد وذلك على النحو التالي:

التمهيد: وقد تم التعرف فيه على مفهوم النعمة لغةً وشرعاً، مع استعراض للفظ النعمة في السياق القرآني بين المكي والمدني، والتعرف على دلالات ذلك ومراميه، وتم التعرف على المفهوم الحقيقي لنعمة المنعم جل شأنه.

أما الفصل الأول: فقد كان بعنوان " وجوه النعمة وخصائصها في القرآن الكريم " وقد تناول هذا الفصل خصائصَ النِّعمة الكلية التي تتصف بها ولا تنفك عنها، ثم تناول البحث بعد ذلك وجوه النعمة ومعانيها في القرآن الكريم، ثم عرض البحث لأعظم وجوه النعم وهي بعثة النبي ﷺ، والإسلام دين التوحيد وتمام النعمة، ونعمة إنزال القرآن الكريم دستوراً ومنهاجاً. وقد كانت أهم النتائج لهذا الفصل على النحو التالي:

١- التعرف على أهم خصائص النعمة الكلية التي تلازم النعمة ولا تنفك عنها، فهي وصف ثابت لها.
٢- إدراك حقيقة هامة من حقائق النعمة، وهي أن كل نعمة اتصلت بالعبد، مباشرةً كانت أو غير مباشرة، أو عن طريق أحد من الخلق، هي من الله تعالى، فهو مصدرها وواهبها ومسديها.
٣- وقف الباحث على حقيقة النعمة فهي من جهة هبةٌ ومنحةٌ، ومن جهةٍ أخرى ابتلاءٌ وامتحانٌ للعبد، وتمحيصٌ له، فالواجب ألا يغتر أحدٌ بتدفق النعم عليه، وأن يقوم بشكرها.
٤- عرض الباحث أقوال المفسرين في معنى الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وبيَّن ما فيها من دلالات بلاغية معجزة.

٥- استعراض أقوال المفسرين في المقصود بالنِّعم الظاهرة والباطنة، وترجّح من تلك الأقوال إنها المعروفة لنا وغير المعروفة، المحسوسة وغير المحسوسة، حيث نرى الظاهرة ونلمسها ونحس بها. أما الباطنة فقد تنكشف بعد حين، وقد لا نتعرف عليها إلا يوم القيامة عندما يعرِّفنا الله بها.

٦- ظهرت سنة الله في تغيير النِّعم، وأن النعمة مرتبطةٌ بتغيير الأنفس وجوداً وعدماً، دواماً وانقطاعاً.

٧- عدَّدَ الباحثُ وجوه النعمة وأشهر معانيها في القرآن الكريم من خلال عرضه لها.

٨- برزت أعظم وجوه النِّعم المتعلقة ببعثته ﷺ، ومجيئه بدين الإسلام تمام النعمة، وبالقرآن الكريم دستوراً ومنهاجاً، واتَّضح أن كلَّ نِعم الله على الإنسان لا قيمة لها إذا لم ينتفع الإنسان بهذه النِّعم ، مما يحتم عليه الاهتمام بهذه النعم، ومعرفة حقها، والقيام به على أحسن وجه.

أما **الفصل الثاني** فقد كان بعنوان " نعم الله على الإنسان " وقد تناول جانباً من نعم الله على الإنسان، منها ما يختص بالنعم الكونية المسخرة للإنسان، ومنها ما يتعلق بالنعم الكائنة في الذات الإنسانية كخلق الإنسان، وتصويره، وتكريمه بالعقل والهداية. وتناول البحث نعماً خاصةً كنعمة الأمن، ونعمة المال والولد والزوجة، ونعمة الصحة والعافية، وقد كانت نتائج هذا الفصل على النحو التالي:

١- نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، والنعم المذكورة هنا على سبيل المثال لا الحصر، وضابط ذلك كثرة حديث القرآن عنها في سياق النعمة والامتنان.

٢- ظهر أن نعم الله الكونية مسخرة للإنسان ليقوم بوظيفته على هذه الأرض وهي الخلافة، وعمارة الأرض بالطاعة والعبادة.

٣- هذه النعم الكونية المسخرة هي لجميع البشر دون تمييز، وبدون هذه النعم لا يمكن للبشر العيش والبقاء.

٤- ظهر من خلال آيات القرآن، الكريم مقدار تكريم الله للإنسان من خلال خلقه وتصويره في أحسن صورة، وتكريمه بالعقل على سائر المخلوقات، ومنحه الحواس الخمس ليستطيع التعرف على الأشياء والربط بينها، لذا فالواجب يحتم على الإنسان أن يستخدم عقله وحواسه فيما يعود عليه بالنفع، وفيما يُرضي الخالق سبحانه ولا يسخطه.

٥- النعم الخاصة، نعم لا يهبها الله لكل فرد، وهذا ما بيَّنه الباحث وأكد عليه.

٦- ظهرت أهمية نعمة الأمن في الحياة، لأن النعم الأخرى من مال ومتاع وأولاد وأزواج لا يهنأ بها الإنسان بدون نعمة الأمن.

٧- ثبت أن نعمة الصحة والعافية والسلامة لا يدرك قدرها إلا مَنْ فقدَها.

أما **الفصل الثالث** فقد كان بعنوان " أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة " وقد تناول أهم أسباب تحصيل النعم ودوامها في الدنيا والآخرة، وقد كان أبرز هذه الأسباب شكر النعمة، ثم تناول الفصل أسباباً متعددةً ومتنوعة لدوام النعمة وهي ذكر النعمة، والإيمان والتقوى، والتسبيح والاستغفار، وعدم مظاهرة الظالمين، ثم الحديث عن أسباب تحصيل النعيم في الآخرة. وأهم النتائج هي:

١- هذه الأسباب وغيرها تخضع لسنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير، وقد أوضح القرآن الكريم لنا هذه الأسباب ودلّنا عليها، والواجب يقتضي البحث عنها وتطبيقها في حياتنا.
٢- إن أهم أسباب دوام النعم هو الشكر، وهنا يؤكد البحث على اهتمام القرآن الكريم به، ولذلك أفرد له مساحةً واسعةً بين آياتِه وسورِه.
٣- برزت أقوال العلماء في تعريفه، وخرج الباحث من ذلك كله بتعريف راجح، كاشفاً النقاب عن أسباب الخلاف بين أهل العلم في تعريفه.
٤- تجلَّت منزلةُ الشكر في القرآن الكريم، وظهرت أهميتُه في تحصيل النِّعم ودوامها.
٥- إن شكر الشاكر يعود نفعُه عليه، وإن الله سبحانه غنيٌّ عن الشكر ولا ينفعه شكر الشاكر كما لا يضره كفر الكافر.
٦- ظهرت أهم الأساليب التي اتبعها القرآن الكريم للترغيب في الشكر والحضِّ عليه، وظهر تنوّعُها وكثرتُها.
٧- أظهر الباحث العلاقةَ بين شكر النِّعمة وزيادتها من خلال القرآن الكريم وأقوال المفسرين.
٨- إن الأسباب الأخرى المتنوعة لدوام النعمة لا تتعارض مع الشكر بل تكمله وتؤازره.
٩- برزت قيمةُ الاستغفار في تحصيل النِّعمة ودوامها، إضافةً إلى التسبيح.
١٠- إن المعنى المراد من ذكر النعمة هو الاعتراف بها وقَبولها، ونسبتها إلى الله وشكره عليها.

أما **الفصل الرابع** فقد كان بعنوان " أسباب زوال النعمة وضياعها "، وقد كان على النقيض من الفصل السابق، عرض فيه الباحث لأسباب زوال النعمة وانقطاعها، وهي كفران النعمة وجحودها، مع ذكر أسباب أخرى ومتنوعة وهي: تغيير الأنفس للأسوأ، والتكذيب بالرسل، والفرح والفخر والبطر، وظلم الإنسان، وإنفاق النعمة في الصد عن سبيل الله.

وقد كانت أهم النتائج لهذا الفصل كما يلي:

١- يُعدُّ كفرُ النعمة وجحودها أهمَّ أسباب زوال النعمة وانقطاعها، وهو يأتي في مقابلة الشكر، ولذلك أفرد له القرآن مساحةً كبيرةً من الحديث بين آياته وسوره.
٢- قام الباحثُ بتعريف الكفر والجحود، حيث رجَّح تعريفاً لكل واحدٍ منهما من خلال أقوال العلماء، مبيِّناً حقيقةَ الكفر والجحود.

٣- إن الكفر والجحود لا يختلفان في الجوهر عن بعضهما، فحيثما حضر أحدُهما حضر الآخرُ برفقته، وإذا غاب أحدُهما غاب الآخرُ معه.
٤- يُعد الاستكبار والإعراض عن النِّعمة من أشكال الكفر والجحود، رغم إفراد القرآن لهما بالحديث.
٥- ظهر أن تغيير الأنفس نحو الأسوأ هو سببٌ من أسباب زوال النعمة وَفْقَ سنن الله الكونية.
٦- اتَّضح معنى الفرح والفخر والبطر، حيث تُذكر بمعنى واحد، ويُفسر أحدها بما يفسر به الآخر، ولذلك قرن القرآن الكريم بينها في مواضع عدة لقوة العلاقة بينها.
٧- ظهرت مجموعةٌ من الأسباب تؤدي إلى زوال النعمة، وتدخل في معنى الكفر والجحود، مثل التكذيب بالرسل، والظلم الذي يُحوِّلُ النِّعمةَ إلى نقمة، وإنفاق المال في الصد عن سبيل الله.

أما **الفصل الخامس** فقد كان بعنوان " آثار النعمة بين الشاكرين والجاحدين "، وقد استهل الفصل بالحديث عن الذين أنعم الله عليهم مع ذكر نماذج لهم في القرآن الكريم، وقد تناول أيضاً أولئك الذين كفروا بالنعمة وجحدوها مع ذكر نماذج لهم، وبيان أثر شكر النعمة على الإنسان، وأثر جحودها وكفرانها عليه. وقد كانت أهم نتائج هذا الفصل على النحو التالي:
١- ثبت أن هناك آثاراً مترتبةً على الشكر والجحود، وهي تخضع لسنن الله في الكون والحياة.
٢- قام الباحثُ بتعريف الذين أنعم الله عليهم، وذكر أقوال أهل العلم في ذلك مع الترجيح.
٣- ظهرت الطرق الموصلة للدخول في حزبهم، والسبل المؤدية لمرافقتهم، من خلال التأسي بهم في طاعتهم لله، وإخلاصهم في العبادة، ويؤكد الباحث على إمكانية ذلك، وسهولته.
٤- استعراض نماذج لمن أنعم الله عليهم، وكيفية الإنعام، وموقفهم منه.
٥- برزت نماذجُ لِمن جحدوا نعمة الله من خلال ذكر صفاتهم في القرآن الكريم، وبيان كيفية إنعام الله عليهم، وكيفية مقابلتهم لتلك النعم، والعقوبة التي عُوقبوا بها على ذلك الجحود.
٦- ظهرت أهمُّ آثار شكر نعمة الله على الإنسان من خلال القرآن الكريم، وبالمقابل ظهرت أهمُّ آثار جحود النعمة وكفرانها على الإنسان، ومدى خطورتها وسوء عاقبتها.

وأخيراً: الله أسأل أن يُنعم عليّ بقَبول هذا العمل المتواضع، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الآخرين، كما وأسأله جلَّ شأنُه أن يجزي أستاذي ومشرفي أوفر الجزاء وأحسنه في الدنيا والآخرة، وأن يرفع درجته ويُعلي منزلته، وأن يوفقني وإياه والمسلمين لكل خير، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الفهـــارس

وتشمل:

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث الشريفة.

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم.

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.

خامساً: فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
...حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ...	آل عمران	١٧٣	٢١
فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ...	آل عمران	١٧٤	٦
وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ...	آل عمران	١٧٣، ١٧٤	١٦٦
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ...	النساء	٢٩	١٣٧
وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم...	النساء	٦٩	٢١٩
مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء...	النساء	٦٩، ٧٠	٢٢٢
...قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ...	النساء	٧٢	٢٠
...وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً...	النساء	٨٤	٥
...وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً...	النساء	١٢٥	٢٢٧
...وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ...	النساء	١٤٦	١٨٠
مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ...	النساء	١٤٧	١٤٨، ١٥٣
فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ...	النساء	١٦٠	٢١٠، ٢١٥
...وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ...	النساء	١٦١	٢٤٨
...وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...	المائدة	٣	٦،٥٨،٨٨،٢٢١
...وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ...	المائدة	٦	١٥٥
...وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ...	المائدة	٧	٥٤، ١٦٢
يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ...	المائدة	١٦	١٢٩
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ...	المائدة	٢٠	١٩٠،٢٣٣،٢٤٥
قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا...	المائدة	٢٣	١٦٦

الآيــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً...	الرعد	٤٣	٢٥٣
...إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّار شَكُور...	إبراهيم	٥	١٤٧
...لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ...	إبراهيم	٧	٢٦٣،١٥٥،١٤٧
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً...	إبراهيم	٢٨	٦٢، ١٩٧
وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَين...	إبراهيم	٣٣	١١٥
...وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُــومٌ كَفَّارٌ...	إبراهيم	٣٤	٤٠، ٤٤، ٥٢، ١٩٣، ٢١٠
الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ...	إبراهيم	٣٩	١٤٩، ٢٢٧
...فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ...	الحجر	٢٢	١٠٦
لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ...	الحجر	٧٢	٨٢
وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ...	الحجر	٨٧	٢٣٥
...وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ...	النحل	٥	١١٠، ١١٢
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ...	النحل	٦	١١٢
هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...	النحل	١٠	١٠٧، ١١٣
...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ...	النحل	١٢	١٢٤
...وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ...	النحل	١٤	٢٣، ١٠٨، ١٥٧
...وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ...	النحل	١٥	١٠٣
وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ...	النحل	١٦	١١٨
..أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ، وَإِن تَعُــدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ...	النحل	١٧ ، ١٨	٤٢
...وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا...	النحل	١٨	١٢٢،١٠٠،٢٤،٢٢

الآيـــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى...	الإسراء	٨٣	٢٠، ١٩٦
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...	الكهف	١، ٢	٩٥
...وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ...	الكهف	٣٥، ٣٦	٢١١
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ...	الكهف	٤٢	٢١١
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...	الكهف	٤٦	١٣٦
وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا...	الكهف	٥٩	٢١٢
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً...	مريم	٥١، ٥٢	٢٣٣
أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ...	مريم	٥٨	٢٢١
...فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي...	مريم	٦٠، ٦١	١٧٨
تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً...	مريم	٦٣	١٧٦
وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً...	مريم	٧١، ٧٢	٢٣٨
...أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى	طه	٥	١٢٠
اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى...	طه	٢٤	٢٥٦
اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي...	طه	٢٤، ٣٦	٢٣٢
...الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً...	طه	٥٢	١٠٢
...فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ...	طه	٥٣، ٥٤	١١٣
وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى	طه	٧٩	٢٥٧
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ...	طه	١٢٣	١٢٩
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ...	الأنبياء	١٦	١٠٠
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ...	الأنبياء	٣٠	١٠٦

الآيـــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ	الزمر	٧	١٤٦، ١٥٠، ٢٧٠
...ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ...	الزمر	٨	٦٦، ١٩٤
...إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ...	الزمر	١٠	٢٦٥
لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ...	الزمر	٢٠	١٧٦
اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً...	الزمر	٢٣	٩٣
...ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ...	الزمر	٤٩	٦٦، ١٨٧، ٢٤٢
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً...	الزمر	٧٣	١٧٦، ٢٣٨
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ...	الزمر	٧٤	٢٣٨
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ...	غافر	٢٦	٢٥٧
قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ...	غافر	٢٩	٢٥٤
وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا...	غافر	٤٥ ، ٤٦	٢٥٧
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...	غافر	٦١	١١٧
...وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ...	غافر	٦٤	١٢١
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ...	غافر	٧٩، ٨٠	١٠٩
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ...	فصلت	٥١	١٩٥
...وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...	الشورى	٢٧	٤١
وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ...	الشورى	٣٠	٤٨
...وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء...	الشورى	٥٢	٩٣
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً...	الزخرف	٣	١٢٤
...وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ...	الزخرف	١٢	٧
...ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ...	الزخرف	١٣	٣٥، ٧٦، ١٦٣، ١٦٨

الآيـــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ...	الفجر	١٥	٧ ، ٢٠
فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ...	الفجر	١٥ ، ١٦	٢٦ ، ٣٦
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً...	الفجر	٢٠	١٣٦
يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً...	الفجر	٢٧ ، ٢٨	٢٣٧
أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ...	البلد	٨ ، ١٠	١٢٣
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى...	الضحى	٥	٢٣٥
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ...	الضحى	١١	٧٠ ، ١٤٧
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ...	قريش	٣	١٣٣

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث الشريف	الراوي	الحكم	الصفحة
أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه...	الترمذي	حسنٌ غريب وضعفه الألباني	٢٦٨
إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه...	أحمد	صحيح	٢٠٧
أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...	البخاري ومسلم	صحيح	١٩٠
أفلا أكون عبداً شكوراً...	البخاري	صحيح	١٤٧، ٢٣٦
اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك...	مسلم	صحيح	٢٧٣
إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً...	البخاري ومسلم	صحيح	٢٧٣
إن الله عز وجل أنعم على العباد على قدره	البيهقي	-	٢٦٦
إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه	البخاري ومسلم	صحيح	٢١٢
إن أهل الجنة يتبرأون أهل الغرف من فوقهم	البخاري ومسلم	صحيح	١٧٦
إن جبريل أتاني فبشرني...	مسند أحمد	حسن لغيره	٢٣٦
إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب	البخاري ومسلم	صحيح	٨٧
إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري...	الطبراني	ضعيف	١٥٢
آية في كتابكم تقرؤونها...	البخاري ومسلم	صحيح	٥٨
الحمد لله كثيراً طيباً مباركا فيه...	البخاري	صحيح	٤٣
رؤوس النعم ثلاث: فأولها نعمة الإسلام...	الأصفهاني وابن أبي الدنيا	ـ	١٤١
سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين...	مسلم	صحيح	٧٧
الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر...	ابن ماجه والترمذي	حسن غريب وصححه الألباني	٢٦٥
طوبى شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة سنة...	ابن حبان	صحيح لغيره	١٧٨
عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير...	مسلم	صحيح	١٤٧،١٩٥
في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين...	الترمذي وابن ماجه	حسن صحيح	١٧٧

الحديث الشريف	الراوي	الحكم	الصفحة
قيدوا نعم الله عز وجل بالشكر...	ابن أبي الدنيا	-	٢٦٢
كان إذا أتاه أمر سرور أو بشر به...	أبو داود وابن ماجه	صحيح	٢٣٦
كل نعمة لا تقرب من الله عز وجل فهي بلية...	البيهقي والخرائطي	أثر عن أبي حازم	٢٤
كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا...	الطبري	أثر	٣٨
لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب...	البخاري ومسلم	صحيح	٢٢٣
لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم...	البخاري	صحيح	١٣٥
للشهيد عند الله ست خصال، يغفر له في أول دفعة...	الترمذي وابن ماجه	حسن صحيح غريب	٦٤
لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة...	البيهقي وابن أبي الدنيا	_	١٦٤
ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة...	الأصفهاني وابن أبي الدنيا	أثر عن سفيان الثوري	٢٥
ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه...	البخاري	صحيح	١٣٣
المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف...	مسلم	صحيح	١٤٠
مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين...	البخاري	صحيح	٢٢٣
من أصبح آمنا في سربه، معافىً في بدنه...	الترمذي وابن ماجه	حسن غريب	١٣٥
من قال حين بصبح اللهم ما أصبح بي...	ابن حبان وأبو داود	حسنه الأرناؤوط	٣٤،١٦٣،٢٣٦
من لا يشكر الناس لا يشكر الله...	الترمذي	حسن صحيح	أ
من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً...	أبو داود وابن ماجه	ضعيف	١٧٠
نعم المال الصالح للمرء الصالح...	أحمد	إسناده صحيح	١٣٦
نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس...	البخاري	صحيح	١٤١
يا ابن ادم أتدري ما تمام النعمة...	أحمد والترمذي	إسناده حسن	١٣٠

فهرس الأعلام المترجم لهم

قائمة المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم..**

١ -إحياء علوم الدين:أبو حامد الغزالي-مكتبة الصفا-القاهرة-مصر-ط١.

٢ - إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي-دار الفكر-بيروت-لبنان.

٣ - أسباب النزول:أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري-عالم الكتب-بيروت-لبنان.

٤ - أسباب النزول: جلال الدين السيوطي - دار الفجر للتراث - القاهرة - ط١-١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٥ -الإسلام في عصر العلم:محمد فريد وجدي-دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان-ط٣-١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.

٦ - الإسلام:سعيد حوي-دار السلام-القاهرة-مصر-ط٤-١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٧ - إسلامنا:السيد سابق-دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان.

٨ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي-مكتبة بن تيمية-القاهرة-١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.

٩ -الأعلام:خير الدين الزركلي –دار العلم للملايين-بيروت-لبنان-ط٥-١٩٨٠.

١٠ - الأفعال في القرآن الكريم:عبد الحميد مصطفي السيد-دار الحامد للنشر والتوزيع-ط١- ٢٠٠٤م.

١١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل:أبو سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٢ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير:أبو بكر جابر الجزائري-مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة-ودار الفكر-بيروت-لبنان-١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٣ - بحر العلوم:أبو الليث نصر بن محمد بن احمد بن إبراهيم السمرقندي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٤ - البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

١٥ - تأملات في العلم والإيمان:نجيب محمد غالب،أحمد عبد الله إبراهيم سليمان-طبع المعاهد العلمية-اليمن-ط١-١٩٨٧م.

١٦ - التحرير والتنوير:محمد الطاهر بن عاشور-دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس.

١٧- تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.

١٨- تربيتنا الروحية:سعيد حوى-دار التراث العربي-بيروت-ط٢-١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٩- تفسير الجلالين:جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي-مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة-مصر-ط١-١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٢٠- تفسير الحسن البصري:دار الحديث-القاهرة-مصر.

٢١- تفسير السراج المنير:الخطيب الشربيني-دار المعرفة للطباعة والنشر-بيروت-لبنان.

٢٢- تفسير الشعراوي:محمد متولي الشعراوي-أخبار اليوم-القاهرة –مصر.

٢٣- تفسير القرآن العظيم:أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي- تح. محمد ناصر الدين الألباني-مكتبة الصفا-القاهرة-مصر-ط١-١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٤- تفسير القرآن العظيم:عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي بن أبي حاتم-دار الفكر –بيروت-لبنان-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٥- تفسير القرآن الكريم:عبد الله شحاتة-دار غريب-القاهرة-مصر-ط٢.

٢٦- التفسير القرآني للقرآن:عبد الكريم الخطيب-دار الفكر العربي.

٢٧- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب):فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١.

٢٨- تفسير المراغي:أحمد مصطفي المراغي-دار الفكر-بيروت-لبنان.

٢٩- تفسير المنار:محمد رشيد رضا-دار المعرفة-بيروت-لبنان-ط٢.

٣٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج:وهبة الزحيلي-دار الفكر-دمشق-دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان-ط٢-١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣١- تفسير النسفي:أبو البركات عبد الله احمد بن محمود النسفي-دار إحياء الكتب العربية-مصطفي البابي الحلبي.

٣٢- تفسير النهر الماد:أبي حيان الأندلسي-دار الفكر –بيروت-لبنان.

٣٣- التفسير الواضح:محمد محمود حجازي-دار التفسير للطبع والنشر-القاهرة - ط٢- ١٤٠٠هـ١٩٨٠م.

٣٤- التفسير الوجيز:وهبة الزحيلي:دار الفكر-دمشق-سوريا-ط٥-١٤٢٧هـ.

٣٥- التفسير الوسيط:لجنة من العلماء –بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر-الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية-ط١-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م..

٣٦- التفسير الوسيط:محمد سيد طنطاوي-مؤسسة الرسالة-القاهرة-مصر-ط٢-١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

٣٧- تفسير مقاتل بن سليمان:أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الازدي البلخي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣٨- تقريب التهذيب: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي – دار الرشيد – سوريا – ط.٤ – ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- تقريب التهذيب:أبو الفضل شهاب الدين احمد بن على حجر العسقلاني-دار القلم-دمشق-سوريا-ط٤-١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣٩- تهذيب التهذيب في رجال الحديث: أحمد بن حجر العسقلاني - دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط.١ – ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤٠- التوقيف على مهمات التعاريف:محمد عبد الرؤوف المناوي-دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان-دار الفكر-دمشق-سوريا-٢٠٠٢م.

٤١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:عبد الرحمن بن ناصر السعدي-دار المدني- جدة-١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٢- جامع البيان عن تأويل أي القرآن-أبو جعفر محمد بن جرير الطبري-دار السلام للطباعة والنشر- القاهرة-مصر-ط٢-١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤٣- الجامع لأحكام القرآن:أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي-دار الحديث-القاهرة-مصر-١٤٢٣هـ٢٠٠٢م.

٤٤- الجواهر الحسان في تفسير القرآن:سيدي عبد الرحمن الثعالبي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٤٥- الجواهر في تفسير القرآن الكريم:طنطاوي جوهري-مطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة-مصر-الناشر-المكتبة الإسلامية-ط٢-١٣٥٠هـ.

٤٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:أبو نعيم الأصفهاني-المكتب الإسلامي-بيروت-لبنان-ط٣-١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٤٧- الدر المنثور في التفسير بالمأثور:جلال الدين أبو الفضل السيوطي-مطبعة الأنوار المحمدية-القاهرة.

٤٨- ديوان البوصري:شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري-مطبعة مصطفي البابي الحلبي-القاهرة-ط٢-١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٤٩- الرحيق المختوم:صفي الرحمن عبد الله بن محمد أكبر المباركفوري-دار القبلة

للثقافة الإسلامية-جدة وكذلك مؤسسة علوم القرآن-بيروت-لبنان-ط٦-١٤٢٢هـ-١٩٩١م.

٥٠- روح البيان في تفسير القرآن :إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الخلوتي البروسوي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان- ط١-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٥١- روح الدين الإسلامي:عفيف طبارة-دار العلم-بيروت-لبنان-ط٢٧-١٩٨٨م.

٥٢- زاد المعاد في هدي خير العباد:شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي-المعروف بابن قيم الجوزية-مؤسسة الرسالة-بيروت-لبنان ط١٤-١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٥٣- زاد المسير في علم التفسير:أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي-دار الفكر-بيروت-لبنان-ط١-١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٥٤- زبدة التفسير-محمد سليمان عبد الله الأشقر-دار النفائس-الأردن-ط١-١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٥٥- زهرة التفاسير:محمد أبو زهرة-دار الفكر العربي-القاهرة-مصر.

٥٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة دار المعارف-الرياض- ط.١ – ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٥٧- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: محمد ناصر الدين الألباني-مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض-ط٢-١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٥٨- سنن ابن ماجه:أبو عبد الله محمد بنيزيد الشهير ب"ابن ماجه" تح. محمد ناصر الدين الألباني-مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض-ط١.

٥٩- سنن أبي داوود:أبو داود:أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني-تح. محمد ناصر الألباني-مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض-ط١.

٦٠- سنن الترمذي:محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تح. محمد ناصر الدين الألباني-مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض-ط١.

٦١- سنن الشاميين:أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني تح. حمدي عبد المجيد السلفي- مؤسسة الرسالة-بيروت-لبنان-ط١-١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٦٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب:أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي-دار الفكر للطباعة والنشر-١٤٢٥هـ-٢٠٠٣م.

٦٣- شرح العقيدة الطحاوية:ابن أبي العز الحنفي-المكتب الإسلامي-بيروت-لبنان-ط٤-١٣٩١هـ.

٦٤- شعب الإيمان:أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقـي تح. محمد السعيـد زغلـول-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

٦٥- الشكر لله عز وجل:ابن أبي الدنيا-دار ابن كثير-دمشق-ط٢-١٩٨٥م.

٦٦- صحيح ابن حبان:أبو حاتم محمد بن حبان البيتـي-مؤسسـة الرسالة-بيـروت-لبنان-ط١-١٤٠٧هـ-١٩٨٥م.

٦٧- صحيح البخاري:أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري-بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع-الرياض-١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٦٨- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري-دار الكتب العلميـة-بيروت-لبنان-ط٢-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٦٩- صفوة البيان لمعاني القرآن:حسنين محمد مخلوف-مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية-الإمارات العربية المتحدة-ط١.

٧٠- صفوة التفاسير:محمد علي الصابوني-دار القرآن الكريـم-بيـروت-لبنـان-ط٢-١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٧١- ضعيف الجامع الصغير وزيادته:محمد ناصر الدين الألبانـي-المكتب الإسلامـي-بيروت-لبنان-ط٣-١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٧٢- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين:محمد بن أبي بكر الزرعي-دار الكتب العلميـة-بيروت-لبنان.

٧٣- عدة الصابرين:ابن القيم الجوزية-دار عالم الكتب-بيروت-لبنان.

٧٤- العقيدة الإسلامية وأسسها:عبد الرحمن حنبكة الميداني-دار القلم-دمشق-سـوريا-ط٣-١٩٨٣م.

٧٥- عمدة التفسير:أحمد محمد شاكر-دار التراث الإسلامي- القاهرة-مصر-١٩٥٦م.

٧٦- غاية النهاية في طبقات القراءة:أبو الخير محمد بـن محمـد الجـزري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط٣-١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٧٧- فتح البيان في مقاصد القرآن:أبو الطيب صديق بن حسن بن على الحسين القنوجـي البخاري-دار إحياء التراث الإسلامي-قطر-١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٧٨- فتح الرحمن في تفسير القرآن:عبد المنعم أحمد تعيلب-دار السلام للطباعة والنشر-القاهرة- ط١ – ١٤٦هـ - ١٩٩٥م.

٧٩- فتح القدير: محمد بن على بن محمد الشوكاني-دار الحـديث- القاهـرة-مصـر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

-فتح القدير:محمد بن علي الشوكاني-دار الفكر-بيروت-لبنان-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨٠- فضيلة الشكر لله على نعمته:محمد بن جعفر الخرائطي-دار الفر- دمشق – ط١- دمشق=ط١-١٩٨٢م.

٨١- في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك-المكتب المصري الحديث- القاهرة-مصر.

٨٢- في ظلال القرآن: سيد قطب-دار الشروق-بيروت-لبنان-ط٣-١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٨٣- القاموس المحيط:مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي-مؤسسة الرسالة-دمشق-سوريا-ط١-١٤٠١هـ-١٩٨٠هـ.

٨٤- قبسات من الرسول-محمد إبراهيم قطب-دار الشروق-بيروت-لبنان-ط٩-١٩٨٤م.

٨٥- كتاب التعريفات:على بن محمد الجرجاني-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨٦- الكشاف:عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان-ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٨٧- كلمات القرآن:حسنين محمد مخلوف-دار القلم-بيروت-لبنان.

٨٨- الكليات:أبو البقاء الكفوي-مؤسسة الرسالة-بيروت-لبنان-١٣٩٨هـ.

٨٩- لباب التأويل في معاني التنزيل-علاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي" الخازن " -دار الفكر-بيروت-لبنان-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٩٠- لسان العرب:جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري المصري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١.

٩١- لقاء المؤمنين:د-عدنان على رضا النحوي-دار النحوي-الرياض-السعودية-ط٤-١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٩٢- الله يتجلى في عصر العلم:مجموعة الباحثين-دار القلم-بيروت-لبنان.

٩٣- مجمع البيان في تفسير القرآن:أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي-دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان-.

٩٤- محاسن التأويل:محمد جمال الدين القاسمي-دار الفكر- بيروت- لبنان-ط٢-١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٩٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٩٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١.

- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية- دار الرشاد- الدار البيضاء-المغرب.

٩٧- المسند: أحمد بن محمد بن حنبل-تح. حمزة الزين-دار الحديث-القاهرة-ط١-١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- المسند: أحمد بن حنبل – دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.

- المسند: أحمد بن حنبل – مؤسسة قرطبة – القاهرة – ط.١ .

٩٨- المصحف المفسر:محمد فريد وجدي-دار النهضة-القاهرة-مصر-ط٦-١٣٧٢هـ-١٩٥٣م.

٩٩- مع الأنبياء في القران الكريم:عفيف الطبارة-دار العلم للملايين-بيروت-لبنان-ط١٦-١٩٨٧م.

١٠٠- معالم التنزيل في التفسير والتأويل: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي-دار الفكر-بيروت-لبنان-١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

- معالم التنزيل-أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان-ط١-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٠١- معالم المنهج الإسلامي:محمد عمارة-دار الشروق-ط٢-١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٠٢- معاني الانبية في اللغة العربية:فاضل صالح السامرائي-جامعة الكويت-ط١-١٩٨١م.

١٠٣- المعجم الصغير: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني-مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٠٦هـ-١٩٩٥م.

١٠٤- المعجم الكبير- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٠٥- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة-مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان.

١٠٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم:محمد فؤاد عبد الباقي-دار الحديث-القاهرة-مصر-ط٢.

١٠٧- المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون-مجمع اللغة العربية-القاهرة-مصر-ط٢.

- المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون -مجمع اللغة العربية-القاهرة-مصر -ط٣.

١٠٨- معجم مقاييس اللغة:أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا-مطبعة البابي الحلبي-ط٢-١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

١٠٩- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني "الراغب"-دار المعرفة-بيروت-لبنان.

١١٠- المقتطف من عيون التفاسير:مصطفي الخيري المنصوري-دار السلام-القاهرة-١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١١١- مناهل العرفان في علوم القرآن:محمد عبد العظيم الزرقاني-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١١٢- المنتخب في تفسير القران الكريم:لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية –القاهرة-ط١٨-١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١١٣- موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام-د-عدنان على رضا النحوي-دار النحوي-الرياض-السعودية-ط٣-١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١١٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان- ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١١٥- النكت والعيون:أبو محسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان- ط١-١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١١٦- هذا ديننا:محمد الغزالي-دار الكتب الإسلامية-القاهرة-مصر- ط٣-١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

١١٧- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري-دار القلم-دمشق-سوريا ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١١٨- الوسيط في تفسير القرآن المجيد أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١١٩- الوسيط في تفسير القران المجيد:أبو الحسن على بن احمد الواحدي-النيسابوري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٢٠- اليوم الآخر:عبد القادر الرحباوي-دار السلام-بيروت-لبنان-ط٨-١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

فهرس الموضوعات

Identification the thesis

This scientific thesis talks about grace subject in the holy Quran and reasons of it's continuity and reasons of it's termination .

This thesis contains preface , five chapters and conclusion this is fast brief about this thesis which contains the main points .

Introduction **: It talks about grace concept ,it's definition also presenting the utterance of grace in holy Quran and knowing the real meaning for grace .**

Chapter ١ **: The aspects of grace in holy Quran ,**
it contains :-
١-The characteristic of grace in holy Quran .
٢-The aspects and the meanings of grace in holy Quran .
٣-The greatest aspects of grace that mentioned in holy Quran .

Chapter ٢ **:- Allah's grace for human ,**
it contains :-
١-Universal grace which Allah exploit to human .
٢-Available grace in human self .
٣-Special benefactions as security ,money, children, wife and health .

Chapter ٣ **: the reasons of grace obtainment and it's continuity in present life and the after life**>>>> **it contains :-**
١-The reasons of getting and it's continuity in present life and the after life .
٢-Thank the grace .
٣-Several and various reasons for continuity the grace .

Chapter ٤ **: The reasons of termination and loss grace , and researcher talks about :**
١-Researcher explains the most important reasons for termination and loss grace .
٢-the most important reasons for denial the grace .
٣-several and various reasons for termination the grace , in addition to denial the grace

Chapter ٥ **: The effects of grace on thankful and deniers ,**
It contains :-
١-Identification of the Allah who gives them every thing , and samples of them through holy Quran .
٢-Identification for people who deny the grace and their samples through holy Quran .
٣-Showing the effects of thank grace upon human in present life and after life .
٤-Showing denial the grace on human in life and after life .

The conclusion : it contains short summary about thesis , and the most important results which the researcher reaches in his thesis and recommendations .